خمسة من العرفاء

الذين تتلمذوا على آل العصمة محمد والأئمة المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

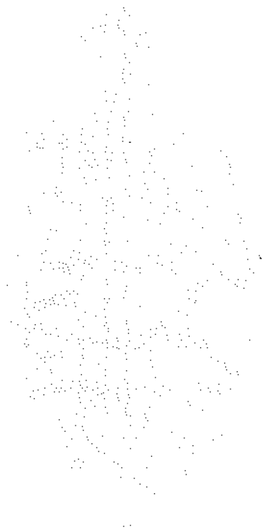
تأليف

تقي حسين الموسوي

دار المحجة البيضاء



دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان



خمسة من العرفاء

الذين تتلمذوا على آل العصمة
محمد والأئمة المعصومين
صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين


بسم الله الرحمن الرحيم

خمسة من العرفاء

الذين تتلمذوا على آل العصمة
محمد والأئمة المعصومين
صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

تأليف

تقي حسين الموسوي



دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

المقدمة

إن الرواد من العرفاء وأولياء الله الصالحين الذين تتلمذوا مباشرة على أئمة أهل البيت عليهم السلام لم ينحصروا في الخمسة الذين ذكرنا سيرهم العطرة الطاهرة في هذا الكتاب، بل هم أكثر بكثير من ذلك. فعلى سبيل المثال العارف الكبير وقطب الطريقة الأويسية إبراهيم الأدهم كان قد تتلمذ على الإمام الباقر عليه السلام، وشقيق البلخي - وهو أيضاً عارف كبير وقطب الطريقة الأويسية - كان قد تتلمذ على الإمام موسى الكاظم عليه السلام، بل إنه استشهد في سبيل الله وقتل بتهمة التشيع وبأنه كان من شيعة الإمام موسى الكاظم عليه السلام. ولكننا في هذا الكتاب ذكرنا خمسة فقط من رواد العرفان الذين تتلمذوا على الأئمة عليهم السلام كعينة على وجود حبل الله المتين الذي كان يربطهم بهذا المعين الطاهر المطهر.

فالعرفان هو لب الدين وذروة الفهم والعقل الذي اختص الله به الأنبياء والأئمة الطاهرين والأوصياء وعباد الله الصالحين على مر التاريخ. والعرفان هو ذروة النضج العقلي والفكري الذي يثاب به المرء بعد المراهقة العقلية والفكرية. والعرفاء هم في قمة هذا النضج العقلي. ومقارنة بهؤلاء الفطاحل الذين تنبهوا للحقائق الأزلية والأبدية في وقت مبكر من حياتهم وتداركوا أخطائهم في الوقت المناسب، وصححوا منهاج حياتهم ونمط معيشتهم، ووضعوا أنفسهم على سكة السير والسلوك

والذكر والجهاد الأكبر وعلى الصراط المستقيم، فإن غيرهم من الناس يعيشون في مراهقة فكرية على الرغم من دراساتهم العالية في الجامعات، وعلى الرغم من تبوئهم مناصب عالية وزارية كانت أو غيرها.

ويحتاج أكثرهم أن يعيشوا مدة طويلة في ممارسات جمع الأموال والإفراط في شهواتهم ورغباتهم. وبعد مائة سنة مثلاً حين يشبعون من رغباتهم وشهواتهم ويملوها ويمجوها وتنهار قواهم الجسدية ينتبهون من نومهم ويقل عنادهم وطغيانهم. حينذاك يستشرفون على النضج العقلي ولكن بعد فوات الأوان. آنذاك يتفهمون ويقدرون ما قاله الأنبياء والحكماء والعرفاء والأولياء ويندمون ولات حين مناص! لأن عليهم آنذاك أن يطبقوا ما قاله الأنبياء والحكماء على أنفسهم، ولكن قواهم المنهارة لا تساعدهم على ذلك. وكل ذلك بشرط الافتراض بأنهم محافظون على قواهم العقلية. وإلا فالفرصة ضيقة في هذه الحياة القصيرة للهداية وللنضج العقلي والفكري.

يفرطون في الدنيا حتى تشبع أنفسهم من الأموال والمناصب وتمج قلوبهم تخمة الدنيا. هنالك ينبثق النضج العقلي والفكري بعد المراهقة العقلية والفكرية الطويلة. ونأمل أن يتداركوا أخطأهم ويصححوا نهجهم في الحياة ونمطهم في معيشتهم إن تيسر ذلك.

أ ـ تماماً مثل الذي يحب الطعام ويقبل عليه بشغف ويفرط فيه حتى الثمالة وحتى تصيبه التخمة المزمنة وتنقلب صحته وسلامته رأساً على عقب. هنالك يتعلم الاعتدال ويفهم مضرات التخمة ويغير منهج حياته ونمط معيشته.

ب ـ أو كالذي يحب الإفراط في شهوة النساء حتى يمجها ويتحمل تبعاتها من الأمراض النفسية والجسدية ويعلم مضرات الإفراط في الش[illegible]ـاركه ويغير منهاج حياته ونمط معيشته.

ج ـ أو كالذي يحب الخمر ويشربه حتى الثمالة وبإفراط شديد حتى إذا فسد كبده تنبه لخطيئته ورضخ لأوامر طبيبه وكف عن شرب الخمر.

د ـ أو كالذي يتهافت على القدرة ويتنافس عليها. ثم إذا نالها طغى وتجبر وسعر خده للناس. حتى إذا تمادى في غيّه وأخذته سكرة القدرة واستغل الجاه والمقام أبشع استغلال، جاءته النكسة من حيث لا يحتسب. فأصبح نادماً يقلب كفيه على ما فاته من بهرجة القدرة والمناصب. أو ربما طال غيّه ثم في نهاية المطاف تهاوت قواه وانهارت بفعل الأحداث أو المصائب أو البلايا أو الأمراض. فأصبح يتحسر على القدرة والمناصب العليا التي كان يتمتع بها. وإذا بقي فيه شيء من الضمير استشرف على النضج العقلي والفكري ولما يقطف ثمراتها. أما إذا مات هكذا على حاله قال: «ارجعوني لعلي أعمل صالحاً فيما تركت»[1].

وبمناسبة ذكر البلايا والمصائب والأحداث والأمراض فربما خرج من بطنها خير كثير يتحف المرء بالهداية التي بشر بها الأنبياء والأئمة الطاهرون والأولياء والعارفون. قال الإمام علي الهادي عليه السلام: «ما من بلية إلا ولله نعمة تحيط بها». فليتلقفها العاصون في أيام محنتهم وليستيقظوا من سباتهم وليفتحوا بصيرتهم على هذه النعمة التي تحيط بالبلايا!

وهل الأكل والشرب والشهوات الجنسية والتنافس على القدرة إلا صفات بهيمية تشترك معنا فيها البهائم! فلماذا نتسابق في صفات البهائم

---

(١) كما قال الله جل وعلا في سورة المؤمنون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ولا نتسابق في صفات الأنبياء والأولياء والعارفين! وأول صفاتهم المعرفة والعرفان.

هـ ـ أو كالذي ظلم الناس وجمع الأموال وأخذته سكرة المال وتمادى في ظلم الناس وفي زيادة أرقام الثروة في الحسابات المصرفية وتعلق قلبه بها ولم ينفقها في سبيل الله. حتى إذا وصل الشيخوخة وعمره الله ونكسه في الخلق إذا هو ينظر إلى أمواله في حسرة، يعلم أن موته قريب وشيك، وأن الورثة بدأوا يتهافتون وسيتهافتون عليها من بعد موته تهافت الذباب على التمر وتهافت النمل على العسل. ثم يكون موته عليه حسرات!!!

وما هذه إلا أمثال وغيض من فيض. وإن حب الدنيا لفنون وألذ من لذائذ الطعام وأحلى من شهوات النساء وأسكر من سكرة الخمر والمدامة وأحب إلى القلب من الأموال والأولاد والجاه والمقام والمناصب. وكما قال مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ينبغي للعاقل أن يحترس سكر المال وسكر العلم وسكر القدرة وسكر المدح وسكر الشباب، فإن لكل واحد من ذلك ريحاً خبيثة تسلب العقل وتستخف الوقار». وكما قال عليه السلام: «ينبغي للمؤمن أن يستحي إذا اتصلت له فكرة من غير طاعة. ينبغي أن يتداوى المرء من أدواء الدنيا كما يتداوى ذو العلة ويحتمي من شهواتها ولذاتها كما يحتمي المريض».

والعرفان عين متدفقة تنبثق من معين آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله. فالعرفاء هم أولياء الله الصالحون الذين أحبوا الله تعالى حباً شديداً وولهو في عشقه وغرامه، واتبعوا محمداً صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين اتباع المعزى لفصيله، واحتذوا بهم وبنهجهم حذو النعل بالنعل، والتصقوا بنهجهم الطاهر المطهر التصاق الرضيع بثديي أمه، اتباعاً واحتذاءً

والتصاقاً مصحوباً بذكر الله الدائم والعمل الجاد الدؤوب والجهاد الأكبر حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه. وكان من نتيجة هذا الاتباع وهذا الاحتذاء وهذا الالتصاق أن أحبهم الله جل شأنه.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1]. فلا غرو ولا غرابة أن قال الله تعالى في شأنهم في حديثه القدسي: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت بصره الذي يبصر به وسمعه الذي يسمع به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها وقدمه التي يسعى بها، فبي يبصر وبي يسمع وبي ينطق وبي يبطش وبي يسعى وإن استعانني أعنته وإن دعاني أجبته».

ولأن تقربهم إلى الله تعالى كان صادقاً وعلى مكانة عظيمة من الجدية والإخلاص في كل خطوة اختطوها وأذكار وأوراد دأبوا عليها وأعمال صالحة عملوها حباً في الله وتقرباً إليه زلفى، حتى صار الواحد منهم بصر الله الذي يبصر به، وسمع الله الذي يسمع به، ولسان الله الذي ينطق به، ويد الله التي يبطش بها، وقدم الله التي يسعى بها. فهم حقاً شيعة أهل البيت ﷺ، أو بعبارة أخرى أتباع أهل بيت رسول الله ﷺ، لا بالاسم فقط، بل لأنهم اتبعوهم واتبعوا نهجهم الشريف.

فما أندر ما نرى شيعتهم وأتباعهم الذين يتبعونهم بالعمل لا بالكلام. فإنني لا أرى تشيعاً إلا بالعمل واتباع نهجهم والاحتذاء بهم حذو النعل بالنعل. أما إذا انحصرالتشيع في لقلقة اللسان وجعجعة الطقوس وضجيج المجالس فلا فائدة منه. فلا بأس أن تكون شيعياً بالاسم، ولكن بشرط السعي الدؤوب للوصول إلى مسمى هذا الاسم السامي، وهو اتباعهم اتباع الفصيل لأمه والاحتذاء والاقتداء بهم

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

والالتصاق بنهجهم صلوات الله عليهم أجمعين تقرباً وزلفى إلى الله العلي القدير.

أما أئمتنا عليهم السلام فلقد تساموا إلى المقام القدسي في أعلى عليين وفي جوار ربهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر. إلا أنهم في مقامهم العظيم لم يكفوا طرفة عين عن ذكر الله ولم يتخلوا لحظة عن الجهاد الأكبر.

فالإنسان في حضيض الدنيا وفي أسفل السافلين من وجوده عبد للنفس الأمارة، لا يستشعر ذنوبه وآثامه رغم كبرها من الفسق والفجور والفحشاء والمنكر، بل يبررها بأي وسيلة كانت، ولا يشعر بأي حاجة إلى ربه، فهو من الذين ذكرهم الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[(١)].

وكلما ارتفع الإنسان وسما وانتزع نفسه عن الدنيا انتزاعاً شرع في رؤية ذنوبه وآثامه في نفسه اللوامة، وبدأ في حاجته إلى خالقه لتخليصه من هذا الحضيض. تماماً كالذي في الأرض منغمساً في ضوضائها لا يميز الخبيث من الطيب، ثم إذا صعد الجبل استبانت له المعالم، وكلما ارتقى في صعوده خف الضجيج وسكن وتحسنت رؤيته للأشياء. يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «إلهي أنت الذي هديتهم حتى استبانت لهم المعالم».

وحينما يسمو الإنسان إلى النفس المطمئنة يرى ذنوبه وآثامه بشكل واضح، وبحالة دائمة مستمرة، ويشعر بالحاجة الشديدة للخلاص منها، وتزداد حاجته إلى ربه وتكبر وتكبر وتشتد وتشتد حتى تتجاوز حاجته إلى أنفاسه ودقات قلبه. فهو في حاجته المدقعة إلى ربه يصبح الفقير المطلق

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

إلى الله ولسان حاله يقول: «الفقر فخري»[1] و﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[2]. ولكن يا ترى ما هي ذنوبه وآثامه؟

حاشاه أن يقترف من الذنوب والآثام التي يقترفها عبيد النفس الأمارة. فمجرد الخواطر والأفكار المنبثقة عن دنياه وسفاهاتها وتفاهاتها وسخافاتها، والناشئة عن تصرفات محيطه الغارق في الجهالات والقذارات والوساخات، والمتدفقة من الناس حوله الذين يتعايش معهم، والتي يمر عليها مر الكرام، ولكن قد تتوارد على خاطره، وقد تبقى في ذهنه ولو لطرفة عين، بل كل حالة يمكن أن تبعده ولو لحظة عن جوار ربه، هي في الحقيقة ذنوبه وآثامه. نعم ذنوبه التي يحاربها حرباً شرسة بالالتجاء إلى الله تعالى تقرباً وزلفى إلى الله، دائماً أبداً دأباً لا يكل ولا يمل، وهي آثامه التي قد تعكر ولو لطرفة عين الصفو والصفاء بينه وبين ربه.

فقد استوحش هذا الإنسان الكامل من الخلق واستأنس بالله. يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «إلهي أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم». هو ينشد جوار ربه أبداً دائماً سرمداً، ولذلك يراقب قلبه ليل نهار حتى لا يرد إليه غير الله ونفحاته السرمدية الأزلية، ولا يتهاطل عليه غير ودق القدسية الربانية، ولا يقرع بابه غير النفحات الرحمانية. وهو ينشد الصفاء الدائم مع الله في كل لحظة حتى لا يعكر عليه شيء هدوئه وطمأنينته ومقام الشكر والحالة الإلهية التي يعيش فيها من سكينة الله وصبغته ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾[3]. فهدفه هو

---

(١) الحديث النبوي الشريف.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣٨.

الكمال المطلق في النفس المطمئنة حتى ترجع إلى ربها راضية مرضية وتدخل في عباده وتدخل جنته.

فما نقرأه من أدعية الأئمة ﷺ، كأدعية الصباح وكميل للإمام علي ﷺ ودعاء عرفة للإمام الحسين ﷺ وأدعية الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين ﷺ ودعاء الجوشن الصغير للإمام موسى الكاظم ﷺ وغيرها الكثير من الأدعية المأثورة، لهي خير دليل على حالتهم الصادقة المخلصة ومقامهم الشامخ الذي يعبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾[1]. وما أكثر منا من يقرء هذه الأدعية كالببغاء لا يفهم منها شيئاً غير مشاكله الدنيوية اليومية. وإذا بكى فربما تخشعاً وتضرعاً كسحابة صيف عابر، ولكن في أكثر الأحيان للخسارات المادية التي قد لحقته من معاملات دنياه.

وما أنسى في هذا المقام رواية الأصمعي في صباه عن الإمام زين العابدين ﷺ التي ذكر فيها ما يلي:

«بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذ رأيت شاباً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول:

يا من يجيب دعاء المضطر في الظلم
يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا
وأنت يا حي يا قيوم لم تنم
أدعوك ربي حزيناً هائماً قلقاً
فارحم بكائي بحق البيت والحرم

---

(١) سورة ص، الآيتان: ٤٦، ٤٧.

إن كـــان جـــودك لا يـــرجـــوه ذو ســـفـــه
فـمـن يـجـود عـلـى الـعـاصـيـن بـالـكـرم



ثم بكى بكاءً شديداً وأنشد يقول:

ألا أيها المقصود في كل حاجة — شكوت إليك الضر فارحم شكايتي
ألا يا رجائي أنت تكشف كربتي — فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
أتـيـت بـأعـمـال قـبـاح رديـئـة — وما في الورى عبد جنى كجنايتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى — فـأين رجائي ثم أين مخافتي



ثم سقط على الأرض مغشياً عليه فدنوت منه فإذا هو زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فرفعت رأسه في حجري وبكيت، فقطرت دمعة من دموعي على خده ففتح عينيه، وقال: من هذا الذي يهجم علينا. قلت: عبدك الأصمعي سيدي ما هذا البكاء والجزع وأنت من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة. أليس الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾. قال: هيهات هيهات يا أصمعي إن الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً وخلق النار لمن عصاه ولو كان حراً قرشياً. أليس الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[1].

فالناس في واد وأولياء الله الصالحون في واد آخر. لأن الناس

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١٠١ ـ ١٠٣.

يتوجه همهم اليومي إلى الربح ومتاع الدنيا وحطامها، وهم عن أنفسهم غافلون. قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾[1]. فخسروا أنفسهم في نهاية المطاف، وتركوا متاع الدنيا وزينتها وزبرجها، ولم يحملوها معهم إلى حياة الخلود، وذلك هو الخسران المبين!

أما العرفاء شيعة الأئمة عليهم السلام وأتباعهم فكل همهم في هذه الدنيا خلاص النفس من حطام الدنيا ومن السلاسل والأصفاد والقيود والأغلال، وعتق رقابهم من النار الموقدة التي تتأجج في داخل النفس. قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾[2]. فإن الله تعالى يعبر عن واقع الحال في النفس البشرية، الذي لا يفطن إليه غير عباد الله الصالحين.

فالإنسان يمر في مراحل مختلفة أبرزها ثلاثة: النفس الأمارة، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة. نحاول توضيحها كالآتي:

١ ـ **النفس الأمارة**: هي المرحلة التي لا يسمو فيها الإنسان عن بهيميته، ويبقى فيها يمارس الفواحش وكبريات المعاصي، وهو يظن أنه يحسن صنعاً. بل إنه يتفاخر ويتباهى بالفجور والفسوق علناً لأنه يظن أن كل ذلك يثبت رجولته وشطارته! وربما في بعض الأحيان يواجه بعض الإحراج في ظروف اجتماعية معينة حيث يلقى الملامة من أقرانه على قبائح أفعاله. ولعدم وجود القناعة عنده بقباحة أفعاله يركب محمل الرياء والنفاق ويحاول الظهور بمظهر الرجل الطيب، ولكنه لا يتوقف في حياته

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.
(٢) سورة الهمزة، الآيات: ٤ ـ ٩.

العملية عن اقتراف الفحشاء والمنكر محاولاً فعل ذلك في السر بعيداً عن أعين أقرانه. والغريب أنه في هذه المرحلة لا يشعر بأنه يقترف هذه الكبائر من الذنوب والآثام.

أما المواعظ الدينية التقليدية فتنتج ثلاث فئات:

أ ـ **الفئة الأولى**: تبقى على حالها من النفس الأمارة ولكنها تستعمل الرياء والنفاق ولا تجاهر بالمعاصي.

ب ـ **والفئة الثانية**: ربما تتخطى قليلاً النفس الأمارة وتستشرف استشرافا على النفس اللوامة، بمعنى أن ضميره يبدأ في التحرك والاستيقاظ ويشرع في مرحلة من تأنيب الضمير.

ج ـ **والفئة الثالثة**: ربما يدخل بثقله في النفس اللوامة، موطداً نفسه على مواصلة سيره نحو الكمال في السير والسلوك.

والنفس الأمارة هي مقام أصحاب الشمال في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾[1].

٢ ـ **النفس اللوامة**: هي المرحلة التي يسمو فيها السالك عن النفس الأمارة، فيتخذ طريقه في صحوة الضمير، وتبدأ هنالك مراحل تأنيب الضمير. والسمة الغالبة فيها الاستغفار. وربما تقدم السالك في هذه المرحلة بحيث يستشعر الذنب في أول وهلة فيتركها ولا يصر عليها في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[2].

---

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٤١ ـ ٤٦.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٥ ـ ١٣٦.

وهذا هو مقام أصحاب اليمين في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾[1].

٣ ـ **النفس المطمئنة**: هو المقام الذي يجاهد فيه العارف نفسه أكبر جهاد، ويقوم بأعمال هي أكبر الأعمال، ويدخل في عبادة هي أكبر العبادات، ألا هو **مراقبة الأنفاس**. يقول بايزيد البسطامي (قدس سره): «عبادة أهل المعرفة مراقبة الأنفاس».

فالذنوب والآثام في هذا المقام هي مجرد خواطر أو واردات فكرية أو هواجس عصبية، ربما تخطر على بال العارف، في حين أن العارف يميل إلى أن يدفعها عن نفسه دفعاً، لأنه يحب الله حباً شديداً ويحب الاستقرار في جواره أبداً دائماً دأباً، ولا يريد شيئاً ينغص عليه تلك الحالة السامية والمقام الرفيع. فلا يغفل لحظة عن ذكر الله وجهاد النفس حتى لا يحول بينه وبين ربه حتى مجرد خاطرة أو فكرة أو هاجسة.

وينشد العارف أن يسيطر على خواطره العصبية اللاإرادية، بل حتى على ما يسميه علماء النفس بمنطقة اللاوعي، وهي المنطقة التي لا يعيها الإنسان، لوجود التجارب المريرة فيها من عهد الطفولة، حتى رسبت عميقاً في غياهب هذه المنطقة وأصبحت نسياً منسياً. ولكنها لا تزال تفرز خواطر وحركات عصبية لاإرادية تتفاعل في النظام العصبي في الإنسان.

---

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٢٧ ـ ٣٤.

فينشد العارف التغلب النهائي على الخواطر العصبية، التي تنتجها الرسائل الكهربائية المغناطيسية والكيماوية، والتي تنبثق من منطقة معينة من المخ وتنتشر في النظام العصبي. فحتى هذه الخواطر العصبية بالنسبة له هي ذنوب تحول بينه وبين جوار ربه، وآثام تبعده عن النفس المطمئنة المطلقة. أليست هي الذنوب والآثام التي تعكر صفو العارف وخلوته مع الله جل وعلا!

فإرادته تطال حتى الرسائل الكهرومغناطيسية والكيماوية في النظام العصبي. كل ذلك في سبيل تواجد العارف المستمر في جوار الله والخلوة معه. فمن بقي تحت تأثير الخواطر والحركات العصبية اللاإرادية الناشئة عن النظام العصبي، تكون هذه التأثيرات بالنسبة له عبودية لهذا النظام. وأنى للعارف أن يقبل بعبودية لغير الله! وإنها لعمري من الأعمال الصالحة الجبارة، يجزون ما يجزون عليها من الأجر والثواب الجزيل بما كانوا يعملون! كما جاء في سورة الواقعة.

يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «إلهي أقمني بصدق العبودية بين يديك». فهل يا ترى تتماهى عبودية النظام العصبي مع صدق العبودية بين يدي مليك مقتدر!!! يقول بشر الحافي (قدس سره): «اخرج الدنيا من قلبك، فإذا بقي شيء منها في قلبك فكل سجدة لك إنما هي السجود لذلك الشيء».

وهذا لعمري هو مقام ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾. في قوله جل وعلا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا

يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا
يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾[1].

المؤلف:

تقي حسين أسد الله الموسوي

١٣ رجب المرجب ١٤٣٠ الهجري

٦ يوليو ٢٠٠٩ الميلادي

ميلاد أمير المؤمنين وسيد المتقين وقائد الغر المحجلين

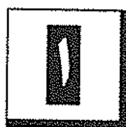
علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام



(١) سورة الواقعة، الآيات: ١٥ ـ ٢٦.

سلمان الفارسي

رضوان الله عليه





نبذة من فضائل سلمان الفارسي

كان سلمان الفارسي ﵁ من الحواريين الثلاثة لرسول الله ﷺ كما في حديث الإمام موسى بن جعفر ﵇: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين حواري محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ الذين لم ينقضوا العهد ومضوا عليه، فيقف سلمان ومقداد وأبو ذر. ثم ينادي مناد أين حواري علي بن أبي طالب ﵇ وصي محمد بن عبد الله رسول الله فيقوم عمرو بن الحمق الخزاعي، ومحمد بن أبي بكر، وميثم بن يحيى التمار مولى بني أسد وأويس القرني»[1].

وقال النبي ﷺ: **«سلمان منا أهل البيت. لو كان الدين في الثريا لناله سلمان»**. وقال ﷺ: **«سلمان يبعث أمة، لقد أشبع من العلم»**. وقال ﷺ: **«أمرني ربي بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم: علي وأبو ذر والمقداد وسلمان»**. وقال علي ﵇: «سلمان امرؤ منا وإلينا أهل البيت، من لكم بمثل لقمان الحكيم، علم العلم الأول والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر، وكان بحراً لا ينزف»[2].

---

(١) كما ذكره السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة جزء ٣ صفحة ٥١٤، وفي رجال الكشي صفحة ٩ نقلاً عن محمد تقي الشوشتري في قاموس الرجال جزء ٢ صفحات ٢١٨ و٢١٩، والخوئي في معجم الرجال جزء ٣ صفحة ٢٤٧.

(٢) الأعلام للزركلي ٣/ ١٦٩ ـ ١٧٠.

وقال علي عليه السلام: «السباق خمسة، فأنا سابق العرب، وسلمان سابق فارس، وصهيب سابق الروم، وبلال سابق الحبشة، وخباب سابق النبط». نعم هو سابق فارس إلى الإسلام وإلى الإيمان. ولقد ثبت ذلك حين غزا المسلمون أرض فارس سنة ١٥ للهجرة في حرب القادسية وما بعدها من الغزوات، فكان يدعو قومه إلى الإسلام كما قال ابن الأثير. وتحول أهل فارس إلى الإسلام بهذه السرعة وبهذه السهولة لم يكن ممكناً لولا سلمان رضي الله عنه الذي دعاهم إلى الإسلام بلسانهم وبلغتهم الفارسية بالحكمة والموعظة الحسنة. فكان بحق سابق فارس كما ذكره الإمام علي عليه السلام.

قال ابن الأثير: «وكان سلمان الفارسي رائد المسلمين وداعيتهم، دعا أهل (بهرسير) ثلاثاً، وأهل القصر الأبيض ثلاثاً»[1]. وعن مسند أحمد: «كان يقول لهم: إنما كنت رجلاً منكم، فهداني الله للإسلام فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا. وإن أنتم أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون. فإن أبيتم نابذناكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين». وعن مسند أحمد أيضاً: «كان يقول: أدعوهم كما رأيت رسول الله يدعوهم». يفعل ذلك بهم ثلاثاً.

عن عائذ بن عمرو: «أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر، فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك**». فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا! يغفر الله لك يا أخي»[2].

---

(١) الكامل ٢/٥٠٨ إلى ٥١٤.

(٢) صحيح مسلم ٤/١٩٤٧ رقم الحديث ٢٥٠٤.

وعن أبي هريرة أنه قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾. قلنا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا؟ ـ وسلمان الفارسي إلى جنبه ـ فضرب ﷺ بيده على ركبته فقال: «**هذا وقومه**» ـ مرتين أو ثلاثاً ـ والذي نفسي بيده لو كان الإيمان يناط بالثريا لتناوله رجال من الفرس. أو قال: من هؤلاء»[١].

لم يكن سلمان مجوسيً في يوم من الأيام، ولكنه كان مظهراً للشرك مبطناً للإيمان. في حديث لعلي عليه السلام جاء فيه: حضرت رسول الله ﷺ وسلمان بين يديه فدخل أعرابي فنحاه عن مكانه وجلس فيه، فغضب رسول الله ﷺ حتى در العرق بين عينيه واحمرتا عيناه ثم قال: «**يا أعرابي أتنحي رجلا يحبه الله تبارك وتعالى في السماء ويحبه رسوله في الأرض ...**» إلى أن قال: «**إن سلمان ما كان مجوسيًا ولكنه كان مظهراً للشرك مبطناً للإيمان**»[٢]. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إن سلمان كان عبداً صالحاً حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[٣].

قالت عائشة: كان لسلمان مجلس من رسول الله ﷺ ينفرد به الليل، حتى كاد يغلبنا على رسول الله»[٤]. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «عاد رسول الله ﷺ سلمان الفارسي فقال: «**يا سلمان! لك في علتك ثلاث خصال: أنت من الله ﷻ بذكر، ودعاؤك فيه مستجاب، ولا تدع العلة عليك ذنباً إلا حطته، متعك الله بالعافية إلى منتهى أجلك**»[٥].

---

(١) مفتاح الجنان ١/ ٨ ـ ٩.

(٢) البحار للمجلسي ٣٤٧/٢٢.

(٣) البحار ٣٢٧/٢٢.

(٤) الاستيعاب ـ حاشية على الإصابة ٢٥٩/٢.

(٥) الدرجات الرفيعة ٢٠٩ ـ ٢١٠.

وكتب النبي ﷺ عهداً لحي سلمان بكازرون وصورته[1]: «بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد رسول الله، سأله سلمان وصية بأخيه ماهاد بن فروخ وأهل بيته وعقبه من بعده، من أسلم منهم وأقام على دينه: سلام الله أحمد الله إليكم الذي أمرني أن أقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أقولها وآمر الناس بها، وأن الخلق خلق الله والأمر حكمه، الله خلقهم وأماتهم وهو ينشرهم وإليه المصير، وإن كل أمر يزول وكل شيء يبيد ويفنى، وكل نفس ذائقة الموت. من آمن بالله ورسوله، كان له في الآخرة دعة الفائزين، ومن أقام على دينه تركناه، فلا إكراه في الدين. وهذا كتاب لأهل بيت سلمان، أن لهم ذمة الله وذمتي على دمائهم وأموالهم في الأرض التي يقيمون فيها، سهلها وجبلها ومراعيها وعيونها، غير مظلومين ولا مضيقاً عليهم.

فمن قرئ عليه كتابي هذا من المؤمنين والمؤمنات، فعليه أن يحفظهم ويكرمهم ويبرهم ولا يتعرض لهم بالأذى والمكروه. وقد رفعت عنهم جز الناصية والجزية والخمس والعشر إلى سائر المؤن والكلف. ثم إن سألوكم فأعطوهم وإن استغاثوا بكم فأغيثوهم، وإن استجاروا بكم فأجيروهم، وإن أساؤا فاغفروا لهم وإن أسيئ إليهم فامنعوا عنهم، ولهم أن يعطوا من بيت مال المسلمين في كل سنة مائة حلة في شهر رجب ومائة في الأضحية ومن الأواني مائة.

فقد استحق سلمان ذلك منا، لأن فضل سلمان على كثير من المؤمنين، وأنزل في الوحي علي أن الجنة إلى سلمان أشوق من سلمان إلى الجنة. وهو ثقتي وأميني تقي نقي ناصح لرسول الله والمؤمنين، وسلمان منا أهل البيت. فلا يخالفن أحد هذه الوصية، فمن خالفها فقد

---

(١) الدرجات الرفيعة ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

خالف الله ورسوله وعليه اللعنة إلى يوم الدين، ومن أكرمهم فقد أكرمني وله عند الله الثواب، ومن آذاهم فقد آذاني وأنا خصمه يوم القيامة وجزاؤهم جهنم وبرئت منه ذمتي، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب علي بن أبي طالب بأمر رسول الله ﷺ في رجب سنة تسع من الهجرة، وحضر أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسلمان وأبو ذر وعمار وعتبة وبلال والمقداد وجماعة آخرون من المؤمنين».

قال ابن شهرأشوب: والكتاب إلى اليوم - في عصره - في أيديهم ويعمل القوم برسم النبي، فلولا ثقته بأن دينه يطبق الأرض لكان كتبه هذا السجل مستحيلاً[1].

وأورد المحدث النوري في كتابه نفس الرحمن هذا النص: وقال إنه وجده في (تاريخ كزيدة) وقال ما معناه إن أقارب سلمان من أكابر فارس وعندهم هذا العهد بخط أمير المؤمنين وعليه خاتم النبي على أديم أبيض.

وقد ذكر صاحب مجموعة الوثائق السياسية نسخة هذا العهد في القسم الرابع من كتابه، في ذكر ما نسب إلى النبي ﷺ من العهود، أخرجها من نسخة عهد نشرها جمشيد جي جيرجي، وهي مبنية على أصل كان عندهم. وذكرها أيضاً عن طبقات المحدثين بأصبهان لابن حبان، أخبار أصفهان لأبي نعيم، لكن ألفاظ العهد وأسلوبه يغاير سائر عهوده[2].



(١) البحار جزء ٢٢ صفحات ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٢) التعليق على البحار الجزء الآنف صفحة ٣٦٩.

سلمان في صباه
في فارس

يكتب آل الفقيه هذه الرواية من سيرة سلمان رضوان الله عليه من طفولته وصباه في فارس إلى إسلامه وعتقه من الرق نقلاً عن مصادر مختلفة وكتب تاريخية معتبرة من أمثال إكمال الدين صفحات ١٥٩ إلى ١٦٤، وحقائق الإيمان صفحة ١٩٢، وشرح النهج جزء ٨٨ صفحات ٣٧ إلى ٣٩، وأسد الغابة لابن الأثير جزء ٢ صفحة ٣٢٨، والطبقات الكبرى مجلد ٤ صفحات ٧٥ و٨٠، والمستدرك مع التلخيص جزء ٣ صفحة ٦٠٣ للحاكم النيسابوري.

كان اسمه روزبه وسماه رسول الله ﷺ سلمان وكان اسم أبيه خشفوذان. وكان هذا الأخير من دهاقين فارس ـ وقيل من أساورتها ـ له إمرة على بعض الفلاحين من أبناء أصفهان. وكان واسع الحال يملك بعض المزارع شأن غيره من الطبقة الوسطى في المجتمع الفارسي آنذاك. وكانت لولده سلمان مكانة خاصة في نفسه جعلته يستأثر بالنصيب الأكبر من اهتماماته، فهو لا يكلفه بأي عمل شاق شأنه في ذلك شأن بقية المترفين في معاملة أبنائهم.

وذات يوم كان خشفوذان مشغولاً ببناء داره، فطلب من ولده أن يذهب إلى مزرعة له ليشرف على سير عمل الفلاحين فيها عن كثب،

وطلب منه أن لا يتأخر في العودة إليه قائلاً له: ولا تحتبس فتشغلني عن كل ضيعة بهمي بك.

يقول سلمان: فخرجت لذلك فمررت بكنيسة النصارى وهم يصلون فملت إليهم وأعجبني أمرهم وقلت: والله هذا خير من ديننا، فأقمت عندهم حتى غابت الشمس، لا أنا أتيت الضيعة ولا رجعت إليه. وسألت من حولي من النصارى: «وأين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام.

أما خشفوذان فقد طال عليه غياب ولده حتى صار نهباً للقلق عليه مما حدا به أن يرسل جماعة في طلبه، وبينما هو يتلدد في داره مفكراً حائراً في أمره وإذا بسلمان عائد بعد الغروب بقليل، عاد إلى بيته ليجد أباه بتلك الحالة، وهنا بادره أبوه بنبرة فيها شيء من الغضب قائلاً له: لقد بعثت إليك رسلاً، أين كنت؟ ولم يجد سلمان سبيلاً لكتمان ما رأى وسمع، فالتفت إلى أبيه قائلاً: قد مررت بقوم يصلون في كنيسة فأعجبني ما رأيت من أمرهم وعلمت أن دينهم خير من ديننا.

قال هذا بكل جرأة وثقة، غير أن خشفوذان لم يصدق ما سمعه وخالطته حيرة ودهشة، لكنه تمالك أعصابه وخاطب ولده بأسلوب عاطفي هادئ قائلاً له: يا بني دينك ودين آبائك خير من دينهم ... لكن سلمان بادره بكل إصرار قائلاً: كلا والله. وحين لم يجد خشفوذان وسيلة في إقناع ولده عمد إلى استخدام القسوة لتأديبه، فوضع القيود في رجليه وتركه في البيت رهين محبسين، فعل معه ذلك خوفاً من أن يهرب عنه، وعقاباً له كي لا يعود لمثلها.

وظل سلمان رهين قيده وبيته مدة من الزمن حتى كادت الدنيا تسود في عينيه لولا حلم الشام الذي ظل يدغدغ فؤاده ويزرع في نفسه الأمل الأخضر الذي يبشره بأزوف الموعد وساعة الخلاص. فعمد إلى بعض

من يثق بهم وأرسله إلى النصارى الذين تعرف إليهم في الكنيسة يعلمهم عن لسانه: بأنه قد أعجبه دينهم ويطلب منهم أن يعلموه بتحرك أول قافلة نحو الشام حتى يكون فيها فأخبروه. قال سلمان: فألقيت الحديد من رجلي وخرجت معهم.



شباهته
بإبراهيم الخليل

وما أشبه قصة سلمان بقصة إبراهيم الخليل عليه السلام في طفولته وصباه. فكلاهما نشاءا في بيئة تتجافى عنها فطرتهما الصافية ولا ترتاح إليها أنفسهما الزكية. نشأ إبراهيم عليه السلام في بيئة وثنية محضة، ونشأ سلمان في بيئة مجوسية انحرفت بعيداً عن دين واضعها زرادشت. فعلى الرغم من أن المجوسية الأولى كان له كتاب سماوي مقدس اسمه أفيستا، إلا أنه قد تعرض على مدى قرون لتحريفات خطيرة من قبل الكهنة التي كان مفروضاً أن يحافظوا عليها. إلا أن أصل أفيستا كان قد ضاع واندثر آنذاك، وتواجد معهم كتاب آخر بدل أفيستا وضعه وكتبه الكهنة المتعاقبون على تولي هذا الدين. تماماً كما حصل لتوراة موسى عليه السلام الذي تعرض لتحريفات خطيرة على يد كهنة اليهودية وإضافات جعلوها في كتاب سموه «التلمود».

وكان هذا الكتاب الجديد مليئاً بالحديث عن شخص زرادشت ومعجزاته ومديحه والثناء عليه وتعظيمه وتمجيده. فعلى عكس الكتاب الأصلي الذي هو أفيستا الذي كان يزخر بذكر الله وتمجيده وتعظيمه ويدعو الناس إلى عبادة الله جل شأنه، منزهاً عن الشرك وعبادة الأشخاص، إلا أن الكتاب الجديد كان يزخر بتمجيد زرادشت وتعظيمه

وتأليهه. تماماً كما حدث للإنجيل الذي نزل على المسيح ﵇ الذي أحرق بعد ثلاثة قرون من وفاته وعروجه إلى السماء، وحلت محله كتب عن معجزات المسيح ﵇، كتبت على مدى فترة تمتد من قرن إلى قرنين بعد وفاته وعروجه إلى السماء، وكلها في الحديث عن شخص المسيح ﵇ ومعجزاته وتمجيده وتعظيمه وتأليهه، جمعوها في كتاب سموه «العهد الجديد» في مقابل «العهد القديم» الذي يضم التلمود والتوراة المحرفة.

فكأن الناس الذين ظهر عليهم الأنبياء وآمنوا بهم في زمانهم تتحجر عقولهم ونفوسهم بعد وفاتهم، وينقلبون على أعقابهم ويميلون إلى عبادة الأشخاص والأبطال، وتمجيد أنبيائهم وتعظيمهم وتأليهم، واتخاذهم أرباباً من دون الله، بدل العبودية لله وحده من دون شريك، كما كانت دعوة أنبيائهم. فالناس عادة يستثقلون الله في تفكيرهم، لأنه من الصعب عليهم تصور الغيب في حياتهم اليومية، ويغفلون عن النهج الذي كان عليه الأنبياء، إلا من رحم ربي. وبدل ذلك يتحجرون في شخص الأنبياء والرواد من المؤمنين. وبدل التوجه إلى الله يتوجهون إلى أنبيائهم بذكر معجزاتهم وأعمالهم الخارقة، ويتخذونهم آلهة من دون الله. وهكذا يكون دينهم المحرف الجديد.

إبراهيم ﵇ وسلمان من بعده كانوا سواء، أحراراً في تفكيرهم غير راضين عن دين آبائهم وأجدادهم والخرافات التي عاش فيها قومهما، فكانت الحكمة والهداية ضالتهما. كانا يطمحان إلى التخلص من الضلال والطقوس والخرافات التي انغمس فيها قومهما انغماساً. فإبراهيم ﵇ لم يجد في الأوثان معنى وكانت طقوس الوثنية تزعجه إزعاجاً، لا يرى فيها شيئاً من الحكمة والهداية. جاهر بذلك أباه الذي كان يصنع الأوثان بيديه متعجباً كيف يعبدون أحجاراً نحتوها بأيديهم على أشكال أشخاص أو

حيوانات. ولما كانت الحكمة والهداية ضالته التي كان يبحث عنها في ليله ونهاره، وتشغل تفكيره في يقظته ومنامه، تولاه الله وعرفه على الهداية والطريق القويم وذلك على مراحل. كان يراقب في حيرة الكون والكائنات من حوله وتعاقب الليل والنهار والفطرة التي نشأ عليها ولا يعلم من فطرها. ويتساءل كيف تواجدت وتفاعلت هذه الروعة وهذه المعجزات مع بعضها البعض وكيف برزت للوجود ومن هو خالقها.

وهذه الحيرة وهذا العجز الذي يقرّ به الكائن على نفسه له من يراقبه ويستجيب له ويكافئه أحسن مكافأة ويجازي عليه خير الثواب. فأراه الله ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين. يروي الله جل وعلا حكاية هدايته في القرآن الكريم سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾.

هذه الروح الحرة تبحث عن الحقيقة في هذا الكون الواسع. يراقب الكون المرصع بالنجوم ودوران الأفلاك في ظلام الليل الدامس. يرى الكواكب والنجوم ولكنه يكتشف أنها غير ثابته. يرى القمر بنوره الهادئ اللطيف ولكنه أيضاً إلى الأفول. وتبهره الشمس في النهار بأضوائها المتوهجة ولكنها كانت من الآفلين. إن هذه الروح الحرة تعرض عن الأشياء التي تتغير وتتحول ولا تحب الآفلين، لأنها تبحث عن إصالة الوجود التي لا تتغير ولا تأفل، لا عن تشكلات وتغيرات في الوجود، عن الماء لا عن تشكلات الأمواج وتغيراتها. لذلك اكتشف فجأة ضالته

والحقيقة التي كان يبحث عنها. فوجه وجهه وكل ذرات وجوده إلى الله الذي فطر السماوات والأرض والشمس والقمر والكواكب والنجوم وجميع الكائنات التي تعيش على الأرض، لا يضيع وجهته وطاقاته في غيره.

نعم أراه الله ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين. وبعد ما حصل له هذا اليقين الذي يهد الجبال ويبذ الأطواد خرج إلى قومه وفعل بأصنامهم ما فعل، ثم جاهرهم بعبثية الأوثان في جرأة تاريخية لا تضاهيها جرأة، فعاقبه قومه بحرقه في النار ولكن الله جل وعلا أنقذه وجعل النار عليه برداً وسلاماً.

صحيح أن إبراهيم عليه السلام كان نبياً بل كان أبا الأنبياء وكان من أولي العزم من الرسل، ولكن سلمان لا يقل أهمية، لأنه كان من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، كما قال عنه النبي صلى الله عليه وآله: «**سلمان منا أهل البيت**». وكما كان إبراهيم عليه السلام غير راضٍ عن الوثنية التي كان عليها قومه، كذلك كان سلمان غير راضٍ عن دين المجوسية وطقوسها العبثية وأفكارها المتحجرة التي صنعها كهنتها، وحرفوا كتابها المقدس على مر القرون والأعصار. كان من الأحرار، وكانت الحكمة والهداية ضالته كما كان إبراهيم عليه السلام. فهيأ الله له آنذاك التعرف على دين المسيحية فوجده أحسن من دين المجوسية وأقوم طريقاً. كان يستمع إلى ترتيل الإنجيل ويرى المؤمنين بهذا الدين أقرب إلى الله زلفى. ورغم ذلك لم يقتنع اقتناعاً كاملاً بهذا الدين، وفضل أن يبحث عن أصله في الشام، حيث يعيش بعض الحواريين أو حواري عيسى عليه السلام حتى يتلقى منهم أصل المسيحية من دون تحريف.

فجاهر بذلك أباه، ولكن أباه غضب عليه غضباً شديداً وحبسه في

منزله واضعاً القيود على رجليه، ومنع عليه أي اتصال بالخارج. حتى أراد الله أن يخرجه من قريته جي في أصفهان بفارس مهاجراً إلى الشام، كما أراد الله من قبل أن يخرج إبراهيم عليه السلام من بلده أور في الرافدين في بلاد ما بين النهرين مهاجراً إلى الشام أيضاً. الشام التي هي «صفوة الله من بلاده وإليها يجتبي صفوته من عباده» كما قال النبي ﷺ.

فكان إيمان سلمان بما هداه الله إليه كإيمان إبراهيم عليه السلام كالطود الشامخ لا تزحزحه الزلازل ولا تهزه الرياح. كان يتقبل بكل سهولة أية عقوبة يتعرض لها في عزم وتصميم وإرادة عملاقة لا تضاهيها إرادة. فاختار الله له في بلد هجرته مأمناً من شر قومه وقسوة أبيه، كما هيأ ذلك من قبل لإبراهيم عليه السلام. وشرف الله بلد هجرته أن جعله منطلقاً لانطلاقة إيمانية تاريخية، ومطاراً لطيرانه في فضاء الروح السامية وملكوت الله، التي انتهت به المطاف أخيراً إلى ما هيأ الله له بأن يكون سابق فارس إلى الإسلام والإيمان، كما كان علي عليه السلام سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وبلال سابق الحبشة، وخباب سابق النبط.



سلمان
الدوحة المحمدية

كان سلمان رائد الإسلام والإيمان وداعي الله في كل مكان، وعلى الأخص في بلده فارس، حيث كان أميراً للمدائن عاصمة ملوك الأكاسرة ومحطّ صولجان ملكهم وإمبراطوريتهم الممتدة من السند إلى الحبشة. وبفضل سلمان دخل الفرس في الإسلام أفوجاً أفواجاً، حيث كان يدعوهم إليه بلغتهم الفارسية لأكثر من عشرين سنة، وضرب لهم مثلاً وقدوة بشخصه وزهده وتواضعه وعدله وكل المثل العليا للإسلام التي تجسدت في هذا الرجل العظيم.

وما أكثر الأبطال الذين يطلقون عليهم المؤرخون اسم العظماء والذين كانوا مؤثرين على مسار التاريخ واتجاهه، وعرفوا بانتصاراتهم التاريخية، ولكن كان حكمهم قائماً على جماجم الموتى، وأعمالهم مبنية على الظلم والإرهاب، وتسببوا في قتل عشرات الألوف بل آلاف الألوف من الأبرياء، كإسكندر، وقيصر، ونابليون، وهتلر، وجنكيزخان وهولاكو، وتيمورلنك وغيرهم.

وما أقل الأبطال والعظماء الذين عرفوا بانتصاراتهم على أنفسهم، وأثروا على مسار التاريخ بانتصاراتهم الروحية، حتى بقوا في ذاكرة

الشعوب ووجدان الأمم وطقوسهم الدينية إلى الأبد! وما أندر العظماء والأبطال الذين هدوا الشعوب والأمم بهدايتهم، وأدخلوهم أفواجاً أفواجاً في دين الله وإلى الإيمان بالله والطريق إلى الله، وبقيت أجيال وأجيال متمسكة بدينهم وبرسالتهم السماوية الخالدة ومتأثرة بقواهم المغناطيسية والروحية والأخلاقية إلى قيام الساعة!

فعظماء الروح حاضرون في حياة الشعوب والأمم والأفراد في الماضي والحاضر والمستقبل، وهم القدوة والأسوة والمثل الأعلى في حياة الأمم والأفراد، وهدايتهم ورسالتهم الروحية الخالدة هي مشاعل النور للأفراد والشعوب أبداً دائماً سرمداً، يقتدون بهم في نمط حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ويهتدون بهم وبنورهم في ظلمات الحياة الدنيوية، ويتأسون بهم في تربية النفس ومجاهداتها، ويتبعون نهجهم وأقوالهم وحكمهم وكلماتهم الخالدة، في أجيال متعاقبة وعلى امتداد مناطق جغرافية واسعة، وفي كل زمان ومكان.

ولا ينسى التاريخ لسلمان إنجازاته الكبرى ودوره العملاق في انتصارات الإسلام في زمان النبي ﷺ وبعد وفاته. فكانت له اليد الطولى في الانتصار الحاسم في غزوة الخندق. فهو الذي أشار على النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة (كما كان الفرس يعملون عند حصار مدنهم) لدرء خطر المشركين الذين وصل عددهم في هذه الغزوة إلى حوالي عشرة آلاف. فقد تحالفت قبائل العرب مع قريش واصطفوا جميعا أمام الخندق لغزو المسلمين في عقر دارهم واستئصال شأفتهم حتى لا تبقى للإسلام قائمة.

كما أشار على النبي ﷺ باستعمال المنجنيق لقذف المحاصرين المشركين في حصار الطائف بعد حرب حنين، إلى غيرها من الإنجازات

العظيمة التي لا تنسى. أما بعد وفاة النبي ﷺ فحدث ولا حرج. فكان له الفضل الكبير في فتح فارس وتثبيط همم الجيوش الفارسية ومن ثم هزيمتهم النكراء على يد المسلمين. وكان له أيضاً دور عظيم في هداية الفرس إلى الإسلام، لأنه كان داعيتهم إلى الله بلغتهم الفارسية وبالكلمة الطيبة والأسوة الحسنة والمثل الأعلى الذي ضربه لهم بشخصه على مدى عشرين عاماً من حكمه فارس والياً على المدائن.

يقول ابن الأثير: «وكان سلمان الفارسي رائد المسلمين وداعيتهم، دعا أهل بهرسير ثلاثاً، وأهل القصر الأبيض ثلاثاً»(١). كان يقول لهم: «إنما كنت رجلاً منكم، فهداني الله للإسلام، فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا. وإن أنتم أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون. فإن أبيتم نابذناكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين»(٢). يخاطبهم بهذا القول قبل الهجوم عليهم، علهم يفيئون إلى الإسلام. وكان يقول: «أدعوهم كما رأيت رسول الله يدعوهم»(٣). يفعل ذلك بهم ثلاثاً.

فبعد أن أصبح أمير المدائن وأميراً على كل فارس، كان الفرس يقارنونه بملوك فارس الذين سبقوه والذين حكموهم بأساليبهم السلطوية وبقوة الصولجان وجبروته. ورأوا أميرهم الجديد وهو فارسي مثلهم كيف يحكم بالقسط والعدل وكيف يعيش زاهداً متقشفاً لا فرق بينه وبين أفقر الفقراء فيهم. رأوا بأم أعينهم كم كان زهده وورعه وتواضعه وقسطه وعدله بين الناس، وعظم ذلته وعبوديته أمام الخالق، فاقتدوا بشخصه ودخلوا في دين الله أفواجاً.

---

(١) راجع الكامل الجزء الثاني صفحات ٥٠٨ إلى ٥١٤.
(٢) سلمان الفارسي ١٢٧ كما في مسند أحمد.
(٣) نفس المصدر.

وكان سلمان ﷺ بمعية الحذيفة اليماني قد أسسا مدينة الكوفة. يكتب آل الفقيه مقتضباً من الكامل الجزء الثاني صفحات ٥٢٧ ـ ٥٢٨ :

«يبدو أن المسلمين بعد أن فرغوا من حرب القادسية والمدائن وأقاموا فيهما لم تلائم التربة ولا الطقس أجسامهم. فتغيرت ألوانهم ونحلت أبدانهم. فكتب حذيفة إلى عمر: إن العرب قد رقت بطونها وجفت أعضادها وتغيرت ألوانها. فكتب عمر إلى سعد: أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم؟ فكتب إليه سعد: إن الذي غيرهم وخومة البلاد، وإن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان. فكتب إليه عمر: أن ابعث سلماناً وحذيفة رائدين، فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر.

إذا كنت في حاجة مرسلاً   فأرسل حكيماً ولا توصه
وإن ناب أمر عليك التوى   فشاور لبيباً ولا تعصه



فأرسلهما سعد، فخرج سلمان حتى يأتي الأنبار، فسار في غربي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة. وسار حذيفة في شرقي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة. فأعجبتهما البقعة فنزلا فصليا ودعو الله تعالى أن يجعلها منزل الثبات. ثم رجعا إلى سعد فأخبراه. فارتحل سعد من المدائن حتى نزل الكوفة في المحرم سنة سبع عشرة. وكتب إلى عمر: إني قد نزلت بالكوفة منزلاً فيما بين الحيرة والفرات برياً وبحرياً ينبت الحلفاء والنصي. وخيرت المسلمين بينها وبين المدائن. فمن أعجبه المقام بالمدائن تركته فيها كالمسلحة.

ولما استقروا بها عرفوا أنفسهم ورجع إليهم ما كانوا فقدوا من قوتهم. وأول شيء خط فيها وبني مسجدها. قام في وسطه رجل شديد

النزع فرمى من كل جهة بسهم. وأمر أن يبنى ما وراء ذلك. وبني ظلة في مقدمة المسجد على أساطين رخام من بناء الأكاسرة في الحيرة.

ويقول سلمان عن الكوفة: «الكوفة قبة الإسلام، يأتي على الناس زمان لا يبقى مؤمن إلا وهو بها أو يهوي قلبه إليها». ويقول: «أهل الكوفة أهل الله، وهي قبة الإسلام يحن إليها كل مؤمن».

نعم هذه العظمة كانت كامنة في هذه البذرة التي هيأ الله لها أديماً كأديم الشام مهد الأنبياء والمرسلين ومهبط الوحي الإلهي والأديان التوحيدية الأولى. فهكذا كان حنينه إلى الشام حيث التربة مناسبة ومطر السماء غزير مدرار وضوء الشمس وهاج، وأهم من ذلك بستانيون بارعون لرعاية هذه البذرة المقدسة، حتى تصبح أخيراً تلك الدوحة المحمدية التي سماها الرسول الأعظم ﷺ بسلمان المحمدي. وهكذا أراد الله لسلمان رضي الله عنه الهجرة من مولده في فارس إلى بلاد الشام في صباه، كما أن إبراهيم عليه السلام هاجر من مولده في بلاد ما بين النهرين إلى الشام في صباه أيضاً.

ومن العجيب أن بايزيد البسطامي (قدس سره) ترك بسطام أيضاً في صباه وذهب إلى بادية الشام، وأمضى فيها ثلاثين عاماً مارس فيها الارتياض والسهر والجوع الدائم، وتتلمذ على مائة وثلاثة عشر شيخاً في الشام، استفاد منهم كلهم. ثم الأغرب أنه ذهب إلى الديار المقدسة في الحجاز، وحج بيت الله اثنا عشر مرة، وذهب إلى المدينة المنورة حيث تربى أخيراً وآخراً تحت رعاية أكبر مشائخه وأعلمهم وأعظمهم وأوقعهم أثراً في حياته ألا هو الإمام الصادق عليه السلام. تماماً كما ذهب إبراهيم الخليل عليه السلام وسلمان المحمدي من قبل إلى الديار المقدسة في الحجاز بعد إقامتهم في الشام .

فهذه الزوبعة التي أثارها الله في نفس سلمان حباً وحنيناً إلى دين الله، وهو لا زال في طفولته وصباه وفي بلد مولده جي في أصفهان، كانت تنبئ عن دوره المستقبلي في حمل مشعل الدين الإلهي إلى بلاد فارس وإلى الأجيال المتعاقبة في الأمة الإسلامية. فكان له كما كان لإبراهيم عليه السلام قبله دوراً رائدياً في نشر دين الله في أطراف الأرض إلى يوم القيامة. وأراد الله أن يكمل شباهة سلمان رضي الله عنه بإبراهيم عليه السلام بأن جعله يأوي في أواخر أيامه إلى مكة والبلاد المقدسة في الحجاز كما حصل لإبراهيم عليه السلام.

ذكرنا طفولة سلمان رضي الله عنه وإبراهيم الخليل عليه السلام والزوبعة التي أثارها الله جل وعلا في نفسيهما حباً وحنيناً إلى دين الله، وهما لا زالا في طفولتهما وصباهما، فما هي علاقة هذه البذرة الطاهرة في طفولتهما بتلك الدوحة المقدسة في مستقبلهما؟

يحضرني ما روي عن طفولة بايزيد البسطامي (قدس سره)، وأن الله أعلم حيث يجعل رسالته. روي أنه سألوه: «بماذا وصلت إلى هذه الدرجة والمقام الرفيع؟». فقال:

خرجت ليلاً في طفولتي من قريتي بسطام وكان البدر منيراً والليل ساكناً. فشاهدت جنة مترامية الأطراف لا تتراءى أمامها العالمون إلا كذرة. فأصابتني حرقة وغلبت علي حالة عظيمة. قلت: «يا رب! بلاطك بهذه العظمة وليس به أحد؟ وجنتك بهذه الروعة وبهذا الخفاء؟». فسمعت هاتفاً يقول: «بلاطنا خال لا لأن أحداً لا يأتينا، بل لأننا لا نقبل إلا القليل، فليس كل من دب وهب يستحق هذا المقام». فنويت أن أشفع للخلائق طراً، فتذكرت أن مقام الشفاعة مختص بمحمد صلى الله عليه وآله فحفظت حرمته. فجاءني الجواب: «لأنك عظمت حرمة محمد صلى الله عليه وآله سنرفع اسمك حتى يسموك إلى يوم القيامة سلطان العارفين بايزيد!».

من المؤكد أن البذرة تحمل في طياتها التفاصيل الكاملة لخارطة ثمراتها، رغم أنها لا ترى بالعين المجردة. فمثلاً بذرة الفاكهة كالبرتقال تحمل في طياتها طعم البرتقال، حلاوته أو حموضته وطعمه الخاص به، ولون قشرته الأصفر وشكله الكروي وغيرها من التفاصيل. رغم أنك لا ترى ولا تستطيع أن ترى ومحال أن ترى بالعين المجردة طعم البرتقال وشكله ولونه في بذرته. ومثلاً النطفة المخصبة في رحم الأم تحمل في طياتها ثلاثين ألفاً من الجينات. كل جينة تحمل واحدة أو أكثر من الخصائص البشرية، إما مادية جسمية كالتالي على سبيل المثال:

أ ـ لون الشعر والعيون والبشرة، وشكل العيون والآذان والأنف والوجه، والطول والقصر، والصورة الإنسانية الفريدة، وطريقة المشي والضحك، ونبرة النطق الجادة أوالفكهة، وقوة الفصاحة والبلاغة، وقوة العظام أو هشاشتها، والأمراض وغيرها.

وإما معنوية وعاطفية كالتالي على سبيل المثال:

ب ـ الحلم والغضب والسخاء والكرم والبخل، والتحرر والتعصب والفهم والعقل، والتكبر والتجبر والتواضع، والشك واليقين والكفر والإيمان، والكراهية والأحقاد والحب والحسد والإيثار، وحب الانتقام وقدرة العفو، وقوة الإرادة أو ضعفها، والتفاؤل والتشاؤم والصبر والتحمل، والتسامح والقسوة واليأس والرجاء، وحسن الظن أو سوء الظن، والرضا والقناعة والعشق والشوق الإلهي ـ وهو أعلى وأنبل درجات العواطف الإنسانية ـ والعواطف والصفات المعنوية الأخرى.

بمعنى أنها تحمل في طياتها التفاصيل الدقيقة للخارطة الكاملة لما يكون عليه الإنسان في مستقبله. وبلسان الجينات تتخاطب الأجيال مع بعضها البعض من الإنسان والحيوان والنبات. وبلسان الجينات تترابط

وتتواصل الذراري مع الآباء والأجداد الذين تبقى بصمتهم في جيناتهم تؤثر على ذريتهم أيما تأثير.

فالله أعلم حيث يجعل رسالته وهو أعلم بما خلقه من الخارطة المفصلة المقدسة في بذرة إبراهيم ﷺ أو سلمان ﵁ أو سلطان العارفين بايزيد البسطامي.

هجرة سلمان إلى الشام

ويستطرد آل الفقيه نقلاً عن نفس المصادر والكتب التاريخية المعتبرة قائلاً:

أما سلمان فظل يتابع سيره حتى إذا بانت له مشارف الشام حرك لسانه بآيات الشكر لله سبحانه الذي أنقذه من النار وتفاهاتها وحماقات أهلها لينعم بين ظلال الرحمة في مهد الأنبياء وأرض الرسالات في الشام التي وصفها النبي ﷺ بقوله: «**صفوة الله من بلاده وإليها يجتبي صفوته من عباده**».

وبعد قليل من الزمن حط الركب الفارسي رحاله ليستريح من وعثاء السفر المضني الطويل، ولينصرف بعد ذلك كل منهم إلى شؤونه عدا سلمان الذي لم يستقر به مكانه بعد، فهو لم يصل إلى ما يريد! إنه يطلب العالم الذي يعطيه أصول النصرانية التي جاء بها عيسى عليه السلام عن الله سبحانه وتعالى، فاندفع يسأل هذا وذاك من أهل الشام عن رجل الدين الذين يولونه ثقتهم ويأخذون عنه معالم دينهم، فأرشدوه إلى الأسقف، فسألهم عن مكان إقامته. قالوا: هو مقيم في صومعته على رأس جبل ودلوه عليه. كانت الصومعة في قمة جبل يشرف على الشام وقد استدارت حولها غابة من السنديان والصنوبر، يخيل للناظر إليها من بعيد أنها جزيرة صغيرة وسط بحيرة خضراء.

قصد سلمان تلك الصومعة والفرح يغمر قلبه. فلما وصل إليها تكلم بكلمات تركت الأسقف ينفلت من عبادته لينظر من هو المتكلم. وكان الأسقف شيخاً طاعناً في السن مربوع القامة في ظهره جناً[١] كث اللحية أبيضها ذا عينين غارقتين تهدل فوقهما حاجبان انعقفا حتى اتصلا بصدغيه، ترتسم على وجهه سيماء الصالحين. تطلع سلمان إليه فأدرك فيه ملامح من سيرة المسيح عليه السلام فانتابته حالة من الذهول أطرق معها إلى الأرض، إلا أن كلمات الأسقف هزته حيث اندفع نحوه متسائلاً من أنت؟ وماذا تريد؟

فرفع رأسه وقال: أنا رجل من أهل جي[٢] جئت أطلب العمل وأتعلم العلم، فضمني إليك أخدمك وأصحبك وتعلمني شيئاً مما علمك الله. قال الأسقف: نعم اصعد إلي. صعد سلمان إليه ليبقى إلى جانبه يخدمه ويتعلم منه، وكان الغالب في مأكله الخلّ والزيت والحبوب جراية تجري له. يقول سلمان: فأجرى علي مثل ما كان يجري عليه. وبدأ الأسقف يعلمه شريعة الله التي أنزلها على المسيح ويقرأ عليه صحائف من الإنجيل كان قد احتفظ بها، ويطلعه على بعض الأسرار الإلهية التي تناهت إليه من حواريي عيسى عليه السلام. وقد وجد في سلمان الرجل القوي الأمين الذي يمكن أن يدفع إليه أمانته. ووجد سلمان فيه الأب المشفق والعالم الروحاني الذي يوقفه على غامض العلم ويطلعه على شرائع الأنبياء.

ومرت الأيام تتوالى مسرعة، وانطوت سنون عديدة كان الأسقف خلالها يتقدم نحو أرذل العمر. وفي ذات يوم اشتكى علة في جسده

---

(١) الإنحناء.

(٢) قرية جي من أصبهان في فارس.

سرعان ما ألزمته سريره. وأدرك سلمان أنها الشيخوخة التي لا ينفع معها دواء. فظل دائباً في خدمته والعناية به ليله ونهاره حتى إذا قوضت أيامه ودارت في صدره حشرجات الموت علم سلمان أن صاحبه يحتضر وأنه مفارق هذه الدنيا عن قريب فجلس عند رأسه يبكي.

وكان تعلق الأسقف به شديداً لما لمسه فيه من الخصال الحميدة النادرة، فكان يؤلمه أن يراه حزيناً أو مفكراً في أمر يشغل باله. وحانت منه التفاتة خاطفة، فرأى سلمان يكفكف دموعه، وآلمه ما رأى، فالتفت إليه قائلاً: ما يبكيك يا ولدي؟ قال سلمان ـ وهو يرد غصته ـ: خرجت من بلادي أطلب الخير، فرزقني الله صحبتك فنزل بك الموت ولا أدري أين أذهب.



سلمان في أنطاكية والإسكندرية

وهنا أطرق الراوي إطراقة طويلة وفكر في أن يقف عند هذا الحدّ ولا يكمل روايته، والسر في ذلك هو أن محدثيه كانوا كثراً وكلهم يروي عن سلمان سيرته كما جاءت على لسانه. لكن ما يروونه فيه اختلاف كبير بالنسبة للشكل والصياغة، وإن كان متقارباً في أصل المضمون. فالروايات كلها متفقة على أن سلمان انتقل من راهب إلى راهب ومن دير إلى دير، وجاب البلاد طولاً وعرضاً في سبيل الوقوف على أصول الدين الذي يمكن الركون إليه. ولكن يبقى العرض للكيفية التي تم بها ذلك مختلفاً غاية الاختلاف.

قال الراوي: وعلى هذا فلا يمكنني اختيار واحدة من تلك الروايات والاكتفاء بسردها لكم، لاحتياجها إلى ما في الروايات الأخرى، وافتقار تلك الروايات لها مما يجعل بعضها يكمل بعضاً. فالأفضل إذن أن تصاغ القصة من مجموع تلك الروايات في حلة جديدة لائقة بسلمان ومكانته، تنسج خيوطها من سيرته ذاتها وليست بنشاز عنها، لأنها كلها بلسانه رضي الله عنه.

ثم استطرد في سرد الرواية قائلاً: فقال الأسقف وهو يعاني سكرات الموت: يا بني لقد ترك الناس دينهم، ولا أعلم أحداً يقول بمقالتي إلا راهباً في أنطاكية. فإذا لقيته فاقرأه مني السلام، وادفع إليه

هذا اللوح. يقول سلمان: وناولني لوحاً ثم مات الأسقف. ولم يكشف لنا سلمان شيئاً عن سر ذلك اللوح، لكن من المعتقد أنه أثر كريم بقي من المسيح عليه السلام تركه للحواريين يتداولونه فيما بينهم ثم يسلمونه إلى ذوي الكفاءة من أوصيائهم.

يقول سلمان: فلما مات غسلته وكفنته ودفنته، وأخذت اللوح وسرت به إلى انطاكية، وهي بلدة قريبة من حلب بعيدة عن الشام موصوفة بالحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء، لها سور ضخم، وشكلها كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل، والسور يصعد مع الجبل إلى قمته فتتم دائرة. وفي السور داخل الجبل قلعة في وسطها بيعة القسيان[١] وهي هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون، وعليه كنيسة على آساطين، وحول الهيكل أروقة يجلس عليها القضاة والعلماء، وهناك من الكنائس ما لا يحدّ، كلها معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزع[٢].

ومضى سلمان يغذ السير حتى وصل إليها. وكان قد عرف مواصفات الراهب واسمه. فلما وصل إلى الهيكل سأل عنه فدلوه عليه، وكان في إحدى الكنائس، فلما وصل إليها تكلم بكلمات، فأطل عليه الراهب يسأله من هو وماذا يريد. ونظر إليه سلمان فرأى فيه سمات التقى والصلاح والزهادة في الدنيا والرغبة عنها إلى الآخرة. فارتاحت لذلك نفسه، وعلم أن صاحبه الراحل لم يفرط فيه، بل أوصى به إلى يد أمينة. ورد سلمان على أسئلة الراهب، ثم أبلغه سلام الأسقف الراحل وسلمه الأمانة.

أخذ الراهب اللوح من يد سلمان بلهفة وزاد في الترحيب به وأنزله معه. وظل سلمان في خدمته مدة طويلة يأخذ عنه معالم الدين، حتى إذا

(١) قسيان: الملك الذي أحيا ولده رئيس الحواريين بطرس، وبيعة القسيان هذه كانت دار الملك فسميت باسمه.

(٢) راجع للتفصيل معجم البلدان ١/ ٢٦٧.

مرت سنون مرض الراهب مرض الموت ولزم الفراش وسلمان إلى جانبه. وأحس الراهب أنه مفارق هذه الدنيا، فالتفت إلى سلمان قائلاً: إني ميت! وصكت هذه الكلمة مسامع سلمان، وأخذت من نفسه مأخذاً حيث خاف الضياع من بعده، فقال له بنبرة فيها شيء من الحزن: فعلى من تخلفني؟

قال الراهب: لا أعرف أحداً على طريقتي إلا راهباً بالإسكندرية، فإذا أتيته فاقرأه عني السلام وادفع إليه هذا اللوح. وما لبث الراهب أن توفي، فقام سلمان بتجهيزه فغسله وكفنه ودفنه، ثم أخذ اللوح معه وخرج قاصداً الإسكندرية.

وكانت الإسكندرية في ذلك الوقت هي أم الأساطير ـ كما يقال عنها ـ فكان الناس يتحدثون عنها وعن عجائبها. فحيكت عن كيفية بنائها قصص كثيرة منها: أن الذي بناها هو الإسكندر الأكبر فسميت باسمه. وقيل إن الإسكندر وأخوه القرما قاما ببناء مدينتين في أرض مصر سميت باسمهما. فلما فرغ الإسكندر من بناء مدينته قال: قد بنيت مدينة إلى الله فقيرة وعن الناس غنية. وقال أخوه بعكسه. فبقيت مدينة الإسكندر وتهدمت مدينة أخيه.

وأسطورة تقول: إن الذي بناها هو جبير المؤتفكي. وكان قد سخر فيها سبعين ألف بناء وسبعين ألف مخندق وسبعين ألف مقنطر. واستغرق بناؤها مائتي سنة. وكتب على العمودين الذين يقال لهما المسلتان: أنا جبير المؤتفكي عمرت هذه المدينة في شدتي وقوتي حين لا شيبة ولا هرم أضناني. وكنزت أموالها في مراجل[1] جبيرية. وأطبقتها بطبق من نحاس وجعلتها داخل البحر.

---

(١) المرجل: قدر ضخم من نحاس.

وأسطور ثانية تقول: إن جبير المؤتفكي وجد بالقرب منها مغارة على شاطئ البحر فيها تابوت من نحاس، ففتحه فوجد فيه تابوتاً من فضة. ففتحه فإذا فيه درج[1] من حجر إلماس، ففتحه فإذا فيه مكحلة من ياقوتة حمراء مرودها عرق زبرجد أخضر. فدعا بعض غلمانه فكحل إحدى عينيه بشيء مما كان في تلك المكحلة فعرف مواضع الكنوز، ونظر إلى معادن الذهب ومغاص الدرر، فاستعان بذلك على بناء الإسكندرية .. إلى غير ذلك من الأساطير التي ترسمها مخيلة القصاصين.

ولقد كان الركبان الذين يقصدون الإسكندرية يتحدثون بهذا وأمثاله، يسلون به أنفسهم سيما إذا كان سفرهم عن طريق البحر، فإن ذلك يشغلهم عن تذكر البحر وأهواله .. ولكن ماذا يعني سلمان من ذلك كله فهو يسمع ما يروونه عن الإسكندرية لكنه لا يلتفت إلى ما يقولون، ولا يعبأ بما يتحدثون. بل كل همه وتفكيره منصبان على كيفية اللقاء بالراهب الذي سيصل إليه، وكيف سيكون معه، وهل سيرته كسيرة صاحبيه.

وصل سلمان إلى الإسكندرية، وسأل عن الراهب الذي أخذ اسمه ومواصفاته من سلفه الراحل، واستدل على مكانه، فوصفوا له صومعة كان يقطن فيها، شأن غيره من الرهبان. فلما وصل إليها وقف خارجها وتكلم بكلمات ما لبث بعدها أن أطل الراهب عليه. ونظر سلمان إليه فوجد فيه مثل ما وجد في صاحبيه من الهدى والصلاح والزهد، فاطمأن به المكان بعد أن رحب به الراهب أجمل ترحيب، وأبلغه سلمان سلام سلفه الراحل وسلمه اللوح.

وبقي سلمان معه مدة من الزمن، وكانت الأيام تمر سراعاً،

(١) الدرج بفتح الدال وسكون الراء: أشبه بالمحفظة.

والسنون تتوالى والبشارة تقترب. ومرض الراهب مرض الموت، واستمر به المرض حتى إذا احتضر التفت إلى سلمان قائلاً: إني ميت! وكأنه ينتظر منه سؤالاً ليجيبه عليه، وهنا بادره سلمان قائلاً له: فعلى من تخلفني؟

قال الراهب: لا أعرف أحداً على طريقتي، وما بقي أحد أعلمه على دين عيسى ابن مريم في الأرض، وقد أظلك زمان نبي يبعث بأرض العرب. إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد حانت ولادته، فإذا بلغك أنه قد خرج، فإنه النبي الذي بشر به عيسى صلوات الله وسلامه عليهما، وآية ذلك: أن بين كتفيه خاتم النبوة، وأنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن أتيته فاقرأه السلام، وادفع إليه هذا اللوح. ثم أغمض الراهب الصالح عينيه مسلماً الروح إلى بارئها. فقام سلمان بتجهيزه ودفنه.

هجرة سلمان
إلى أرض الحجاز

غادر سلمان الدير حاملاً بيده اللوح، ووقف حائراً لا يدري كيف يصنع ولا أين يذهب. إنه يريد أرض تهامة، ولكن .. هو غلام ديراني. وحياة الديرانيين تشبه إلى حدٍّ ما حياة أهل السجون لولا الفارق النفسي بينهما من حيث توطين النفس على الإقامة فيها اختياراً، والشعور بالإنفساح الروحي عند الخلوة لمناجاة الله سبحانه. وإلا فكل شيء في الأديرة يخضع لقيود معينة. الملبس فيها خاص وبشكل معين، والمأكل فيها خاص ينحو نحو النباتية، والزهد في الدنيا شرط، فلا مال ولا عقار، ولا شيء من مغريات الحياة. بل على الداخل فيها أن يخرج من الدنيا وما فيها. هكذا كانت حياة الأديرة، وهكذا كان سلمان عندما كان ديرانياً.

والآن خرج من الدير. فمن الطبيعي أن يخرج منه كما دخل صفر اليدين، ويمكننا تصور حالته النفسية في ذلك الظرف العصيب، فهو يريد أن يأكل ويريد أن يسافر، ويريد أن يتعامل مع هذه الحياة كما يتعامل بقية الناس، ولكن دون جدوى، ففي الدير كانت له جراية تجرى عليه كما تجرى لصاحبه الراحل. أما الآن فقد انتهى كل شيء، فها هو قد خرج وهو لا يملك درهماً ولا ديناراً. فماذا يفعل الآن؟

في زخم هذه الحيرة التي لفت سلمان كانت خيوط الأمل الأخضر تشرق في نفسه فتضيء له جنباتها. إنه الأمل بلقاء النبي الموعود. فلقد نبت حب محمد صلى الله عليه وآله في قلبه كما ينبت العطر في أكمام الورود. وتذكر في هذه الحال ما قاله له أستاذه الراحل من أنه سيخرج نبي في أرض تهامة. وتساءل بينه وبين نفسه: من يدري، فلعله قد خرج!

وأحس سلمان بموجة من الفرح تغمره. فاندفع منطلقاً نحو الطريق وإذا به يرى ركباً يقصدون أرض الحجاز. وأحس أنهم من ذوي الثراء والمكانة لما رأى من ترفهم وحسن مظهرهم، وما معهم من الشياه والأغنام والأثاث والرياش. وهنا بادرهم بالتحية، فردوا عليه بمثلها، ثم سايرهم قليلاً وفكر في أن يعرض عليهم ما في نفسه من الرغبة في مرافقتهم. ولكن منعه من ذلك قصر ذات اليد، فما معنى أن يكون معهم ولا يشاطرهم في نفقة الطريق!

فعاد إلى نفسه ولم يتكلم بكلمة. إنه لم يرض أن يكون عالة على غيره، يأخذ ولا يعطي، فهذا شأن الساقطين في الحياة. وبينما هو في غمرة تفكيره إذ لاحت له خاطرة ذكية أحس من خلالها بقرب الفرج، حيث بدا له أن يعرض عليهم نفسه للخدمة في قبال أن يقوموا بنفقاته، ورأى أن هذا أمر لا ضير فيه ولا مهانة، بل هو شيء حسن، فلم يتردد في ذلك وخاطبهم قائلاً: يا قوم اكفوني الطعام والشراب أكفكم الخدمة!

وكان طلباً محبباً لهم، فالعرب أمة عرفت بالبذل والكرم والسخاء، بل أحب شيء للعربي ضيافة الوافد وإكرامه، فكيف بجماعة كل شيء لديهم وافر. أتراهم يمتنعون عن قبول مثل هذا العرض بدون مقابل! بالطبع لا. غير أنهم أدركوا في سلمان أنه رجل عفيف لا يحتمل المنّ، ولا هو من المتسكعين، فلم يماطلوا معه بالسؤال والجواب لكي لا يحرجوه فأجابوه بقولهم: نعم.

سار سلمان معهم يخدمهم في رحلتهم تلك ويهيئ لهم ما يحتاجون إليه. فلما صار وقت الطعام عمدوا إلى شاة فقتلوها بالضرب، ثم أخذوا لحمها وجعلوا بعضه كباباً وبعضه شواءً، وجلسوا يأكلون. أما هو فلم يعجبه هذا الأمر، فجلس ناحية ولم يأكل، ولفت انتباههم ذلك فقالوا له: كل. لكنه أصر على موقفه الرافض ـ ولعل طريقة قتلهم للشاة لم تعجبه لأنها منافية لما جاء في الشرائع السماوية من شروط الذبيحة ـ وبقي ممتنعاً عن الأكل. وفكر في جواب يرضي به فضولهم ويدفع عنه لائمتهم فقال لهم: إني غلام ديراني، والديرانيون لا يأكلون اللحم!

ووجد خلاف ما كان يتوقع، فالذي ظهر أن القوم يكرهون الأديرة والديرانيين والنصارى أجمعين، وأنهم وثنيون أو يهود. فرأوا وجوده بينهم مدعاة لتعكير صفو عيشهم شأن ذوي العقول المتحجرة من المتعصبين، فنهضوا إليه يؤدبونه. يقول سلمان: فضربوني وكادوا يقتلونني! فقال أحدهم ـ وكأنه يختبر حقيقة أمره ـ : أمسكوا عنه حتى يأتيكم الشراب، فإنه لا يشرب.

جاء الشراب فقالوا لسلمان: اشرب. فأبى ولم يشرب وقال: إني غلام ديراني والديرانيون لا يشربون الخمر. وهنا لم يجدوا رداً على كلامه إلا بالضرب. يقول سلمان: فشدوا علي وأرادوا قتلي! فقلت لهم: لا تضربوني فإني أقرّ لكم بالعبودية! فأقررت لواحد منهم، فأخرجني وباعني بثلاثمائة درهم من رجل يهودي.

وهكذا ضحى سلمان في سبيل الإيمان، وما كان أغناه عن ذلك كله لو بقي في المكان الذي جاء منه. لكنها الأمانة التي تلزمه أن يتابع سيره ويضحي بكل ما يقدر عليه في سبيل الوصول إلى الهدف الذي ينشده، سيما وقد أدرك أن الأرض التي هو فيها الآن هي موطن ذلك النبي.

حين اشتراه اليهودي أخذ يسأله عن قصته وسلمان يحدثه بكل ما جرى له منذ أن ترك بلاد فارس. وكيف اعتنق النصرانية وصار ينتقل من عند راهب إلى آخر. ولم ينس أن يحدثه بما بشره به راهب الإسكندرية من أن زمان نبي من العرب قد اقترب، وأنه قصد هذه البلاد رجاء أن يقيض الله له اللقاء به ـ وهو يظن أنه بذلك سوف يثير عطفه عليه ـ لكن ما حصل كان عكس ذلك.

فما أن سمع اليهودي بذكر محمد ﷺ حتى فقد صوابه وصمم في نفسه أن ينتقم منه. فاليهود يقرؤون في توراتهم ويسمعون من أحبارهم عن ظهور نبي يأتي بالحنيفية ـ دين إبراهيم ـ فكان بعضهم من المؤمنين ينتظر ذلك اليوم، والبعض الآخر عمي عن الحق فأخذته العزة بالإثم، وكان صاحبنا منهم. فقال لسلمان بنبرة تنم عن حقد وغضب: وإني لأبغضك وأبغض محمداً.

قال سلمان: ثم أخرجني خارج الدار وإذا رمل كثير على بابه. فقال: والله يا روزبة! لئن أصبحت ولم تنقل هذا الرمل كله من هذا الموضع لأقتلنك! وحار سلمان في أمره وهو يسمع تهديد سيده. فلم يدر ما يفعل، وأنّى له بنقل تل من الرمل في فترة قصيرة من الزمان، وشعر أن الرجل يريد الانتقام منه بإيجاد وسيلة لذلك.

قال: فجعلت أعمل طول ليلتي، فلما أجهدني التعب رفعت يدي إلى السماء وقلت: يا ربي إنك حببت محمداً إليّ، فبحق وسيلته عجل فرجي، وأرحني مما أنا فيه. فبعث الله ريحاً قلعت ذلك الرمل من مكانه إلى المكان الذي قال عنه اليهودي. فلما أصبح نظر إلى الرمل وقد نقل، ودهش لما رأى وخيل إليه أنه ضرب من السحر. فقال مخاطباً سلمان: يا روزبة! أنت ساحر وأنا لا أعلم. فلأخرجنك من هذه القرية لئلا تهلكها!

ونفذ اليهودي قوله، فأخرجني فباعني لامرأة سلمية، فأحبتني حباً شديداً. وكان لها حائط (بستان) فقالت: هذا الحائط لك، كل منه ما شئت، وتصدق بما شئت. مكث سلمان مع هذه المرأة فترة طويلة يدير لها شؤون بستانها، يسقي الزرع ويؤبر النخل وما إلى ذلك بكل أمانة وإخلاص، ويدعو الله بين الحين والحين بقرب الفرج واللقاء بالنبي الموعود صلى الله عليه وآله.



إن مع العسر يسرا

نعم حار سلمان في أمره وهو يسمع تهديد سيده. فلم يدر ما يفعل، وأنّى له بنقل تل من الرمل في فترة قصيرة من الزمان، وشعر أن الرجل يريد الانتقام منه بإيجاد وسيلة لذلك. فجعل يعمل طول ليلته، فلما أجهده التعب رفع يديه إلى السماء وقال: «يا ربي إنك حببت محمداً إليّ، فبحق وسيلته عجل فرجي، وأرحني مما أنا فيه». فكأن بايزيد البسطامي يصف سلمان في تلك اللحظة الحرجة من حياته حيث يقول: «أما الذين كانوا رواد المعرفة فقد ضاعوا في بادية الحيرة وغرقوا في بحر العجز». ولكن سلمان كان كذلك في كل الأوقات حائراً أمام روعة الآيات الإلهية وعاجزاً ذليلاً مسكيناً مستكيناً أمام حضرته. ولله در عمر الفارض حيث يقول:

زدني بفرط الحب فيك تحيرا وارحم حشاً بلظى هواك تسعرا



تعرض سلمان في عهد صباه للمحن والشدائد ولقسوة وسوء معاملة على يد أبيه، حيث عاقبه وأدبه بحبسه في منزله ووضع القيود على رجليه بسبب رفضه المجوسية وميله إلى النصرانية. ولكنه بعد أن هاجر من فارس إلى الشام أمضى حقبة طويلة من تاريخ حياته في راحة، بعيداً عن المحن والشدائد والمشاكل، في أحضان نمط حياتي محبب إليه مع

الرهبان الذين كانوا حواريي عيسى ﷺ أو حواريي حوارييه، في أديرة مختلفة في الشام وأنطاكية والإسكندرية.

ولكنه سمع من الراهب الصالح الذي رباه في الإسكندرية، قبل موته وتسليم روحه إلى بارئها، بشارة لن ينساها. قال له: «لا أعرف أحداً على طريقتي، وما بقي أحد أعلمه على دين عيسى ابن مريم في الأرض، وقد أطلك زمان نبي يبعث بأرض العرب. إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد حانت ولادته، فإذا بلغك أنه قد خرج، فإنه النبي الذي بشر به عيسى صلوات الله وسلامه عليهما، وآية ذلك: أن بين كتفيه خاتم النبوة، وأنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن أتيته فاقرأه السلام، وادفع إليه هذا اللوح».

سمع سلمان هذه البشارة وغمرته موجة من الفرح لا يستطيع أحد تصورها. وما إن أغمض الراهب الصالح عينيه ولفظ أنفاسه الأخيرة مسلماً الروح إلى بارئها، حتى اندفع بكل طاقاته إلى أرض العرب شوقاً إلى محمد، وعقد العزم على الهجرة إلى الحجاز متطلعاً نحو الطريق. ولكنه كان غلاماً ديرانياً لا يملك شيئاً من متاع الدنيا. وأنّى له أن يتأقلم مع الحياة العادية بعد أن قضى حقبة طويلة في الأديرة! وأنّى له أن يتوقع الشر والتعصب من الناس وكان قد أمضى فترة طويلة من حياته في التزكية والطهارة وحسن الظن!

وسافر إلى الحجاز مع قافلة وحصل له ما حصل من المحن والشدائد في هذا الطريق. ولكنه كان يحترق شوقاً إلى ملاقاة النبي الجديد في أرض العرب، الذي بشر به عيسى ﷺ وأوصل إليه هذه البشارة الراهب الصالح في الإسكندرية، كان يطير شوقاً وتحمل المصائب في سبيل ذلك. لاقى سلمان في طريقه إلى الحجاز محناً هائلة

لا تتحملها الجبال. ولله درّ الشاعر حيث يقول وكأنه ينطق عن لسان حال سلمان ﷺ:

ولقد لقيت من المنية لذة ولقيت من شظف الأمور شدادها

ويقول آخر:

هي شدة يأتي الرخاء عقيبها وأسى يبشر بالسرور العاجل

وإذا نظرت فإن بؤساً زائلاً للمرء خير من نعيم زائل



إن سلمان كان قد تربى على أيدي الرهبان الذين كانوا إما حواريي عيسى عليه السلام أو حواريي حوارييه، والذين كانوا على النصرانية الحقة، ماشين على خطى عيسى عليه السلام، واحتذاء به حذو النعل بالنعل. فلذلك كان قد قطع في السير والسلوك أشواطاً بعيدة، وكان قد خطى في تربية النفس خطوات بل وقفزات، قبل أن يوصله الله إلى شيخه ومعلمه الرباني محمد ﷺ.

وأهم مقياس في هذه التربية العرفانية الذي يظهر مدى تقدم السالك في سلوكه وسيره إلى الله هو مقدار صبره وقدرته على تحمل الصعاب والمحن. فالذي تخلص من إمبراطورية نفسه التي كان ينوء تحت أعبائها وأثقالها، وأناب إلى الله، والذي تجافى عن دار الغرور وأناب إلى دار الخلود، لا يضيره ما أصابه في هذه الدنيا كائناً ما كان. وتكون نار مصائبها عليه برداً وسلاماً يسهل عليه تحملها واستيعابها. بل إن تلك الظروف الصعبة تقربه إلى الله زلفى.

أما ترى سلمان حين أخرجه اليهودي خارج الدار، وإذا رمل كثير على بابه، يهدده ويتوعده قائلاً: «والله يا روزبة لئن أصبحت ولم تنقل

هذا الرمل كله من هذا الموضع لأقتلنك»! أما تراه كيف اقترب إلى الله، بعد أن سعى سعيه وجد جهده وعمل طول ليلته، فلما أجهده التعب ناجى ربه قائلاً: «يا ربي إنك حببت محمداً إليّ فبحق وسيلته عجل فرجي وأرحني مما أنا فيه»! فبعث الله ريحاً قلعت ذلك الرمل من مكانه إلى المكان الذي قال عنه اليهودي.

لقد عرض سلمان على الله تعالى عجزه ومسكنته وحاجته وذله وانكساره. وهل كان لسلمان رأسمال غير هذا؟ يقول بايزيد البسطامي (قدس سره): «هتف بي هاتف قائلاً: «يا بايزيد خزائننا مليئة من الطاعات والخدمات المقبولة. إذا طلبتنا فأتنا بشيء ليس عندنا». فقلت: «يا إلهي ما هذه الأشياء التي ليست عندك؟». فقال الله ﷻ: (المسكنة والعجز والحاجة والذل والإنكسار). ويقول (قدس سره): «**طرقت باب الحق تعالى بكل الأيادي ولم يفتح إلا بيد البلاء، وطلبت وصاله بكل اللغات ولم أنله إلا بلغة الحزن، وسلكت طريقه بكل الأقدام ولم أصل بلاط العز إلا بقدم الذل**».

وهكذا كان سلمان طرق باب الحق تعالى بيد البلاء، وطلب وصاله بلغة الحزن، وسلك طريقه بقدم الذل.



كلام الله تعالى مع البشر

إن سلمان كان يكلم ربه ويكلمه ربه ويستجيب له. كان يكلم سلمان ربه، لا بكلام مسموع، ولكن بنداء خفياً، ويناجيه مناجاةً وتضرعاً وخشوعاً. ورب كلام مسموع ودعاء منطوق لا يصل إلى الله ولا يخرق السقف الذي فوق رأس الداعي! ولكن المناجاة الصادقة التي تنبثق بصدق من قلب صادق طاهر ومن حاجة المضطر ومعاناة المظلوم تصل إلى الله تعالى وتخرق السماوات السبع. أما ربه فكان يكلمه بحال منه سامية وصبغة منه بهية وأعمال منه ظاهرة منجزة. وأين كلام الحال والصبغة والمنجزات عن كلام مسموع ينبثق عن لقلقة اللسان وكذب الجنان، وعن كلام الأفكار والخواطر!

بالله عليك! أي الكلام أبلغ وأنفذ وأوضح أثراً وأجلى صورة وأحسم وأكثر واقعية؟ كلام الحالة السامية والصبغة البهية والعمل المنجز أم كلام الأفكار والخواطر والظنون التي هي محض أوهام وأضغاث أحلام وسراب أبعد ما يكون عن واقع الحال؟

إن في أطراف هذا الوجود المترامية، وأعماق الفضاء الشاسعة اتصالات وتواصلات وتفاعلات وتفاهمات فيما بينها ـ فيما بين الكائنات الأرضية والسماوية، نجوماً كانت أو كواكباً، شموساً كانت أو مجراتاً،

إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً، وبين هذه الكائنات جميعها وبين خالقها ورازقها ومدبرها ومصورها والمهيمن عليها. وكذلك هناك تواصل بين الله وبين كائناته وعلى الأخص البشر. فالاتصالات والتواصلات والتفاعلات والتفاهمات تكون بعدة طرق وألسنة، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر:

١ - **لسان الجاذبية**: وتتجلى في أن الأجسام تتجاذب إلى بعضها البعض، حسب قانون الجاذبية لنيوتن. فالأرض والكواكب الأخرى تدور حول الشمس، كما أن نظامنا الشمسي يدور مع نظم شمسية أخرى حول الثقب الأسود في مجرتنا درب التبانة، ومجرتنا تدور حول مركز آخر إلى آخره، وذلك بفعل الجاذبية.

٢ - **لسان التنافر**: وتتجلى في أن الكواكب والنجوم والمجرات وأهمها المادة السوداء المنتشرة في الكون بغزارة، تتوسع وتتباعد عن بعضها البعض، وأن الكون يتوسع بالتسارع، وذلك بفضل قوة طاقة تسمى السوداء، وهي ما تشكل حوالي خمس وتسعون بالمائة من الكون.

٣ - **لسان الكيمياء**: وتتجلى في المخ، وهو المحطة الكبرى في نظام الجسم والنظام العصبي، وهو مركز إصدار الأوامر، حيث يصدر المخ أوامره إلى الجوارح والخلايا والأعصاب والعضلات والألياف وغيرها بواسطة الكيماويات. وهو أيضاً مركز تلقي الإشارات والمعلومات من الجوارح والخلايا والأعصاب والعضلات والألياف وغيرها، حين يطرأ عليها طارئ أو يلم بها حدث، بواسطة الكيماويات أيضاً، حيث يتخذ قراره بشأن رفع ما وقع عليها من طارئ أو حدث.

٤ ـ **لسان القوة المغناطيسية الكهربائية:** وتتجلى في المخ الذي يصدر أوامره إلى الجوارح وغيرها بواسطة الأمواج الكهرومغناطيسية. ويتلقى أيضاً معلوماته من الجوارح وغيرها حين يطرأ عليها طارئ أو يلم بها حدث، بواسطة الأمواج الكهرومغناطيسية أيضاً، حيث يتخذ قراره بشأن رفع ما وقع عليها من طارئ أو حدث.

٥ ـ **لسان الحركات** ومنطق الحيوانات التي تتفاهم بها الحيوانات، ومنطق الطير الذي تتفاهم به الطيور في السماء.

٦ ـ **لسان التلاقح** التي تتفاعل وتتواصل بها النباتات والحيوانات وبنو البشر مع بعضهم البعض.

٧ ـ **لسان النداء إلى التلاقح**، حيث يتخاطب لأجله الذكر والأنثى من الحيوانات وبني البشر والنبات بحافز الحاجة الجنسية إلى بعضها البعض. وفي سبيل التلاقح تغرد الطيور أحسن أنغامها، وبعض الحشرات بأنوارها، والطاووس بأرياشها الملونة الجميلة، والإنسان بأجمل أشعاره الغزلية.

٨ ـ **لسان الجينات** التي تتفاهم بها الأجيال والذراري من الإنسان والحيوان والنبات مع بعضها البعض.

٩ ـ **لسان الكلام** وهو الكلام المسموع الذي تتفاهم بها أفراد البشرية مع بعضها البعض. نعم إنه مسموع ولكنه بلغات مختلفة ولهجات عدة، كل لغة أو لهجة تنبثق من بيئتها الجغرافية والقومية وغيرها.

١٠ ـ **لسان الوحي** الذي يتكلم الله به مع أنبيائه ورسله.

١١ ـ **لسان الوحي** الذي يخاطب الله به الكائنات الأخرى، كما أوحى

إلى الأرض وإلى النحل وغيرها. يقول الله تعالى[1] عن الوحي إلى الأرض: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾. وأيضاً عن الوحي إلى النحل[2]: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾.

١٢ ـ **لسان كلام الله إلى البشر من وراء الحجاب**، كما تكلم الله تعالى إلى النبي موسى عليه السلام من خلال شجرة محترقة، ويكلمنا الآن بواسطة الرؤيا الصالحة أو الصادقة. يقول الرسول الأكرم ﷺ: «**الرؤيا ثلاثة: فبشرى من الله إلى آخره**». ويقول ﷺ: «**رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة...**». ويقول ﷺ: «**لم يبق من النبوة إلا المبشرات: الرؤيا الصالحة**». ويقول ﷺ: «**الرؤيا ثلاثة: .... ومنها جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة**». ويقول ﷺ: «**رؤيا المؤمن كلام يكلم به العبد ربه في المنام**».

ويكلم الله أوليائه بتجليات نوره سبحانه وتعالى وبعلمه الأزلي الأبدي. فالعارف إذا نظر في داخله لم ير غير الأنوار، فهو يعيش في نورانيته. كما أن غيرهم من الناس إذا نظروا في داخلهم ما رأوا غير الظلمات، فهم يعيشون في ظلمانيتهم. يقول بايزيد البسطامي (قدس سره): «من تجلى عليه نور ذاته سار إلى علم الأزل». يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «إلهي أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك». فإشراقات الأنوار التي تفيض على قلوب الأولياء هي من الله ﷻ، وهي نوع واضح من التواصل الإلهي مع البشر أو الوحي من وراء الحجاب، أو هي بعبارة أخرى نوع من كلام الله تعالى إلى البشر.

---

(١) سورة الزلزال، الآيتان: ٤، ٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٨.

فكيف يدعي المدعون أنهم يعرفون الله جل وعلا ويوحّدونه إذا كان الله ﷻ لم يشرق الأنوار على قلوبهم، كما قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة؟

ويتم كلام الله جل وعلا إلى البشر بثلاثة طرق:

أ ـ الوحي كما ذكرنا آنفا في رقم ١٠.

ب ـ كلام الله إلى البشر من وراء الحجاب كما في هذا الرقم ١٢.

ج ـ كلام الله إلى البشر عن طريق رسول يرسله فيوحي بإذنه ما يشاء كما في الرقم التالي ١٣.

يقول الله سبحانه وتعالى[١]: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾.

١٣ ـ كلام الله إلى البشر عن طريق رسول يرسله فيوحي هذا الرسول إلى من شاء من البشر، بإذن الله تعالى، ما يشاء الرسول.

١٤ ـ كلام مناجاة العبد مع ربه وكلام العشق الرباني والشوق إلى الله تعالى. يقول الشاعر:

وفي كفها شبابة[٢] تجمع المنى فنحن سكوت والهوى يتكلم

يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة متحدثاً عن دعائه ومناجاته إلى الله تعالى: «**أم كيف أترجم بمقالي وهو منك برز إليك**». وما أروعه من كلام الله تعالى إلى البشر[٣]! إنه ميسر لكل البشر ولكن أكثرهم لا

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥١.

(٢) مزمار من القصب.

(٣) يقول الشاعر:

أذني لقد سبقت في عشقه بصري والأذن تعشق قبل العين أحيانا.

يعلمون. ما يعنيه الإمام عليه السلام أن مناجاة المؤمن حديث الله برز منه إليه تعالى، رغم أنه على الظاهر مناجاة المؤمن وحديثه إلى الله سبحانه. يقول بايزيد البسطامي: «العارف إذا سكت أحب الحديث مع الله في صمته وسكوته». أما كلام العشق الرباني والشوق إلى الله تعالى فهو أنبل الكلام وأشرفه وأفصحه وأبلغه. وهو حديث السماء السابعة! وقد تجلى هذا العشق النبيل في الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء، حيث يقول بإشراقة منقطعة النظير:

تركت الخلق طرا في هواك وأيتمت العيال لكي أراك
فلو قطعتني في الحب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواك

ويقول بايزيد البسطامي (قدس سره): «أكمل درجات العارف اكتواؤه بعشقه». وما أصدق هذا الكلام في إمامنا الحسين عليه السلام! ويقول: «الشوق جنة العاشقين». ويقول: «إذا دخل عشق الله في القلب أزال ما دون الله ولم يبق له أثراً، حتى يبقى وحده لا شريك له». ويقول: «كمال العارف احتراقه في عشق الله». وهذا أيضاً له مصداقية تامة في مقام الإمام الحسين عليه السلام. ويقول: «من المحال أن تعرف الله ثم لا تحبه، والمعرفة من دون العشق لا وزن له ولا قدر». ويقول (قدس سره):

شربت الحب كأسا بعد كأس فما نفذ الشراب ولا ارتويت

ويقول (قدس سره) في حب الله وعشقه واتصاله بالأنوار: «الدنيا لأهل الدنيا غرور في غرور، والآخرة لأهل الآخرة سرور في سرور، وحب الله لأهل المعرفة نور في نور». ويقول في جوهرة اسمها العشق والمحبة: «الدرويش من كان حاضراً في كنز قلبه، وإذا برجليه تغوصان في الكنز، وهذا هو سيماء الآخرة. ثم يجد في ذلك الكنز جوهرة اسمها المحبة. فمن وصل إلى تلك الجوهرة فهو الدرويش».

يقول ابن الفارض رحمه الله في تائيته المعروفة في عشق الله وغرامه:

غرامي أقم دمعي انسجم صبري انصرم
عدوي احتكم دهري انتقم حاسدي اشمت

ويقول رحمه الله في الشوق إلى وصال ربه المعشوق:

فشنع[1] قوم بالوصال ولم تصل
وأرجف قوم بالسلو[2] ولم أسل

ويقول آخر في اكتواء العارف بعشق ربه:

وما في الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً في كل حال ... مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم ... ويبكي إن دنو خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائي ... وتسخن عينه عند التلاقي

فكما أن في لسان الكلام المسموع الآلاف من اللغات واللهجات، كذلك في لسان الجينات آلاف من الأنواع والأصناف، وفي لسان التلاقح الآلاف من الأنواع، وفي لسان الحركات ومنطق الحيوانات ومنطق الطير آلاف من الحركات والأصوات، وفي لسان القوة المغناطيسية الكهربائية آلاف من أنواع الأمواج الكهرومغناطيسية، تصدر من المخ إلى الجوارح وغيرها ومن الجوارح وغيرها إلى المخ، وفي لسان الكيماء آلاف من أنواع الكيماويات، تصدر من المخ إلى الجوارح وغيرها وبالعكس، كذلك الحال في لسان الجاذبية ولسان تباعد الأكوان وتوسع الفضاء، بل العجيب أن الحيوانات وعلى الأخص الحشرات

---

(١) بمعنى أذاعو أخباراً لا حقيقة لها.
(٢) السلو هو النسيان.

والمكروبات والفيروسات تتفاهم مع بعضها البعض بواسطة الكيماويات والأنوار والأمواج الكهرومغناطيسية أيضاً.

إن لسان الكيمياء لا يختص بمخ الآدميين فقط بل بمخ الحيوانات والطيور على اختلاف أشكالها وأنواعها وأصنافها. كذلك لسان القوة المغناطيسية الكهربائية لا تختص بمخ الآدميين فقط بل بمخ الحيوانات والطيور أيضاً. بالإضافة إلى ذلك تعمل أمواج القوة المغناطيسية الكهربائية في الفضاء حول الأرض أيضاً، كما في قانون ماكسويل في أمواج القوة الكهرومغناطيسية، الذي دونه في أواخر القرن التاسع عشر. وفي القرن نفسه استعملوا أمواج هذه القوة لإيصال التلغراف ثم صوت الهاتف إلى مناطق نائية عن طريق الكابلات الأرضية والبحرية. وفي أوائل القرن العشرين استعمل ماركوني هذه الأمواج لإيصال الصوت إلى مكان بعيد كما في الراديو، واستعمله بإيرد لإيصال الأشكال والألوان إلى مكان بعيد أيضاً كما في التلفزيون. أما في عهد الأقمار الاصطناعية الذي بدأ في أواخر القرن العشرين، فقد توسع استعمال أمواج القوة الكهرومغناطيسية لكي تصل الأصوات والأشكال والألوان إلى مناطق نائية عن طريق الهاتف والراديو والتلفزيون والإنترنت. والآن بفضل هذه الأمواج الأثيرية والأقمار الاصطناعية والكابلات الأرضية والبحرية نسمع أصواتاً ونرى صوراً وأشكالاً وألواناً من مسافات بعيدة جداً، وحتى صار في مقدورنا أن نرسل الأصوات والصور إلى القمر والكواكب البعيدة وأيضاً نتلقى الأصوات والصور منها.

بل هناك اتصالات وتفاعلات وتواصلات وتفاهمات بين الإنسان والحيوان والنبات والجماد بطرق شتى من اللغات والألسنة لا تحدّ ولا تحصى.



قصة آدم

إن قصة آدم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام تتكرر في كل الآدميين، وهي مكتوبة في فطرتهم وهم لا يشعرون. إلا من رحم ربي من الأولياء، الذين أنابوا إلى الله ورجعوا إلى أنفسهم وراقبوها وتفحصوها بدقة، والذين قرأوا هذه القصة على شاشة فطرتهم.

فالله سبحانه وتعالى أخرج آدم من جنته لحكمة عظيمة. فلولا هبوطه إلى الأرض ما عرف التوبة. والتواب خلق الله واسم من أسماء الله الحسنى أراد الله أن يتخلق به آدم وذريته.

قال أحمد خضرويه لبايزيد: «إني لا أصل إلى نهاية التوبة». فقال له بايزيد: «التوبة نهايتها العزة، والعزة صفة الخالق جل وعلا، لا يستطيع المخلوق أن يصل إليها».

نعم إنها قصتهم بالذات كما ذكرنا نبذة منها في كتابنا «ألف باء العرفان» من فصل «هبوط آدم» وما بعده ننقل منها الآتي:

«فأكل التفاحة الممنوعة وطرد من الوادي الأيمن وتركه المخادعون والمفسدون وحيداً فريداً على الأرض الملعونة يجب عليه فيها الكدح لكسب العيش حتى يرضي رغباته الكثيرة ويرضي حواء التي بجانبه والأولاد الذين يتوالدون منها، وهم يزيدونه في كل يوم رغبات

جديدة[1] لا تنتهي وتوقعات من الحياة ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه العذاب. إلى آخره».

إن الإنسان إذا دخل السير والسلوك وتعرض للتربية العرفانية والنفحات الرحمانية، وأصبح يستشرف ويطل على نفسه ويدارك علمه في الآخرة ويشاهد خليفة الله في أرضه، يرى بأم عينه هذه القصة الخالدة وهي تنطبق عليه كما انطبقت من قبل على آدم عليه السلام. فأول عدو يواجهه هو إبليس بعنجهيته وحسده، فهو لا يسجد له. وهذا الإبليس أو الشيطان يجري مجرى الدم في الإنسان كما في الحديث النبوي الشريف. ثم إن هذا الإنسان يتعلم الأسماء كلها، وهذه هي بذور الأسماء الحسنى التي ينتهي بها المطاف إلى ظهور الدوحة الإلهية في النفس المطمئنة.

فعلى سبيل المثال، بالإضافة إلى اسم التواب، وهو من أسماء الله الحسنى الذي ذكرنا آنفاً، والذي يجب على الإنسان بادئ ذي بدء أن يتجسده، انظر إلى هذه الأسماء الحسنى الأربعة كيف تتجسد في العارفين. يقول بايزيد البسطامي (قدس سره): «حظ الأولياء في اختلاف درجاتهم ومقاماتهم ينبثق من أربعة أسماء من أسماء الله الحسنى وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ فمن كان حظه من كل اسم غالباً عليه زاد حظه من ذلك الاسم، فمن نظر إلى ظاهر قدرة الله وعجائبه وروائعه زاد حظه في الظاهر من هذه الأسماء الحسنى، ومن نظر إلى الأنوار والأسرار والغيوب زاد حظه في الباطن، ومن كانت مشغلته أنه سبقت له من الله الحسنى زاد حظه في الأول، ومن كانت

---

(١) فكلما تحققت رغبة من رغباتهم أو حاجة من حاجاتهم شعروا أنهم لم يقضوا منها شروى نقير فانتقلوا إلى الأخرى وزاد شغفهم بها وهكذا دواليك، كما يقول المتنبي:

فقل في حاجة لم أقض منها ... على شغفي بها شروى نقير

مشغلته ما يكون عليه في المستقبل بعد الجهاد الأكبر زاد حظه من الآخر ولكل مقام معلوم على قدر طاقته.

ثم إن الملائكة أو القوى الكونية والطبيعية جميعها تسجد له وتسخر له، ويصير له سلطان على الملائكة أو القوى الكونية والطبيعية.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾[1]. فمن حصل له هذا السلطان ونفذ من أقطار السماوات والأرض، ماذا يضيره إذا ضربه الوثنيون واليهود وغيرهم أو أرادوا قتله، أو إذا انتقم منه اليهودي وتوعده بالقتل؟ وإذا صار هذا الإنسان دوحة إلهية ونفساً مطمئنة لم يكله الله إلى نفسه طرفة عين، بل تولاه وتولى كل أموره، وأغدق عليه أوصاف الصابرين الذين إذا نزلت بهم نازلة تنبهوا بأنهم لله وأنهم إليه راجعون، وأنهم ينتمون إلى السماء والملأ الأعلى، لا إلى الأرض بترهاتها وسفاهاتها وسخافاتها واهتماماتها ورغباتها وأقذارها وشرورها.

يقول الإمام الحسين عليه السلام: «رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه فيوفينا أجور الصابرين». بلى كان سلمان من أهل بيت النبوة كما قال النبي صلى الله عليه وآله: «**سلمان منا أهل البيت**». فهذه البذرة الطاهرة كانت كامنة في نفس سلمان، تنمو وتنمو إلى أن انتهى بها المطاف إلى الدوحة الإلهية والشجرة المحمدية، الذي كان هو سلمان المحمدي الذي سماه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بذلك.

نعم ماذا يضير سلمان إذا ضربه الوثنيون واليهود وغيرهم أو أرادوا قتله، أو إذا انتقم منه اليهودي وتوعده بالقتل؟ انظرالى أيوب عليه السلام! هذا

(١) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.

الشخص الفذّ الذي تجسدت فيه عظمة النفس المطمئنة، وإلى هذه الشخصية المقدسة التي ملكت الدين والإيمان من طرفيه الصبر والشكر كما قال النبي ﷺ: «**الدين نصفان نصفه الصبر ونصفه الشكر**». انظر ماذا حصل له وكيف صبر في القصة التالية.



قصة أيوب

التف أهل حوران حول نبي الله أيوب، ولم يعارضه سوى جماعة من الناس ذوو قلوب قاسية وعقول ضعيفة. ولم يكتف القوم بعصيان أيوب بل أخذوا يحسدونه، واغتاظوا منه لأنه ينفق أمواله على الفقراء، واتهموه بالإسراف وأنه يبعثر أمواله هنا وهناك. ولما دعاهم النبي إلى الإيمان بالله والتصدق على الفقراء ورعاية الأيتام قالوا له: أتريد أن نبعثر أموالنا على الفقراء حتى تنفذ فنصبح مثلهم لا مال عندنا ولا متاع، وعندئذ نمد أيدينا للآخرين ونطلب منهم الطعام والكساء، وربما عاملنا الناس بقسوة وطردونا. أخبرهم أيوب عليه السلام أن الصدقة تزيد المال ولا تنقصه لأن الله هو الذي يرزق الناس وهو قادر على منع الرزق عنهم.

أعرض القوم عن النبي وتركوه وحده، لكنه لم ييأس وقرر دعوتهم مرة أخرى وصمم على إقناعهم. رأى إبليس ما يحدث في أرض حوران فأعلن الحرب على أيوب عليه السلام وأقسم أن يضل القوم كي يحرمهم من جنة الخلد[1]. وسوس الشيطان لأهل حوران وأوهمهم أن أيوب ليس نبياً،

(١) وهذه جزء من قصة آدم التي أوردناها في الفصل السابق. يوسوس الشيطان إلى ذريته كي يحرمهم من جنة الخلد. فينصاعون لأوامره ويسقطون في الهاوية، إلا القليل الذين ينتبهون من سباتهم ويكافحون بعده أيما كفاح للرجوع إلى جنة المأوى. وهذه قصة تتكرر في الآدميين إلى يوم القيامة.

وأنه يتقرب إلى الله من أجل زيادة ماله وأولاده. ولكي يقنعهم إبليس بذلك فإنه أخبرهم أن أيوب كلما أنفق بعضاً من ماله ازداد المال مرة أخرى. صدق كثير من الناس مزاعم الشيطان[١] وأسرعوا إلى أيوب واتهموه أنه يعبد الله حباً في المال والأولاد. تألم النبي من اتهام قومه ولجأ إلى ربه وخر ساجداً مستغفراً ثم دعاه أن يهدي قومه. ولم ينقطع أيوب عليه السلام عن فعل الخير وتقديم العون لكل محتاج. أراد الله أن يثبت لهم إخلاص أيوب وأنه يعبده حباً وطاعة وتقرباً، فأجرى اختباراً عظيماً.

لم تمض أيام إلا وأخذت أموال أيوب تتناقص، إذ سرق اللصوص آلاف البقر والجمال والماشية والأغنام، وأصيب ما تبقى منها بالأمراض، فهلكت جميعاً في زمن قصير. ضاعت الثروة وفقد أيوب ما كان يمتلكه من الأنعام خلال أيام قليلة، وأصبح فقيراً لا يملك شيئاً. فرح الكفار وتوقعوا أن يفارق أيوب ربه ويترك عبادته لأنه حرمه من أمواله. رفع النبي يديه إلى السماء ودعا الله ثم خر ساجداً وشكره على نعمتي الأبناء والصحة، وأخذ يكثر من الصلاة والدعاء، وكأن شيئاً لم يحدث. وكان أيوب كلما شعر بهم أو ضيق جمع أولاده حوله، فينشرح صدره ويشعر بارتياح شديد، فيحمد الله على نعمة الأولاد ويدعوه أن يجعل ذريته صالحة.

مرت أيام ومات أبناء أيوب جميعهم واحداً وراء الآخر فلم يبق منهم أحد. اغتم الناس وبكى بعضهم حزناً لأنهم كانوا من أجمل شباب البلدة وأحسنهم أخلاقاً. اشتد فرح الكفار وقالوا: «الآن يترك أيوب ربه

---

(١) الشيطان ومن ورائه أتباعه من الناس شغلهم الشاغل في هذه الحياة الوشاية بالصالحين من عباد الله كما يقول الشاعر:

فلو أن واش باليمامة داره ... وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا

ولن يعبده ثانية». ثم تساءلوا: «كيف يشكر أيوب ربه وقد حرمه من ماله وأولاده، فأصبح فقيراً لا مال عنده ولا ولدا!». لجأ نبي الله أيوب إلى ربه واستغرق في الصلاة والدعاء، وخر ساجداً وشكر ربه على نعمة الصحة. مرت الأيام وأيوب صابر، شاكر، وزوجته تؤنسه في وحدته بعد أن انصرف عنه أصحابه، وإذا بالأمراض تغزو جسمه فتضعفه وتفقده الحركة وتملأه بالجروح. رفع أيوب عينيه إلى السماء وحمد الله على نعمة الحياة. وتمضي الأيام وحالة أيوب تزداد سوءاً وقلبه يزداد نوراً.

انصرف الناس عن نبيهم خوفاً من المرض، ولم يقف معه في محنته سوى زوجته الوفية[1]، لكنها قالت له يوماً: «يا أيوب لو دعوت الله لفرج عنك»، نظر أيوب إلى زوجته غاضباً وقال لها: «قد عشت سبعين سنة صحيحاً فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة؟». لجأ أيوب إلى ربه واستغفره.

ومر عليه رجلان فقال أحدهما للآخر[2]: «لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، فابتلاه الله بالمرض وأهلك ماله وأولاده. تألم أيوب من ظلم الناس ونادى ربه ودعاه قائلاً: «إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين». واخترق الدعاء السماوات السبع، فاستجاب الله له وأمره أن يضرب الأرض برجله، فتفجرت عين ماء باردة تحته .. غسل أيوب جسمه بمياه العين، فاختفت الجروح وشفي من مرضه بقدرة الله تعالى، فسجد شكراً له.

---

(١) فكان أيوب ﷺ في شرار قومه قليلاً ولكنه كان في خيار قومه كثيراً كما قال الشاعر:

فإن أك في شراركم قليلاً ... فإني في خياركم كثير

(٢) وإن أكبر معاصي الرجل تبرز من لسانه التي لا تكون له حصاة كما قال الشاعر:

وإن لسان المرء ما لم تكن له ... حصاة على عوراته لدليل

رزق الله نبيه أيوب الأموال والأبناء مكافأة له على صبره، فعاد مرة أخرى يطعم الجائعين ويرعى الأيتام ويعطف على المساكين.

ولله درّ الشاعر حيث يقول[1]:

أيوب في عسر الزمان وصبره آي التروي من رحيق إناها



إنه آية التروي من رحيق عين الحياة، التي تتجلى في ثبات إيمانه بالله وسكينته رغم المدلهمات من المصائب التي ألمت به. وصبره أيضاً آية من هذا الرحيق، ومثل يقتدى به في جميع العصور. إنه رحيق عين الحياة التي تروى منها خضر عليه السلام من قبل، وهذا هو الإناء الذي به سقاهم ربهم شراباً طهوراً.

نعم قلب أيوب يزداد نوراً رغم المصائب التي لا تطاق. لأن قلب العارف يشع بالنور ويملأ الملكوت كله بنوره، كما قال بايزيد البسطامي (قدس سره): «قلب العارف كمصباح في مشكوة في زجاجة طاهرة، يشع بالنور ويملأ الملكوت كله بنوره، فما خوف العارف من الظلام!». ورغم مصائبه الجمّة في أمواله وأولاده وصحته المتدهورة لم يتوقف لحظة عن ذكر الله. يقول بايزيد: «من عرف الله لا يستطيع أن ينطق إلا بذكره». ورغم ما ألم به من مدلهمات البلاء حافظ على سكينته الملائكية لا تهزها الرياح ولا تزحزحها الزلازل. يقول بايزيد: «تسمع خرير الماء من الجداول إذا الماء جرى، وإذا اتصل هذا الماء بالبحر سكن وهدأ، والبحر لا يزيد ولا ينقص شيئاً من ورود الماء وخروجه».

---

(١) من كتاب السماوات السبع للمؤلف.

ولما أصابه ما أصابه من البلايا التي لا يطيقها البشر[1] قال: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[2]. فاعترف بعجزه ومسكنته وحاجته وذله وانكساره واضطراره واستغاث ربه، والله مجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء. يقول بايزيد: «وإذا أصابك بلاء فاعترف فوراً بعجزك واستغث ربك لضعف صبرك فإن الله لا يخاف شيئاً». أيوب في كل حال شاكراً ربه إن كان في السراء أو في الضراء. إنه العاشق المحب الذي يسعد ويبتهج وينتشي بأن يكون على بال محبوبه، بغض النظر عن سوء أو حسن حاله، كما يقول الشاعر:

لئن سائني أن نلتني بمساءة فقد سرني أني خطرت ببالك



(١) وقالوا في مر الصبر، ولكن أين الثرى وأين الثريا! ألا إن صبر أيوب أمر وأحر وأقسى، ويكل لسان المخلوق عن وصفه:

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني صبرت على شيء أمر من الصبر
وما مثل مر الصبر صبري وإنما صبرت على شيء أحر من الجمر
وما الأمر أمري في المراد وإنما أمرت بحسن الصبر من صاحب الأمر

ويقول المتنبي في صباه:

لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٣.

عين الحياة

قصة عين الحياة، التي تروى منها الخضر عليه السلام وحصل بفضلها الحياة الخالدة، تتكرر عند الأولياء أيضاً. يذكر الله جل وعلا هذه العين الخالدة في عدة آيات من سورة الإنسان أو الدهر: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾. وفي آية أخرى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾. وفي آية أخرى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾. وهاهنا تعرف الدرجات والمقامات التي صنف الله تعالى بها أوليائه وعرفائه. فالأبرار يشربون بعضاً من هذا الكأس الخالد. أما عباد الله فيشربون بهذا العين، ما لا حدّ له ولا حصر، ويفجرونها لغيرهم تفجيراً.

وكما رأيت في قصة أيوب عليه السلام فإن هذه العين الخالدة تجلت في سكينته وصبره عندما نزل به البلاء. أو ما ترى كيف أن حالة أيوب تزداد سوء، أما قلبه فيزداد نوراً! أو ما ترى الحسين عليه السلام، فداه روحي وروح أبي وأمي، كيف يزداد وجهه نوراً كلما زادت عليه المصائب!!! نعم إن البلاء مشعل العارفين يزيدهم نوراً إلى نورهم.

يقول جنيد البغدادي: «**البلاء مشعل العارفين وموقظ المريدين ومهلك الغافلين**». نعم إن البلاء والمصائب والشدائد كالأحجار المنصبة على رؤوس الناس. فبها يهلك الغافلون، ويتيقظ المريدون من سباتهم،

ويزداد العارفون يقيناً إلى يقينهم ونوراً إلى نورهم، فيكون هذا الحطام مشعل نور لهم. الغافلون يدمرون تحت الأحجار والأنقاض، والمريدون يخرجون سالمين من تحتها، ثم يرون الأكوام والحطام أمامهم، فلا يثبطهم ذلك شروى نقير، بل يتعلمون منها دروساً لبناء حياتهم الروحية والنفس المطمئنة الموعودة. ثم يخططون على ضوئها لتحويل هذه الأحجار إلى درج يسمو بهم إلى أعلى، وسلم يصعد بهم إلى السماء، ومدرج لبناء السعادة النفسية المطلقة.

وهل تتحقق هذه السعادة والنفس المطمئنة إلا إذا خضع لك الشيطان الذي يجري مجرى الدم فيك، وخشع لك وسلم واستسلم وأسلم بحذافيره وجنوده وأولاده وأحفاده، كما قال رسول الله ﷺ عن نفسه: «**أسلم شيطاني على يدي وأعانني الله عليه**»، وكما قال الإمام علي عليه السلام عن نفسه أيضاً: «خضع لي شيطاني»؟

فما هو هدف المريدين الذي ينشدونه ويبحثون عنه؟ إنهم في أنفسهم في شغل عن غيرهم يتلمسون التطورات نقداً على شاشة أرواحهم. إنهم في شغل عن الآخرين، وكل وجودهم واهتماماتهم منصبة على شاشة أرواحهم يهذبونها تهذيباً. فالذكر والجهاد تنعكس نتائجهما نقداً على هذه الشاشة.

يقول الإمام علي عليه السلام: «**مغبون من تساوى يوماه**». نعم مغبون من حرم من التطورات خلال تربية النفس وتزكيتها. فلا بدّ أن يكون اليوم أحسن من الأمس والغد أحسن من اليوم. فبفضل ذكر الله المداوم الدؤوب، والجهاد الأكبر المستمر الذي لا يتوقف، ينظف المريد عن نفسه دوماً دائماً دأباً أكوام القمامة والرذائل، ويزيح أثقال الاهتمامات بترهات الدنيا، وأعباء العلائق القلبية بها، ويحطم أصفاد الأطماع وعدم

القناعة، وقيود الشبق في شهواتها، وسلاسل الدنية وأغلال رغباتها، وسعير الحال وعذاب النار[1].

بل العبارة الأصح هو أن المريد يطلبها حثيثاً من الله، والله سبحانه هو الذي ينظف ويزيح ويحطم، والمريد يرى كل ذلك نقداً على شاشة الروح، وهذا هو شغله الشاغل. حتى ينتهي المطاف بالمريد إلى مقام العارفين، حيث ينكشف الكفر والحجاب بحذافيره، وينظر العارف بعين الجلاء في داخل نفسه، ويرى هناك صفاء الروح وجلائه، وكأن المرآة الصافية قد أقيمت في سرادقها ببهاء جلائها، ويبقى فيها لا بحال الحال بل بحال المقام في جذبة رحمانية، لا يتزحزح عنه الهدوء النفسي والسكينة والسعادة الروحية والنفس المطمئنة.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾. فقد عبر الله جل شأنه بكلمة واحدة وهي الظلم، جميع أكوام القمامات والرذائل التي تراكمت على المؤمن وأثقالها وأعبائها وسلاسلها وأغلالها وسعيرها. بل عبرت أيضاً عما هو أعمق من ذلك، ألا هي الهواجس العصبية وما يرافقها من توترات عصبية وحركات لاإرادية، التي ترجع لعهد الطفولة، حين انبنت شخصية المؤمن خارج اختياره وإرادته ووعيه، وهو ما يسميها علماء النفس بالعقد النفسية. فلا شيء حتى الهواجس العصبية اللاواعية، التي تركت جراحها عميقاً في النظام العصبي، لا شيء بتاتاً يجب أن يبقى

---

(١) يقول حافظ إبراهيم:

فكأنه في هوله وسعيره ... واد قد اطلعت عليه جهنم

وأين الثرى وأين الثريا! وأين هذا الهول وهذا السعير الذي يتغنى به الشعراء من سعير الحال وعذاب النار!.

حائلاً بين العارف وبين ربه. يعني أن لا يبقى في وجود العارف غير الله، تأكيداً وتصديقاً لكلمة «لا إله إلا الله».

وهذا ما يعنيه بايزيد البسطامي بقوله: «لقد فتحت سبعين عقدة وبقيت واحدة كلما حاولت جهدي أن أفتحها لم تنفتح. فشكوت إلى الله باكياً: «إلهي هب لي القوة حتى أفتح هذه العقدة». فسمعت النداء: «أي بايزيد لقد فتحت كل العقد إلا هذه فلا طاقة لك بها». وهذه العقد ليست واحدة ولا اثنين ولا ثلاثة، ولكنها كثيرة. والسبعون لا تعني السبعين حصراً ولكن تعني الكثير. فهي عقد نفسية كثيرة وهواجس عصبية لا واعية، لها صداها المؤلم والمزعج في النظام العصبي، ومن ثم في حياة العارف الذي ينشد الأمن والسكينة والجذبة الرحمانية أبداً دائماً دأباً. ويمكن أن نسميها بالعقد وأولادها وأحفادها وجنودها وحشمها وخدمها. وهذا ما يسوق العارف الذي هو في حاجة مدقعة إلى ربه سوقاً، بأن يجهد جهده في السعي الصادق الجاد للقضاء عليها. وإذا لم يقدر التجأ إلى الله باكياً منتحباً خاشعاً متضرعاً مسكيناً مستكيناً عاجزاً ذليلاً منكسراً مناجياً: «إلهي تولني كما تتولى الصالحين من عبادك».

وهنا مربط الفرس في حياة العارف. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾. فهل يرى الأمن والسكينة في نفسه مع بقايا الظلم هذه التي تكونت عنده من دون اختياره وإرادته ووعيه؟

فمن علامات النفس المطمئنة أنك إذا نظرت في داخلك لا ترى حتى أثراً من خوف عصبي وتوتر عصبي وهاجس عصبي. ومن نعم الله جل وعلا على العارف أنه يتولاه كما يتولى الصالحين من عباده.

فبالله عليك كيف تستطيع الوغول إلى ما يسميه علماء النفس بالوعي الباطني؟ إلا أن يتولاك اللطيف الخبير الذي هو عالم بدقائق

الوعي الباطني، والذي إذا غاب عن وعي العارف لا يغيب عن وعي الخالق. الرائع في حياة العارف أنه يجاهد ويجاهد قدر استطاعته، حتى إذا واجهه سدّ منيع من نفسه الصعبة، دعا الله أن يتولاه كما يتولى الصالحين من عباده. فيفعل الله ذلك! وإذا السدود هدمت والقلاع فتحت والموانع أزيحت! ويرى العارف بعينه المعجزات وقد تحققت!

بلى والله فاز المخفون الذين تخففوا من كل ذلك، وخرجوا من الدنيا كما دخلوا إليها في أمن وسلام ونفس مطمئنة وروح طاهرة طليقة، تتوق إلى أصلها وربها، ثم ترجع إلى أصلها وربها، كما ترجع القطرة إلى أصلها وإلى البحر. يقول الله تعالى في آخر سورة الفجر: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

وهذه هي عين الحياة[١]، يتروى منها العرفاء، كما تروى منها من قبل خضر وأيوب عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء والأئمة الطاهرين والأولياء وعباد الله الصالحين.

وما أجلى الهدف وأوضحه! فانظر إذا كنت تحمل سعير الحال وعذاب المقام في نفسك، وتريد أن يحول الله حالك إلى حالته وصبغته، فاعمل بجد قبل موتك لإحلالها بجنة الحال والمقام وصبغة الله ومن أحسن من الله صبغة! فمن كدّ وجد واجتهد حقق الكثير، وإذا توقف في محطات لا يستطيع النفوذ أكثر دعا الله وناجاه، كما فعل سلمان رضوان

(١) أما الشعراء فيتمثلون بماء الحياة، وأين الثرى وأين الثريا! أين ماء الحياة الذي يتغنى به المتنبي وعين الحياة التي تروى منها أيوب وخضر عليهما السلام وباقي الأنبياء والأولياء والعرفاء! يقول المتنبي في صباه:

قد ذقت ماء حياة من مقبلها ... لو صاب ترباً لأحيا سالف الأمم

الله عليه، وكما يفعل العارفون، حين يدعون ويناجون بكل وجودهم، وجوههم ملتصقة بوجه الله: «إلهي تولني كما تتولى الصالحين من عبادك». فتنفرج الأمور وكأنها معجزة وإنها بالفعل لمعجزة! كما حصل لسلمان تلك المعجزة إذ بعث الله ريحاً قلعت ذلك الرمل من مكانه إلى المكان الذي قال عنه اليهودي.

ولماذا هذا الإنسان الجاهل يفضل شقاء الحال وسعيرها على سعادة الحال وجنتها؟ إنه مع الأسف الشديد يعيش بظن المعرفة كما يقول بايزيد البسطامي (قدس سره): «العارف بالله يعرف مدى جهله، والجاهل بالله يعيش بظن المعرفة». الجاهل مصر على أنه يعرف ويبغض أن يتعلم وتأخذه الأنفة من ذلك. أما العاقل فهو الذي يقرّ بجهله ويريد أن يتعلم. أما إذا لم يكن صادقاً في ذلك ولا يتعلم فهو منافق. أما إذا كان صادقاً جاداً فالأمل كل الأمل فيه لا في غيره ـ إنه المريد!

لقد صنف الإمام علي عليه السلام الناس ثلاثة أصناف: «عالم ومتعلم وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح». فالجهلة والعقلاء المنافقون هم همج رعاع، والمريدون هم المتعلمون، والواصلون هم العلماء. نعم إذا أسلم شيطانك انكشفت الغمة وإلا فلا!!!



إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه

ويستطرد آل الفقيه نقلاً عن نفس المصادر والكتب التاريخية المعتبرة قائلاً:

في هذه الفترة كان النبي ﷺ قد خرج بمكة يدعو الناس إلى الهدى والحق واتباع دين الله الذي ارتضى، وسلمان لا يعلم بذلك. وقدم النبي إلى المدينة، وبينما كان سلمان في رأس نخلة إذ به يسمع رجلاً يقول لصاحبه: أي فلان قاتل الله بني قيلة[1] مررت بهم آنفاً وهم مجتمعون على رجل بقبا قدم عليهم من مكة يزعم أنه نبي. قال: فوالله ما هو إلا أن سمعتها، فأخذني القرّ[2] والانتفاض ورجفت بي النخلة حتى كدت أن أسقط. لقد خرج محمد إذن، وأين عنه أنا الآن واللوح لا زال معي، ولكن العلامات الثلاث لا بدّ أن تكون فيه!

ويستمر سلمان في دعائه لله أن ييسر له اللقاء بمحمد، فهو لا يستطيع الهرب من مولاته. لأن ذلك قد يعقد الأمور ويعطيه صفة (الآبق) الذي يستحق أنواع العقوبات في شريعة الجاهليين، سيما إذا لحق بمحمد. ففضل التريث والتعقل في الأمر، وتحين الفرص الملائمة في الوصول إليه، لكنه بقي في دوامة من التفكير لا تهدأ، واستمر هكذا أيام.

---

(١) لقب الأنصار.

(٢) البرد.

قال: فبقيت في ذلك الحائط ما شاء الله، فبينا أنا ذات يوم في الحائط وإذا بسبعة رهط قد أقبلوا تظلهم غمامة، فقلت في نفسي: والله ما هؤلاء كلهم أنبياء، وإن فيهم نبياً. لقد كان هؤلاء النفر هم: محمد رسول الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب، والحمزة بن عبد المطلب وعقيل ابن أبي طالب، وزيد بن حارثة، والمقداد، وأبو ذر الغفاري.

وكانت الصفات الظاهرية للرسول تميزه عما سواه. فكان وسيم الطلعة، ربعة في الرجال ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردد، ضخم الرأس، ذا شعر رجل شديد سواده، مبسوط الجبين فوق حاجبين سابغين منونين متصلين، واسع العينين أدعجهما، تشوب بياضهما في الجوانب حمرة خفيفة، وتزيد في قوة جاذبيتهما أهداب طوال حوالك، مستوي الأنف دقيقه، مفلج الأسنان، كث اللحية، طويل العنق جميله، عريض الصدر، رحب الساحتين، أزهر اللون، شثن الكفين والقدمين، يسير ملقياً جسمه إلى الأمام، إذا مشى كأنما ينحدر من صبب، وإذا قام كأنما ينقلع من صخر، وإذا التفت التفت جميعاً.

نظر إليه سلمان، فرآه مميزاً عن باقي أصحابه، ولكن هذا لا يكفي، المهم العلامات الثلاث: لا يأكل الصدقة، ويأكل الهدية، وفي كتفيه خاتم النبوة، لقد حان وقتها، ودخل الرسول ومن معه إلى ذلك البستان، فجعل أصحابه يتناولون من حشف النخل، والرسول يقول لهم: كلوا ولا تفسدوا على القوم شيئاً.

وهنا اغتنم سلمان الفرصة التي قيضها الله له، والتي كانت بداية خلاصه والتحاقه بركب الإسلام. فأقبل إلى مولاته مستميحاً إياها أن تهبه قليلاً من الرطب قائلاً: هبي لي طبقاً من الرطب. وكانت المرأة كما ذكرنا تحبه حباً شديداً فقالت له: لك ستة أطباق! قال: فحملت طبقاً

فقلت في نفسي إن كان فيهم نبي فإنه لا يأكل الصدقة ويأكل الهدية، فوضعته بين يديه فقلت: هذه صدقة. فقال رسول الله ﷺ: «**كلوا**»، وأمسك هو وعلي وأخوه عقيل وعمه حمزة(١). فقلت في نفسي: هذه علامة!

فدخلت إلى مولاتي فقلت: هبي لي طبقاً آخر. قالت: لك ستة أطباق! فحملت طبقاً ووضعته بين يديه وقلت: هذه هدية. فمد النبي ﷺ يده وقال: «**بسم الله، كلوا**». ومد القوم جميعاً أيديهم فأكلوا، فقلت في نفسي: هذه أيضاً علامة أخرى. قال: ورجعت إلى خلفه وجعلت أتفقد خاتم النبوة. فحانت من النبي ﷺ التفاتة فقال: «**يا روزبة! تطلب خاتم النبوة؟**» قلت: نعم. فكشف عن كتفيه فإذا بخاتم النبوة معجون بين كتفيه عليه شعرات! فسقطت على قدميه أقبلهما.. ونسي الراوي أن يقول: فأبلغته سلام الراهب وأعطيته اللوح وحدثته بما جرى لي.

وإلى هنا يكون سلمان قد وصل إلى هدفه الذي خرج من أجله، ويبقى في هذه القصة لغز ربما حير كثيرين .. لغز الرهبان الثلاثة أو الأربعة الذين كانوا يوصون بسلمان إلى بعضهم البعض، وآخرهم الذي قال له: لا أعلم أحداً في الأرض على دين عيسى ابن مريم! ترى هل أن هؤلاء الرهبان كانوا قد احتكروا الديانة المسيحية لأنفسهم؟ فأين ملايين النصارى ومئات القسس وأين موقعهم من ذلك الدين؟ سيما وأن النصوص الواردة في إسلامه تظافرت واتفقت على هذا المعنى.

الحق: أن أولئك الرهبان كانوا من الأبدال(٢) الذين لا تخلو

---

(١) في شرح النهج ١٨/ ٣٥ وقال: إنه لا تحل لنا الصدقة.

(٢) الأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، إذا مات واحد أبدل الله مكانه آخر. وورد أيضاً: الأبدال قوم يقيم الله بهم الأرض وهم سبعون. أربعون بالشام وثلاثون بغيرها. لا يموت أحدهم إلا قام مقامه آخر من سائر الناس.

الأرض منهم، أو أنهم كانوا من أوصياء أوصياء المسيح عليه السلام ـ على حدّ تعبير البعض. وبذلك يسهل علينا تقبل ما أورده كثير من المؤرخين من أن سلمان أدرك وصي وصي عيسى، أو أدرك بعض الحواريين.

بقيت مشكلة الرق (المفتعل) الذي تم بسبب أولئك القساة الذين صحبهم سلمان من الإسكندرية، والذي يحول بينه وبين اللحاق برسول الله ﷺ، سيما وأن هذه المرأة لن تتخلى عنه بسهولة، وهنا تدخل رسول الله ﷺ لينقذ سلمان من محنته القاسية فالتفت إليه قائلا: «**يا روزبة ادخل إلى هذه المرأة وقل لها: يقول لك محمد بن عبد الله أتبيعيني له؟**»

نهض سلمان إليها وأبلغها مقالة النبي ﷺ وهو يظن أنها ستجيبه إلى طلبه وتبيعه بدراهم معدودات كما فعل معه أسياده السابقون، وعندها سيتخلص من ربقة العبودية ويعيش حراً في دنيا الإسلام.

كان ما حصل هو العكس، فالمرأة شديدة التعلق بهذا الفارسي - وربما لإخلاصه وأمانته ـ فهي لن تتخلى عنه بسهولة. ومن جهة ثانية أن المساوم عليه هو محمد بن عبد الله النبي الذي يكرهه الوثنيون والمشركون والتي هي منهم. فهي إذن تود إيذائه وتعجيزه وقهره لو استطاعت. فكانت هذه المساومة من محمد فرصة سانحة لذلك. فوافقت على بيعه وشرطت شرطاً لا يمكن تحقيقه إلا إذا تدخلت العناية الإلهية. فقالت لسلمان: لا أبيعك إلا بأربعمائة نخلة، منها مئتان صفراء ومنها مئتان حمراء.

إنه طلب صعب! فمن أين تجتمع هذه النخلات الأربعمائة بهذه المواصفات؟ ولكن شاء الله أن تكون حياة هذا الفارسي مليئة بأسرار لا يعلمها إلا هو. واختارت مشيئته سبحانه أن يكون لمحمد ﷺ القدرة على تحقيق ما يعجز عنه البشر وأن تحصل على يديه خوارق تزيد المؤمنين بصيرة.

فقال رسول الله ﷺ: «**ما أهون ما طلبت**»! ثم قال: «**قم يا علي فاجمع هذا النوى كله**». فأخذه ﷺ وغرسه ثم قال: «**اسقه**». فسقاه فما بلغ آخره حتى خرج النخل ولحق بعضه بعضاً. والتفت رسول الله ﷺ إلى سلمان قائلاً: «**ادخل إليها وقل: يقول محمد بن عبد الله هذا شيئك فاستلميه، وسلمينا شيئنا**».

قال: فدخلت عليها وقلت لها ذلك، فخرجت ونظرت إلى النخل فقالت: والله لا أبيعك له إلا بأربعمائة نخلة صفراء! لقد دهشت هذه المرأة لما رأت. فها هو النخل أمام عينيها وقد صار فسيلاً! يا لله! هل هو السحر؟ أم هو الإعجاز الذي يؤيد الله به أنبيائه؟ وفي حالة من الاضطراب لا توصف تراجعت عن كلامها. إنها تريد النخل بأجمعه أصفر. وتدخلت العناية الإلهية مرة ثانية حيث هبط جبرائيل عليه السلام ومسح النخل بجناحيه فصار كله أصفر.

فقال النبي ﷺ لسلمان قل لها: «**إن محمدا يقول لك خذي شيئك وادفعي لنا شيئنا**». قال سلمان: فقلت لها ذلك فقالت: والله لنخلة من هذه أحب إلي من محمد ومنك! فقلت لها: والله ليوم واحد مع محمد أحب إلي منك ومن كل شيء أنت فيه. ثم إن رسول الله ﷺ أعتقني وسماني: سلمان[1].

(١) محدثوا سيرة سلمان كثر وكلهم يروي عن سلمان سيرته كما جاءت على لسانه. لكن ما يروونه فيه اختلاف كبير بالنسبة للشكل والصياغة، وإن كان متقارباً في أصل المضمون. فلا يمكن اختيار واحدة من تلك الروايات والاكتفاء بسردها لاحتياجها إلى ما في الروايات الأخرى، وافتقار تلك الروايات لها مما يجعل بعضها يكمل بعضاً. فكانت الطريقة المثلى صياغة القصة من مجموع تلك الروايات في حلة جديدة لائقة بسلمان ومكانته، تنسج خيوطها من سيرته ذاتها وليست بنشاز عنها، لأنها كلها بلسانه رضي الله عنه. وهذه الرواية في معظمها من إكمال الدين وشرح النهج لابن أبي الحديد.

سلمان شيعة
الإمام علي عليه السلام

قال أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني: «إن لفظ الشيعة على عهد رسول الله كان لقب أربعة من الصحابة سلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري ... الخ»[1]. وقال الشيخ المفيد رحمه الله في بيان إمامة أمير المؤمنين: «فاختلفت الأمة في إمامته يوم وفاة النبي صلى الله عليه وآله فقالت شيعته وهم: بنو هاشم كافة وسلمان وعمار ... الخ»[2]. وقال ابن أبي الحديد: «وكان سلمان من شيعة علي عليه السلام وخاصته، وتزعم الإمامية أنه أحد الأربعة الذين حلقوا رؤوسهم وأتوه متقلدي سيوفهم في خبر يطول ... الخ»[3].

كان الصحابي الكبير سلمان رضي الله عنه أول من دعا المسلمين لمبايعة أمير المؤمنين علي عليه السلام، كما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال:

«خطب الناس سلمان الفارسي رحمة الله عليه بعد أن دفن النبي صلى الله عليه وآله بثلاثة أيام فقال: «ألا أيها الناس اسمعوا عني حديثي ثم

(١) الشيعة وفنون الإسلام صفحة ٣١.
(٢) الإرشاد صفحة ١٠.
(٣) شرح النهج جزء ١٨ صفحة ٣٩.

اعقلوه عني، ألا وإني أوتيت علماً كثيراً، فلو حدثتكم بكل ما أعلم من فضائل أمير المؤمنين لقالت طائفة منكم: هو مجنون، وقالت طائفة أخرى: اللهم اغفر لقاتل سلمان، ألا إن لكم منايا تتبعها بلايا، ألا وإن عند علي عليه السلام علم المنايا والبلايا وميراث الوصايا وفصل الخطاب وأصل الأنساب، على منهاج هارون بن عمران بن موسى عليه السلام. إذ يقول رسول الله صلى الله عليه وآله فيه: أنت وصيي في أهل بيتي وخليفتي في أمتي وأنت مني بمنزلة هارون من موسى. ولكنكم أخذتم سنة بني إسرائيل فأخطأتم الحق، فأنتم تعلمون ولا تعلمون، أما والله لتركبن طبقاً عن طبق حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة.

أما والذي نفس سلمان بيده لو وليتموها عليًّا لأكلتم من فوقكم ومن تحت أقدامكم، ولو دعوتم الطير لأجابتكم في جو السماء، ولو دعوتم الحيتان من البحار لأتتكم، ولما عال ولي الله ولا طاش لكم سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله، ولكن أبيتم فوليتموها غيره. فأبشروا بالبلايا واقنطوا من الرخاء، وقد نابذتكم على سواء، فانقطعت العصمة فيما بيني وبينكم من الولاء.

عليكم بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فوالله لقد سلمنا عليه بالولاية وإمرة المؤمنين مراراً جمّة مع نبينا، كل ذلك يأمرنا به ويؤكده علينا. فما بال القوم عرفوا فضله فحسدوه! وقد حسد قابيل هابيل فضله! وكفاراً قد ارتدت أمة موسى بن عمران، فأمر هذه الأمة كأمر بني إسرائيل، فأين يذهب بكم؟

أيها الناس ويحكم! أجهلتم أم تجاهلتم، أم حسدتم أم تحاسدتم؟ والله لترتدن كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف. يشهد الشاهد على الناجي بالهلكة، ويشهد الشاهد على الكافر بالنجاة. ألا وإني

أظهرت أمري وسلمت لنبيي واتبعت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة عليًا أمير المؤمنين عليه السلام وسيد الوصيين وقائد الغر المحجلين وإمام الصديقين والشهداء والصالحين»[1].

وقال مخاطباً الصحابة: «أصبتم الخير ولكن أخطأتم المعدن». وفي رواية أخرى: «أصبتم ذا السنّ منكم ولكن أخطأتم أهل بيت نبيكم، أما لو جعلتموها فيهم ما اختلف منكم اثنان ولأكلتموها رغداً»[2].

وذكر البلاذري في الأنساب صفحة ٥٩١: «قال سلمان الفارسي حين بويع أبو بكر: (كرداذ وناكرداذ) ـ أي عملتم وما عملتم ـ لو بايعوا عليًا لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم».

وذكر الجويني بسنده عن زاذان عن سلمان قال: «سمعت حبيبي المصطفى محمد ﷺ يقول: كنت أنا وعلي نورا بين يدي الله ﷻ مطيعا، يسبح الله ذلك النور ويقدسه قبل أن يخلق الله آدم بأربعة عشر ألف سنة. فلما خلق الله تعالى آدم ركب ذلك النور في صلبه، فلم يزل في شيء واحد حتى افترقنا في صلب عبد المطلب، فجزء أنا وجزء علي»[3].

وذكر الجويني بسنده عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خلقت أنا وعلي بن أبي طالب من نور الله عن يمين العرش، نسبح الله ونقدسه من قبل أن يخلق الله ﷻ آدم بأربعة عشر ألف سنة. فلما خلق الله آدم نقلنا إلى أصلاب الرجال وأرحام النساء الطاهرات، ثم نقلنا إلى صلب عبد المطلب وقسمنا نصفين. فجعل نصف في صلب أبي عبد الله وجعل**

(١) الاحتجاج ١/١٥١ ـ ١٥٢.
(٢) شرح النهج جزء ٦ صفحة ٤٣.
(٣) فرائد السمطين ٤٢ ح ٦.

النصف الآخر في صلب عمي أبي طالب، فخلقت من ذلك النصف وخلق علي من النصف الآخر. واشتق الله تعالى لنا من أسمائه أسماء، فالله ﷻ محمود وأنا محمد، والله الأعلى وأخي علي، والله الفاطر وابنتي فاطمة، والله محسن وأبنائي الحسن والحسين. وكان اسمي في الرسالة والنبوة وكان اسمه في الخلافة والشجاعة، وأنا رسول الله وعلي ولي الله»(١).

وذكر الجويني بسنده عن الأصبغ قال: سئل سلمان الفارسي رضي الله عنه عن علي بن أبي طالب وفاطمة عليهما السلام فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«عليكم بعلي بن أبي طالب فإنه مولاكم فأحبوه، وكبيركم فاتبعوه، وعالمكم فأكرموه، وقائدكم إلى الجنة فعززوه، فإذا دعاكم فأجيبوه، وإذا أمركم فأطيعوه. أحبوه بحبي وأكرموه بكرامتي، ما قلت لكم في علي إلا ما أمرني به ربي جلت عظمته»**(٢).

وذكر الجويني بسنده عن عباد بن عبد الله عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«أعلم أمتي من بعدي علي بن أبي طالب»**(٣).
وذكر بسنده عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة ضربت لي قبة حمراء عن يمين العرش، وضربت لإبراهيم قبة من ياقوتة خضراء عن يسار العرش، وضربت فيما بيننا لعلي بن أبي طالب قبة من لؤلؤة بيضاء، فما ظنكم بحبيب بين خليلين»**(٤).



(١) فرائد السمطين ٤١ ح ٥.
(٢) فرائد السمطين ٧٨ ح ٤٥.
(٣) فرائد السمطين ٩٧ ح ٦٦.
(٤) فرائد السمطين ١٠٤ ح ٧٤.

علم سلمان
وزهده

قال النبي ﷺ: «**سلمان يبعث أمة، لقد أشبع علماً**». وقال ﷺ مخاطبا أبا الدرداء وكأنه يريد إيقافه على حقيقة كان يجهلها: «**يا عويمر سلمان أعلم منك**»[1]. وروى زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام: «لقد بلغ من علم سلمان أنه مر برجل في رهط فقال له: يا عبد الله تب إلى الله ﷻ من الذي عملت في بطن بيتك البارحة. ثم مضى فقال له القوم: لقد رماك سلمان بأمر فما رفعته عن نفسك. قال: إنه أخبرني بأمر ما اطلع عليه إلا الله وأنا»[2].

عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: «دخل أبو ذر على سلمان وهو يطبخ قدراً له. فبينا هما يتحادثان إذ انكبت القدر على وجهها على الأرض، فلم يسقط من مرقها ولا من ودكها شيء! فعجب من ذلك أبو ذر عجباً شديداً. وأخذ سلمان القدر فوضعها على حالها الأول على النار ثانية، وأقبلا يتحدثان. فبينما يتحدثان إذ انكبت القدرعلى وجهها فلم يسقط منها شيء من مرقها ولا من ودكها!

(١) أنساب الأشراف ٤٨٨.

(٢) معجم رجال الحديث ٨/ ١٩٢.

قال: فخرج أبو ذر ـ وهو مذعور ـ من عند سلمان. فبينما هو متفكر إذ لقي أمير المؤمنين عليه السلام على الباب. فلما أن بصر به أمير المؤمنين عليه السلام قال له: يا أبا ذر ما الذي أخرجك من عند سلمان وما الذي ذعرك؟ فقال له أبو ذر: يا أمير المؤمنين رأيت سلمان صنع كذا وكذا فعجبت من ذلك! فقال أمير المؤمنين: يا أبا ذر إن سلمان لو حدثك بما يعلم لقلت: رحم الله قاتل سلمان[1]».

علماً بأن أبا ذر كان من الأربعة الذين ذكرهم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في قوله: «**أمرني ربي بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم: علي، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان**».

روى عنه ابن عباس ـ حبر الأمة ـ وأبو عثمان النهدي، وأبو الطفيل، وأبو قرة الكندي[2]. وقد روى البخاري عنه ستين حديثاً[3] وغيرهم من الصحابة والتابعين. وجاء في كتاب فنون الإسلام في أول من جمع حديثاً إلى مثله في باب واحد وعنوان واحد من الصحابة الشيعة: وهم أبو عبد الله سلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري رضي الله عنهما. وقد نص على ذلك رشيد الدين ابن شهرأشوب في كتابه معالم علماء الشيعة[4].

وذكر الشيخ أبو جعفر الطوسي ـ شيخ الشيعة ـ والشيخ أبو العباس النجاشي في كتابيهما في فهرست أسماء المصنفين من الشيعة، مصنفاً لأبي عبد الله سلمان الفارسي، ومصنفاً لأبي ذر الغفاري، وأوصلا

---

(١) معجم رجال الحديث ٨/١٩٣ ـ ١٩٤.
(٢) الجرح والتعديل، القسم الأول من المجلد الثاني ٢٩٦ ـ ٢٩٧.
(٣) الأعلام ٣/ ١٧٠.
(٤) أعيان الشيعة جزء ٣٥ صفحة ٢٤٣.

إسنادهما إلى رواية كتاب سلمان وكتاب أبي ذر. وكتاب سلمان كتاب حديث الجاثليق الرومي الذي بعثه ملك الروم بعد النبي ﷺ. وقصة الجاثليق هذه أوردها بعض المؤلفين القدامى في كتبهم رواية عن سلمان رضي الله عنه.

قال ابن أبي الحديد: قال أبو وائل: «ذهبت أنا وصاحب لي إلى سلمان الفارسي فجلسنا عنده. فقال رضي الله عنه: لولا أن رسول الله ﷺ نهى عن التكلف لتكلفت لكم. ثم جاء بخبز وملح ساذج لا أبزار عليه. فقال صاحبي: لو كان لنا في ملحنا هذا سعتر! فبعث سلمان بمطهرته فرهنها على سعتر. فلما أكلنا قال صاحبي: الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا. فقال سلمان: لو قنعت بما رزقك لم تكن مطهرتي مرهونة»[1].

ودخل قوم على سلمان وهو أمير على المدائن، وهو يعمل الخوص. فقيل له: تعمل هذا وأنت أمير يجري عليك رزق؟ فقال: إني أحب أن آكل من عمل يدي. وذكر أنه تعلم عمل الخوص بالمدينة من الأنصار عند بعض مواليه[2]. وفي الأعلام ٣/ ١٧٠: وكان إذا خرج عطاؤه تصدق به، ينسج الخوص ويأكل خبز الشعير من كسب يده.

وعن الحسن البصري: «كان عطاء سلمان خمسة آلاف. وكان إذا خرج عطاؤه تصدق به، ويأكل من عمل يده. وكانت له عباءة يفرش بعضها ويلبس بعضها، ولم يكن لسلمان بيت إنما كان يستظل بالجدر والشجر. وإن رجلاً قال له: ألا نبني لك بيتاً تسكن فيه؟ قال: لا حاجة لي في ذلك. فما زال به الرجل حتى قال له: أنا أعرف البيت الذي

---

(١) البحار ٢٢/ ٣٨٤.

(٢) شرح النهج ١٨/ ٣٥ إلى ٣٧ وكذلك في أسد الغابة قريباً منه ٢/ ٣٢٨.

يوافقك. فقال: فصفه لي. قال: أبني لك بيتاً إذا أنت قمت فيه أصاب رأسك سقفه، وإن أنت مددت فيه رجليك أصابهما (الجدار). قال: نعم. فبنى له».

وذكر في الدرجات الرفيعة صفحة ٢١٢: «وقع بين سلمان الفارسي ورجل كلام وخصومة. فقال له الرجل: من أنت يا سلمان؟ فقال ﷺ: أما أولي وأولك فنطفة قذرة! وأما آخري وآخرك فجيفة نتنة! فإذا كان يوم القيامة ووضعت الموازين، فمن ثقلت موازينه فهو الكريم ومن خف ميزانه فهو اللئيم».

وذكر المسعودي في مروج الذهب ٣٠٦/٢: «أنه كان يلبس الصوف ويركب الحمار ببرذعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير، وكان ناسكاً زاهداً. فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبي وقاص: أوصني يا أبا عبد الله. قال: اذكر الله عند همك إذا هممت، وعند لسانك إذا حكمت وعند يدك إذا قسمت. فجعل سلمان يبكي. فقال له: يا أبا عبد الله ما يبكيك؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن في الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون**»، وأرى هذه الأساود حولي. فنظروا فلم يجدوا في البيت إلا إداوة وركوة ومطهرة.



علمه بالغيب
أو علم المنايا والبلايا

أما علمه بالغيب فلقد علمه رسول الله ﷺ علم المنايا والبلايا كما ذكر في فصل فضائل سلمان حينما خاطب الرسول ﷺ الأعرابي: «... **يا أعرابي لا تغلطن في سلمان فإن الله تبارك وتعالى قد أمرني أن أطلعه على علم المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب ...**».

قال المسيب بن نجبة الفزاري: لما أتانا سلمان الفارسي قادماً، تلقيناه فسار حتى انتهى إلى كربلاء فقال: ما تسمون هذه الأرض؟ قالوا: كربلاء. فقال: «هذه مصارع إخواني، هذا موضع رحالهم، وهذا مناخ ركابهم، وهذا مهراق دمائهم، يقتل بها ابن خير الأولين، ويقتل بها خير الآخرين»[1].

وكان زهير بن القين عثماني العقيدة، واتفق أنه نزل بالقرب من الحسين عليه السلام حين رحيله من مكة إلى الكوفة. وعلم الحسين عليه السلام به فاستدعاه ذات يوم، فشق عليه ذلك، ثم أجابه على كره. فلما عاد من عنده نقل ثقله إلى ثقل الحسين عليه السلام ثم قال لأصحابه: «من أحب منكم أن يتبعني وإلا فإنه آخر العهد. وسأحدثكم حديثاً: غزونا

(١) فتوح البلدان صفحة ٤٠٦.

بلنجر[1] ففتح علينا وأصبنا غنائم ففرحنا. وكان معنا سلمان الفارسي فقال لنا: إذا أدركتم سيد شباب أهل محمد فكونوا أشد فرحا بقتالكم معه بما أصبتم اليوم من الغنائم. فأما أنا فأستودعكم الله. ثم طلق زوجته وقال لها: الحقي بأهلك فإني لا أحب أن يصيبك في سببي إلا خير، ولزم الحسين عليه السلام حتى قتل معه»[2].

ومر سلمان ـ في طريقه إلى المدائن ـ بالكوفة. فسأل من كان معه: هذه الكوفة؟ قالوا: نعم. قال: «قبة الإسلام يأتي على الناس زمان لا يبقى مؤمن إلا وهو بها أو يهوي قلبه إليها ...»[3]. وقال: «أهل الكوفة أهل الله، وهي قبة الإسلام يحن إليها كل مؤمن»[4].

وفي حرب بهرسير (بعد حرب القادسية) عندما دخلوا جيوش المسلمين أفواجاً أفواجاً مع خيولهم في نهر دجلة، وطبقوا دجلة حتى ما يرى من الشاطئ شيء، فعامت بهم خيولهم، كان سلمان مع سعد فقال لسعد: «الإسلام جديد، ذللت لهم البحور كما ذلل لهم البر. أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً». فخرجت جيوش المسلمين من بحر دجلة أفواجاً كما قال سلمان لم يفقدوا شيئاً.



(١) كانت غزوة بلنجر في سنة ٣٢ للهجرة أي قبل واقعة كربلاء بثلاثين سنة تقريباً.
(٢) الكامل ٤/ ٤٢.
(٣) فتوح البلدان صفحة ٤٠٦ وأعيان الشيعة مجلد ٣٥/ ٢٥٠ ـ ٢٥١.
(٤) معجم البلدان ٤/ ٤٩٢.

فضائل سلمان المحمدي

وذكر الصدوق بسنده عن ابن نباتة قال: سألت أمير المؤمنين عليه السلام عن سلمان الفارسي رحمة الله عليه وقلت: ما تقول فيه؟

فقال عليه السلام: **ما أقول في رجل خلق من طينتنا وروحه مقرونة بروحنا. خصه الله تبارك وتعالى من العلوم بأولها وآخرها وظاهرها وباطنها وسرها وعلانيتها.**

ولقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلمان بين يديه فدخل أعرابي فنحاه عن مكانه وجلس فيه. فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى در العرق بين عينيه واحمرتا عيناه ثم قال: **«يا أعرابي أتنحي رجلاً يحبه الله تبارك وتعالى في السماء ويحبه رسوله في الأرض! يا أعرابي أتنحي رجلاً ما حضرني جبرائيل إلا أمرني عن ربي عز وجل أن أقرئه السلام! يا أعرابي إن سلمان مني من جفاه فقد جفاني، ومن آذاه فقد آذاني، ومن باعده فقد باعدني، ومن قربه فقد قربني. يا أعرابي لا تغلظن في سلمان فإن الله تبارك وتعالى قد أمرني أن أطلعه على علم المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب».**

قال: فقال الأعرابي: يا رسول الله ما ظننت أن يبلغ من فضل سلمان ما ذكرت، أليس كان مجوسيًا ثم أسلم؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: **«يا أعرابي أخاطبك عن ربي وتقاولني! إن سلمان ما كان مجوسيًا، ولكنه كان مظهراً للشرك مبطناً للإيمان. يا أعرابي أما سمعت الله عز وجل يقول:**

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1] .**أما سمعت الله ﷻ يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[2]. يا أعرابي خذ ما آتيتك وكن من الشاكرين، ولا تجحد فتكون من المعذبين، وسلم لرسول الله قوله تكن من الآمنين**[3].

ذكر في أنساب الأشراف صفحة ٤٨٧: «رأى عيينة بن حصين سلمان عند رسول الله ﷺ يوماً وعليه شملة. فقال له: إذا دخلنا عليك فنح عنا هذا وأمثاله. فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[4]. وكانت هذه الآية الكريمة قد نزلت في فضيلة سلمان رضي الله عنه.

وقيل: إن المؤلفة قلوبهم وهم عيينة بن حصين، والأقرع بن حابس وذووهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وعنده سلمان، وأبو ذر، وصهيب، وعمار وغيرهم من فقراء المسلمين. فقالوا: يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم ـ وكانت عليهم جباب صوف ـ جالسناك أو حادثناك وأخذنا عنك». «فلا يمنعنا من الدخول عليك إلا هؤلاء!»[5].

أما فضائل سلمان رضي الله عنه على لسان أهل بيت العصمة عليهم السلام فهي كثيرة منها: عن أبي جعفر عليه السلام، عن أبيه عن جده، عن علي بن أبي

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٥.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٣) البحار ٢٢/٣٤٧.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٨.
(٥) الميزان ٣/٣٠٥ ومجمع البيان ٦/٤٦٥.

طالب عليه السلام قال: ضاقت الأرض بسبعة بهم ترزقون، وبهم تنصرون، وبهم تمطرون منهم: سلمان الفارسي، والمقداد، وأبو ذر، وعمار، وحذيفة. وكان علي عليه السلام يقول: وأنا إمامهم. وهم الذين صلوا على فاطمة عليها السلام.

أخرج الشيخ الطوسي في أماليه عن منصور بن بزرج قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام ما أكثر ما أسمع منك ـ سيدي ـ ذكر سلمان الفارسي؟ قال عليه السلام: لا تقل سلمان الفارسي ولكن قل سلمان المحمدي. أتدري ما أكثر ذكري له؟ قلت لا. قال عليه السلام: لثلاث خصال: إيثاره هوى أمير المؤمنين عليه السلام على نفسه. **والثانية** حبه للفقراء واختياره إياهم على أهل الثروة والعدد. **والثالثة** حبه للعلم والعلماء.

وأخرج الكشي عن محمد بن حكيم قال: ذكر عند أبي جعفر عليه السلام سلمان المحمدي فقال: إن سلمان منا أهل البيت. إنه كان يقول للناس: **هربتم من القرآن إلى الأحاديث**. وجدتم كتاباً دقيقاً حوسبتم فيه على النقير والقمطير والفتيل وحبة الخردل فضاق عليكم ذلك، وهربتم إلى الأحاديث التي اتسعت عليكم[1].

وبسنده عن الحسين بن صهيب عن أبي جعفر عليه السلام قال: ذكر عنده سلمان الفارسي قال فقال أبو جعفر عليه السلام: لا تقولوا سلمان الفارسي ولكن قولوا سلمان المحمدي ذاك رجل منا أهل البيت[2].

وبالإضافة إلى مناقبه رضي الله عنه التي ذكرنا آنفاً كانت له اليد الطولى في العبادات ومن جملتها الصلاة الرجبية. ذكر الشيخ عباس القمي في مفاتيح الجنان صلاة سلمان الفارسي رضي الله عنه في اليوم الأول من رجب وفي وسطه وآخره ما يلي:

(١) الدرجات الرفيعة ٢٠٩ ـ ٢١٠.

(٢) البحار ٢٢/٣٤٩.

«الخامس: أن يبتدئ صلاة سلمان رضي الله عنه، وهي ثلاثون ركعة يصلي منها في هذا اليوم عشر ركعات يسلم بعد كل ركعتين ويقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات، وقل يا أيها الكافرون ثلاث مرات فإذا سلم رفع يديه وقال:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير. ثم يقول:

اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

ثم يمسح بهما وجهه.

ويصلي عشراً بهذه الصفة في يوم النصف من رجب، ولكن يقول بعد على كل شيء قدير:

إلهاً واحداً أحداً فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً

ويصلي مثلها في آخر أيام الشهر ويقول بعد على كل شيء قدير:

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم يمسح وجهه بيديه ويسأل حاجته. وهذه صلاة ذات فوائد جمة لا ينبغي التغاضي عنها.

ولسلمان ﵀ أيضاً صلاة أخرى في هذا اليوم وهي عشر ركعات يقرأ في كل ركعة الفاتحة مرة والتوحيد ثلاث مرات، وهي صلاة ذات فضل عظيم فإنها توجب غفران الذنوب والوقاية من فتنة القبر وعذاب يوم القيامة ويصرف عمن صلاها الجذام والبرص وذات الجنب».



مواعظ سلمان
ودرر حكمه

ذكر في الكامل ٣/ ٥٩: «قال عمر لسلمان: أملك أنا أم خليفة؟ قال له سلمان: إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ووضعته في غير حق، فأنت ملك غير خليفة. فبكى عمر».

آخى رسول الله ﷺ بين سلمان الفارسي، وأبي الدرداء عويمر بن ثعلبة[1]. وروي أن سلمان بات عنده ليلة، فلما كان الليل قام أبو الدرداء ـ للعبادة ـ فحبسه سلمان وقال: «إن لربك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لجسدك عليك حقاً، فاعط لكل ذي حق حقه». فلما كان وجه الصبح قال: قم الآن. فقاما فصليا (النافلة) ثم خرجا إلى الصلاة. فلما صلى رسول الله ﷺ قام إليه أبو الدرداء وأخبره بما قال سلمان. فقال رسول الله ﷺ مثل ما قال سلمان.

يقول بايزيد البسطامي (قدس سره): «اطلع الحق على قلوب الأولياء فوجد أن بعضهم لا قبل لهم بحمل ثقل المعرفة، فأشغلهم بالعبادة». فأبو الدرداء من هؤلاء الأولياء الذين لا قبل لهم بحمل ثقل المعرفة فانشغلوا بالعبادة. أما سلمان فقد حمل هذا الثقل بكل جدارة حتى قال عنه الإمام

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٨.

الصادق عليه السلام: «لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله». وقال النبي ﷺ: **«سلمان يبعث أمة، لقد أشبع علماً»**. وقال ﷺ مخاطباً أبا الدرداء وكأنه يريد إيقافه على حقيقة كان يجهلها: **«يا عويمر سلمان أعلم منك»**[1].

وسكن سلمان العراق، وسكن أبو الدرداء الشام فكتب إلى سلمان يقول: «سلام عليك أما بعد: فإن الله رزقني بعدك مالاً وولداً، ونزلت الأرض المقدسة». فكتب إليه سلمان: «سلام عليك أما بعد: فإنك كتبت لي أن الله رزقك مالاً وولداً، فاعلم أن الخير ليس بكثرة المال، ولكن الخير أن يكثر حلمك، وأن ينفعك عملك. وكتبت إلي أنك نزلت الأرض المقدسة، وإن الأرض لا تعمل لأحد، اعمل كأنك ترى واعدد نفسك من الموتى»[2].

وذكر البلاذري في الأنساب صفحة ٥٩١: «صنع سلمان طعاماً لإخوانه، فجاء سائل فأراد بعضهم أن يناوله رغيفاً، فقال سلمان: ضع! إنما دعيت لتأكل». ثم قال: «وما علي أن يكون لي الأجر وعليك الوزر».

وذكر بسنده عن أحمد بن يحيى الجوني: «قال سلمان الفارسي حين بويع أبو بكر «كرداذ وناكرداذ» ـ أي عملتم وما عملتم ـ لو بايعوا عليًّا لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم»[3].

وذكر في الدرجات الرفيعة صفحات ٢٠٥ ـ ٢٠٦ عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: جلس جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ

(١) أنساب الأشراف ٤٨٨.
(٢) أسد الغابة ٢/٣٢٨.
(٣) الأنساب صفحة ٥٩١.

ينتسبون ويفتخرون، وفيهم سلمان رضي الله عنه. فقال له عمر: ما نسبتك أنت يا سلمان وما أصلك؟ فقال: أنا سلمان بن عبد الله، كنت ضالاً فهداني الله بمحمد، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمد، وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمد، فهذا حسبي ونسبي يا عمر.

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله فذكر سلمان ما قال عمر وما أجابه به. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **يا معشر قريش إن حسب المرء دينه، ومروته خلقه، وأصله عقله. قال الله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]. **ثم أقبل على سلمان فقال له: سلمان! إنه ليس لأحد من هؤلاء عليك فضل إلا بتقوى الله عز وجل، فمن كنت أتقى منه فأنت أفضل منه».**

وذكر في شرح النهج ١٨/ ٣٤: وكان إذا قيل له: ابن من أنت؟ يقول: أنا سلمان ابن الإسلام أنا من بني آدم.

وفي الخصال صفحة ٣٢٦: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال سلمان رحمة الله عليه: «عجبت بست، ثلاث أضحكتني وثلاث أبكتني. فأما التي أبكتني ففراق الأحبة محمد وحزبه، وهول المطلع، والوقوف بين يدي الله عز وجل. وأما التي أضحكتني فطالب الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملئ فيه، لا يدري أرضي الله أم سخط».

وذكر في أنساب الأشراف صفحات ٤٨٧ ـ ٤٨٨: عن القاسم بن عبد الرحمن حيث يقول: «زارنا سلمان الفارسي، فخرج الناس يتلقونه كما يتلقى الخليفة. فلقيناه وهو يمشي فوقفنا نسلم عليه، ولم يبق شريف إلا سأله أن ينزل عنده. فسأل عن أبي الدرداء! فقيل: هو مرابط. فقال:

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

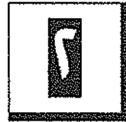
وأين مرابطكم؟ قالوا: بيروت. فتوجه قبله فلما صار إلى بيروت واجتمع بمن فيها قال سلمان: يا أهل بيروت ألا أحدثكم حديثاً يذهب عنكم غرض الرباط. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم كصيام شهر وقيامه. ومن مات مرابطاً في سبيل الله أجير من فتنة القبر وأجري له ما كان يعمل إلى يوم القيامة».

عن عبد الرحمن بن السلمي قال: إن سلمان الفارسي تزوج امرأة من كندة. فلما كان ليلة البناء عليها جلس عندها فمسح بناصيتها ودعا لها بالبركة وقال لها: أتطيعيني فيما آمرك؟ قالت: جلست مجلس من تطيع. قال: فإن خليلي ﷺ أوصاني إذا اجتمعت إلى أهلي أن أجتمع على طاعة الله. فقام وقامت إلى المسجد فصليا ما بدا لهما، ثم خرجا فقضى منها ما يقضي الرجال من النساء. فلما أصبح غدا عليه أصحابه وقالوا: كيف وجدت أهلك؟ فأعرض عنهم ثم قال: «**إنما جعل الله الستور والخدور والأبواب لتواري ما فيها. حسب امرئ منكم أن يسأل عما ظهر له، فأما ما غاب عنه فلا يسألن عن ذلك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: التحدث عن ذلك كالحمارين يتشامان في الطريق**».



أويس القرني

رضوان الله عليه





أويس القرني
رضوان الله عليه

كان أويس القرني رضوان الله عليه أحد الحواريين الأربعة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، كما في حديث الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين حواري محمد بن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وآله الذين لم ينقضوا العهد ومضوا عليه فيقف سلمان ومقداد وأبو ذر. ثم ينادي مناد أين حواري علي بن أبي طالب عليه السلام وصي محمد بن عبد الله رسول الله فيقوم عمرو بن الحمق الخزاعي، ومحمد ابن أبي بكر، وميثم بن يحيى التمار مولى بني أسد وأويس القرني». كما ذكره السيد محسن الأمين والخوئي وغيره[1].

هو أويس بن عامر بن جزء بن مالك بن عمرو بن سعد بن عصوان بن **قرن** بن ردمان بن ناجية بن **مراد** وهو يحابر بن مالك بن أدد بن مذجح. ويعرف أيضاً بأويس المرادي. هكذا نسبه ابن سعد كاتب الواقدي في الطبقات الكبير. وقبيلة القرني أو المرادي قبيلة معروفة من اليمن. ويكفي أهل اليمن فخراً أن جماعة من أنصار الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله

(١) أعيان الشيعة جزء ٣ صفحة ٥١٤، وفي رجال الكشي صفحة ٩ نقلاً عن محمد تقي الشوشتري في قاموس الرجال جزء ٢ صفحات ٢١٨ و٢١٩، والخوئي في معجم الرجال الحديث جزء ٣ صفحة ٢٤٧.

جاؤوا إلى الرسول ﷺ فقال في حقهم: «**أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوباً وأرق أفئدة. الإيمان يمان والحكمة يمانية**»[1].

وكان أويس القرني على الرغم من أنه لم ير الرسول ﷺ إلا أنه كان يؤمن به كما قال ﷺ: «**يؤمن بي ولا يراني**»[2]. وقد خدم عمه عصام القرني الذي كان في زمن النبي ﷺ قطب الأبدال كما ذكره علاء الدولة السمناني في كتابه «العروة لأهل الخلوة والجلوة» صفحة ٣٦٥. وكان حقاً داعية للإسلام بصمته وورعه واجتهاده ... كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «كونوا دعاة لنا بغير ألسنتكم ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير فإن ذلك داعية».



(١) ذكره ابن المنظور في لسان العرب جزء ١٥ صفحة ٤٦٢، وفخر الدين الطريحي في مجمع البحرين صفحة ٣٣٣، وصحيح البخاري جزء ٩ صفحة ٩٨، والمغازي صفحة ٦٤، وصحيح مسلم جزء ١ صفحة ٧٢ الحديث ٨٤ وجزء ٨٧ صفحة ٥٢ منقولة من فراء البغوي في مصابيح السنة صفحة ٢٢٧.

(٢) كما ذكر الشيخ عباس القمي في سفينة البحار جزء ١ صفحة ٥٣.

أويس
راعي الجمال

وكان أويس طوال حياته راعياً للجمال[1]، حيث كان يرعى الجمال في الصحراء وجهاً لوجه أمام الطبيعة الصامتة والفطرة الشفافة، وكانت عادته الصمت والاستماع إلى نغمات الطبيعة، يتكلم معها وتتكلم معه ويستأنس بها وتستأنس به، وكان أقرب شيء إلى الفطرة الصافية، يحب الخلوة والجلوة حباً شديداً. وهكذا كانت عبادته لله يمارسها بكلٍّ شغف.

فكان متعطشاً لكشف الحقيقة كما أن الآخرين متعطشون لقضاء حوائج دنياهم. فكانت هذه الدنيا له معبداً كما أنها تكون للناس مرتعاً لرغباتهم وشهواتهم ومشاغلهم وحوائجهم المادية وتوجهاتهم الدنيوية. وكان بعقله الكبير وروحه الواسعة يستلهم أسرار الله وآياته من الآفاق والأنفس أو من الطبيعة والفطرة، كل ذلك في صمت وتفكر وتأمل كما قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «يا هشام إن لكل شيء دليلاً ودليل العقل التفكر ودليل التفكر الصمت».

---

(١) ذكره الجويري في كشف المحجوب صفحة ١٠٠، والعطار في تذكرة الأولياء صفحة ١٩، وقاضي نور الله الشوشتري في مجالس المؤمنين جزء ١ صفحة ٢٨٣، وأبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء جزء ٢ صفحة ٨٢، وابن الجوزي في صفة الصفوة جزء ٣ صفحات ٤٦ ـ ٤٨.

فلقد تيسر له بفضل شغله كراعي الجمال الأنس مع الطبيعة. فالطبيعة لأمثاله من رجال الله ملجأ يلتجئون إليه من صخب الدنيا وضجيجها، وجامعة يدرسون فيها آيات الله، وأول شروط هذه الجامعة الصمت وحسن الاستماع. فأويس لا يمل من الطبيعة بل هو دوماً ودأباً يستأنس بجمالها وجلالها. فأويس أهل الخلوة ويعشق الخلوة ولا يمل من الخلوة شروى نقير. فرعي الجمال يعلمه رعي النفس ومراقبتها ـ وما أشبه النفس البشرية بالحيوانات! فهو يستعرض قواه النفسانية كل حين ثم يمسك بزمامها حتى لا تنفلت من قبضته، ويعودها على الجمع رويداً رويداً، حتى تنقاد وتستسلم القوى لإرادته ومن ثم يستتب الأمن والطمأنينة في مملكة النفس.

إنه يحب عمله كراعي الجمال لا ينظر إلى ساعات العمل هل انتهت أم لا، ولا ينظر إلى بدنه هل تعبت وكلت وملت أم لا. وقد دأب على هذا العمل حتى شيخوخته رغم مقامه ومنزلته العظيمة لدى المسلمين ورغم أقوال الرسول الأعظم ﷺ فيه وفي فضله. فكان في أواخر أيامه يرعى الجمال في الكوفة كما ذكر الجويري في كشف المحجوب صفحة ١٠٠: «قال أريد أن ألقاه فقالوا له إنه في الصحراء يرعى جمالنا». فكان رضوان الله عليه يتعب بدنه في شغله ويجد ويجتهد وهو مرتاح البال. فهو من تلامذة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي يقول في كتابه إلى بعض أصحابه يعظه[1]:

«أوصيك ونفسي بتقوى من لا تحل معصيته ولا يرجى غيره ولا الغنى إلا به. فإن من اتقى الله عز وقوي وشبع وروي ورفع عقله عن أهل الدنيا. فبدنه مع أهل الدنيا وقلبه وعقله معاين الآخرة. فأطفأ بضوء قلبه

(١) الكليني في كتابه «أصول الكافي» الجزء ٣ صفحات ٢٠٤ و٢٠٥.

ما أبصرت عيناه من حب الدنيا، فقذر حرامها وجانب شبهاتها وأضر والله بالحلال الصافي إلا ما لا بد له من كسرة يشدّ بها صلبه وثوب يواري به عورته من أغلظ ما يجد وأخشنه. ولم يكن له فيما لا بدّ له منه ثقة ولا رجاء، فوقعت ثقته ورجاؤه على خالق الأشياء.

فجد واجتهد وأتعب بدنه حتى بدت الأضلاع وغارت العينان، فأبدل الله له من ذلك قوة في بدنه وشدة في عقله وما ذخر له في الآخرة أكثر. فارفض الدنيا فإن حب الدنيا يعمي ويصم ويبكم ويذل الرقاب. فتدارك ما بقي من عمرك ولا تقل غداً وبعد غد، فإنما هلك من كان قبلك بإقامتهم على الأماني والتسويف حتى أتاهم أمر الله بغتة وهم غافلون. فنقلوا على أعوادهم إلى قبورهم المظلمة الضيقة وقد أسلمهم الأولاد والأهلون. **فانقطع إلى الله بقلب منيب من رفض الدنيا وعزم ليس فيه انكسار ولا انخزال.** أعاننا الله وإياك على طاعته ووفقنا الله وإياك لمرضاته».

إنه راعي الجمال يراقب الجمال حتى لا تهجم عليها الذئاب. فيتعلم كيف يراقب قواه النفسانية في كل لحظة من لحظات حياته حتى لا تهجم عليها ذئاب الهوى في ظلمات الجهل والضعف، فتقطعها إرباً إرباً وتودي بها إلى موارد التهلكة ومنزلقاتها. إن ذلك قد أصبح منهاج حياته يراقب ويحذر أن لا ينحرف هذا النهج إلى آخر نفس في هذه الحياة.

ترعرع في مدرسة الفطرة، وكان مرتاحاً إلى الصمت والاستماع والخلوة في أحضان الطبيعة والفطرة، بعيداً عن القيل والقال. فهو يزرع في أرض الفطرة بذر الكمال، ومن ثم يقطف فواكه الوصال. فهو في صمته وخلوته في نشاط لا مثيل له. فلا تعب ولا ملل، فعبادة الله تجلب الفرح والسعادة، والخلوة مع الله معين لا ينضب من الحكمة والسعادة

ينهل منها المتعطشون إلى الحقيقة. وأويس احد هؤلاء العطاشى يتذوق في نهم كؤوس المدامة من السعادة والحكم. إنه ليس وحيداً في خلوته بل هو يشكو حزنه وبثه إلى الله، ويقطف من شجرة الخلوة المقدسة فواكه التفكر والتعبد.

فكان عبداً من عباد الله الصالحين، معرضاً عن الدنيا وزخرفها ومباهجها، ومقبلاً على الخلوة مع الله في كمال الحب والعشق. فكان رضوان الله عليه يقطف ثمار الجنة من شجرة الصمت والخلوة مع الله. وبفضل التصاقه بالفطرة التي فطره الله عليها، وبحبه الشديد للمصطفى ﷺ وتلاوته للقرآن الكريم، وصل إلى مقام الكمالات.

وكان في شجرة الصمت المقدسة وخلوته مع الله تعالى يقول أشياء يا ليتنا نسمعها! ولكن بايزيد البسطامي يحقق أمنياتنا الباطنية، وينطق بها ويقولها وكأنها لسان حال أويس القرني في شجرة خلوته المقدسة:

١ - عاديت الدنيا واقتربت من الخالق واخترته على المخلوقات، واستولى حبه عليّ حتى عاديت نفسي، واختفى الكلل والملل، وأنست ببقاء لطفه وكرمه.

٢ - ذكرته بقدر ذكر الخلق كله إلى أن صار ذكري ذكره، فهاجت معرفته فيّ حتى فنيت، ثم هاجت كرة أخرى فحييت.

٣ - إلهي متى كنت معك كنت أوسع من الكل، ومتى كنت مع نفسي كنت أضيق من الكل.

٤ - إلهي فقري وفاقتي أوصلاني إليك ولطفك لم يزلهما.

٥ - أصاحب ذاك الذي إذا مرضت يشفيني، وإذا أذنبت قبل توبتي، وهو مطلع عليّ ولا يخفى عليه شيء.

٦ ـ أنا في درجة من الكمال في الرضا بحيث لو خلدوا عبداً في أعلى عليين وخلدوني في أسفل سافلين لكنت أرضى من ذلك العبد.

٧ ـ أخذوا قلبي إلى السماء وحلقوا به في الملكوت ولما رجع سألته: ماذا أتيتني به من السماء؟ قال: المحبة والرضا فهما الملكان المهيمنان على كل شيء.

٨ ـ لقد آتاني الله تعالى بفضله حظًّا عظيماً إذ وصلت إلى ما وصلت إليه. والعبد المحظوظ من يسير في الطريق فتغوص رجلاه فجأة في الكنز ويصبح مقتدراً.

٩ ـ أصمت في حبه وأستوحش من الخلق وهذا علامة معرفة الله.

١٠ ـ ابتلاني الله بحبه ولم يبخل عليّ بملكه وشغلني عن الدارين.

١١ ـ تبرأت من المال والأملاك وضحيت في حبه بالدارين وذلك شيء قليل.

١٢ ـ لا أرى في نومي غير الله ولا أنسجم ولا أتناغم إلا مع الله ولا أبوح بسري لغير الله.



والدة أويس القرني

في الوقت نفسه كان أويس يتعامل مع الدنيا أيضاً بأحسن وجه. فكان يخدم المجتمع برعيه لجمالهم، وكان يكسب الرزق الحلال من عمله ومن عرق جبينه، وينفق شيئاً يسيراً مما يكسبه على نفسه، ويصرف الباقي على والدته التي كان يحبها حبًا جمًا ويخدمها خدمة الابن البار لأمه. كانت والدته عمياء ومريضة وعاجزة، وكان أويس يجد في خدمتها نعمة كبيرة أنعمها الله عليه. وكانت والدته مؤمنة وودودة وعالمة، وقد أوصلها إخلاصها وإيمانها إلى مقام التسليم والتزكية. فكان واجباً عليه بره بأمه حتى وإن لم تكن مؤمنة. فلقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «من نظر إلى أبويه نظر ماقت وهما ظالمان له لم يقبل الله له صلاة». فكيف وأنها مؤمنة وصالحة أسلمت وجهها لله سبحانه وتعالى.

فرأى من الواجب عليه أن يستأذنها للذهاب إلى رسول الله ﷺ. فاشترطت إن قدم المدينة ولم يكن الرسول ﷺ هناك انتظره نصف يوم، وإن لم يأت عاد أدراجه إلى اليمن. فأتى إلى المدينة ولم يكن الرسول ﷺ هناك وكان قد خرج في غزوة. فانتظره نصف يوم. وحينما لم يأت الرسول ﷺ تذكر عهده لوالدته، ورجع أدراجه إلى اليمن لأن أمه كانت بحاجة إليه.

قال أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء جزء ٢ صفحة ٨٧ وأحمد بن حنبل في باب الزهد صفحة ٤١٤: «إنما منع أويساً أن يقدم على رسول الله ﷺ بره بأمه». وروى السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة جزء ٣ صفحة ٥١٤: «وروى ضمرة عن أصبغ بن زيد قال: أسلم أويس على عهد النبي ﷺ ولكن منعه من القدوم بره بأمه».

وفي سبيل خدمتها والبر بها كان أويس القرني يسيح في الصحراء يرعى جماله ولا يملك إلا قطيفة تقيه حر الشمس وبرودة الهواء وعصا يهش به جماله. وهو في الحقيقة لا يملك قطيفة ولا عصا لأن قلبه لا يتعلق بهما. هو من الذين قال عنهم الله سبحانه وتعالى[1]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾. نعم مبعدون عن نار جهنم لم يردوها. وإن وردوها فاستشرافاً وإطلالاً كي يشفع لمن يشاء، لأنه يشفع لمثل ربيعة ومضر في قول النبي ﷺ: «**أبشروا برجل من أمتي يقال له أويس القرني فإنه يشفع لمثل ربيعة ومضر**». فقلبه مشغول بوصال ربه منذ الأزل في حين أن بايزيد وصل إلى هذا المقام بعد أربعين سنة من المجاهدات والرياضات.

يقول بايزيد: «بعد رياضات أربعين سنة ومجاهداتها كشفوا لي الستار في إحدى الليالي. فبدأت بالبكاء والنحيب والصراخ كي يسمحوا لي بالدخول. فجاء النداء: لا نسمح لك ما دمت تحمل جرة وقطيفة. فرميت الجرة والقطيفة. ثم سمعت النداء: يا بايزيد قل لهؤلاء المدعين: إن بايزيد بعد أربعين سنة من الرياضات والمجاهدات حظي بمقابلتنا بعد أن رمى بعيداً جرة مكسورة وقطيفة بالية. كيف يسمح لكم وأنتم بهذه العلائق التي كبلتكم، والطريقة التي جعلتموها مصيدة هوى النفس! كلا

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

وحاشا! ليس لكم إلى وصال الرب سبيل». نعم وما أكثر من جعلوا الطريقة مصائد هوى النفس!!!

وفي سبيل خدمة هذه الأم والبر بها كان يسيح في الصحراء يرعى جماله. وفي نفس الوقت يتدبر آيات الله في الآفاق والأنفس في صمت. هو يحب الصمت ولا يحب الضجيج. يقول الرسول الأكرم ﷺ لأبي ذر الغفاري: «**يا أبا ذر أخف العبادات على البدن الصمت وحسن الخلق**». والعارف الصامت هو البحر يزخر بالدرر. يقول بايزيد: «إذا صاح المريد وأحدث الضجيج فهو الحوض، وإذا صمت فهو البحر يزخر بالدرر». وهو لا يحب الضجيج ولا القيل ولا القال، ولا اللغو ولا النقاش، لأن الضجيج والقيل والقال واللغو والنقاش خارج الستار، أما داخل الستار فكله صمت وسكوت وسكينة وهدوء وهيبة وجلال. يقول بايزيد: «هذا القيل والقال والمشاغل والضجيج والحركة والآمال كلها خارج الستار. أما داخل الستار فكله صمت وسكوت وسكينة وهدوء وهيبة وجلال». ويقول: «كل هذا اللغو والنقاش من المتفلسف لأنه عاشق نفسه، وغائب عن حضور المولى، أما إذا حصل الحضور فلا لغو ولا نقاش».



الأحاديث النبوية
في فضائل أويس القرني

وعندما رجع الرسول ﷺ إلى المدينة شاهد نوراً في بيته، واستشم رائحة فردوسية، وأحس نسيماً إلهياً يملأ البيت الطاهر. فسأل من جاء لزيارتي، فقالوا جمال يسمى أويس أودعنا تحياته لك ورجع. فقال ﷺ: «**أجد نفس الرحمن من جانب اليمن**»، كما ذكره القاضي نور الله الشوشتري في كتابه مجالس المؤمنين جزء ١ صفحة ٢٨٣.

وفي رواية أخرى: «**إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن**»، كما ذكره الجويري في كشف المحجوب صفحة ١٠١ والعطار في تذكرة الأولياء جزء ١ صفحة ٢٦.

وفي رواية أخرى: «**أجد نفس ربكم من قبل اليمن**»، كما ذكره أحمد بن حنبل في مسنده جزء ٢ صفحة ٥٤١.

وفي رواية أخرى: «**إني لأنشق روح الرحمن من طرف اليمن**»، كما ذكره سيد حيدر الآملي في جامع الأسرار ومنبع الأنوار صفحة ٢٦.

وفي رواية أخرى: «**تفوح روائح الجنة من قبل القرن واشوقاه إليك يا أويس القرن**»، كما ذكره المجلسي في بحار الأنوار جزء ٩ صفحة ٦٣٧ وعباس القمي في منتهى الآمال جزء ١ صفحة ١٤٢.

وذكر الشيخ عباس القمي في سفينة البحار جزء ١ صفحة ٥٣: **«تفوح روائح الجنة من قبل القرن واشوقاه إليك يا أويس القرن ألا ومن لقيه فليقرأه مني السلام»**.

وفي رواية أخرى: **«إني لأستنشق روح الرحمن من جانب اليمن»**، كما ذكره محمد علي مدرس في ريحانة الأدب جزء ٤ صفحة ٤٤٤.

وفي رواية أخرى: **«إني أشم رائحة الرحمن من قبل اليمن»**، كما ذكره سعيد النفيسي في كتابه منبع التصوف في إيران صفحة ١٨٩.

وفي رواية أخرى: **«إني أجد الرحمن من قبل اليمن»**، كما ذكره كمال الدين حسين الخوارزمي في جواهر الأسرار جزء ١ صفحة ٤٦.

أليس الرسول المصطفى ﷺ هو رحمة للعالمين؟ ومن يجد نسيم الرحمة إلا الرحمة! ومن يشاهد النور إلا النور! ومن يستشم رائحة الرحمن ومن يجد نفس الرحمن ومن ينشق روح الرحمن ومن يستنشق روائح الجنة إلا من هو رحمة للعالمين!

وقال ﷺ: **«أبشروا برجل من أمتي يقال له أويس القرني فإنه يشفع لمثل ربيعة ومضر»**، كما ذكره الخوئي في معجم الرجال الحديث جزء ٣ صفحة ٢٤٥، والشيخ الطوسي في اختيار معرفة الرجال صفحة ٩٩ والحاكم النيسابوري في المستدرك جزء ٣ صفحات ٤٠٥ و٤٠٨ والمجلسي في بحار الأنوار جزء ٤٢ صفحة ١٥٦.

وكان ﷺ قد تنبأ بأن عمر سيدركه لأنه في تعقيب هذا الحديث خاطبه قائلاً: «يا عمر إن أنت أدركته فاقرأه مني السلام».

وقال سيد حيدر الآملي في جامع الأسرار ومنبع الأنوار صفحة ٢٦: «وقد سأله سلمان عن هذا الشخص فقال ﷺ له: **«إن باليمن لشخصاً يقال**

له أويس القرني يحشر يوم القيامة أمة وحده يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر ألا من رآه منكم فليقرأه عني السلام وليأمره أن يدعو لي».

وفي رواية الجويري: «**يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر من أمتي ألا من رآه منكم فليقرأه عني السلام وليأمره أن يدعو لأمتي**».

وقال ﷺ عن أويس القرني: «**يؤمن بي ولا يراني**»، كما ذكره الشيخ حر العاملي ومحمد باقر المجلسي.

وقال ﷺ: «... **فمن لقيه منكم فمروه فليستغفر لكم**»، كما ذكره السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة جزء ٣ صفحات ٥١٤ و٥١٥، وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان جزء ١ صفحة ٥٢٩، وفي الإصابة في تمييز الصحابة صفحة ١١٩، وابن كثير في البداية والنهاية جزء ٦ صفحة ٢٠٢، وصحيح مسلم جزء ٤ صفحة ١٩٦٨، وفراء البغوي في مصابيح السنة صفحة ٣٢٦، وأحمد بن حنبل في مسنده جزء ١ صفحة ٣٨.

وقال ﷺ: «**فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**»، كما ذكره ابن الأثير في أسد الغابة جزء ١ صفحة ١٥٣ وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان جزء ١ صفحة ٥٢٩.

وقال ﷺ: «**خليلي من هذه الأمة أويس القرني**»، كما ذكره ابن سعد في الطبقات، وسيد محسن الأمين في أعيان الشيعة جزء ٣ صفحة ٥١٤.

وما أعظم هذه العبارات تترقرق من فم طاهر ولسان أطهر الناس وأزكاهم في فضل أويس القرني الذي لم يشاهد شخصه قطّ! وكان الناس يتساءلون حتى في ذلك الزمان كيف أن شخصاً لم يره رسول الله ﷺ يقول في فضله كل هذه الأحاديث الشريفة!

وروي أن رجلاً سأل أم أويس: «من أين لابنك هذه الحالة العظيمة التي قدمه النبي بها مدحاً لم يمدح به أحداً من أصحابه هذا ولم يره النبي ﷺ؟» فقالت: «إنه من حيث بلغ اعتزلنا وكان يأخذ في الفكر والاعتبار»، كما ذكره الديلمي في إرشاد القلوب صفحة ١٠٠.

وقال ﷺ: «**إن من بعدي رجل يقال له أويس به شامة بيضاء من لقيه فليبلغه مني السلام فإنه يشفع يوم القيامة لكذا وكذا من الناس**»، كما ذكره القاضي النعمان بن محمد التميمي المغربي في شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار جزء ٢ صفحة ٣٥.

وذكر أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء جزء ٢ صفحات ٨١ و٨٢، والسيد محسن الأمين في أعيان الشيعة جزء ٣ صفحة ٥١٣ في حديث لرسول الله ﷺ يصف فيه الأصفياء الأخفياء الأبرياء. قالوا يا رسول الله كيف لنا برجل منهم؟ قال: «**ذاك أويس القرني**». قالوا وما أويس القرني؟ قال: «**أشهل ذو صهوبة بعيد ما بين المنكبين معتدل القامة آدم شديد الأدمة ضارب بذقنه إلى صدره رام بذقنه إلى موضع سجوده ... يتلو القرآن يبكي على نفسه ذو طمرين ... مجهول في أهل الأرض معروف في السماء، لو أقسم على الله لأبر قسمه، ألا وإن تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء، ألا وإنه إذا كان يوم القيامة قيل للعباد ادخلوا الجنة ويقال لأويس قف فاشفع فيشفعه الله ﷻ في مثل عدد ربيعة ومضر**».

وقال رسول الله ﷺ: «**إن رجلاً يأتيكم من اليمن يقال له أويس لا يدع باليمن غير أم له وقد كان به بياض فدعا الله فأذهبه إلا مثل موضع الدينار أو الدرهم. فمن لقيه منكم فأمروه فليستغفر لكم**»، كما ذكره أحمد بن حنبل في الزهد صفحة ٤١٢، وصحيح مسلم جزء ٤ صفحة

١٩٦٨ باب فضائل أويس (٥٥) الحديث ٢٢٣/٢٥٤٢ نقلاً عن فراء البغوي في مصابيح السنة صفحة ٢٢٦.

وقال ﷺ: «**إن خير التابعين رجل يقال له أويس**»، كما ذكره أحمد بن حنبل في مسنده جزء ١ صفحة ٣٨ وجزء ٣ صفحة ٤٨ والخوئي في معجم الرجال الحديث جزء ٣ صفحة ٢٤٥، والشيخ الطوسي في اختيار معرفة الرجال صفحات ٩٨ و١٠٠، وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان جزء ١ صفحة ٥٢٨، وصحيح مسلم في فضائل الصحابة صفحة ٢٢٤، والسيد محسن الأمين في أعيان الشيعة جزء ٣ صفحات ٥١٥ و٥١٦، وابن الجوزي في صفة الصفوة جزء ٣ صفحة ٥٦، والحاكم النيسابوري في المستدرك جزء ٣ صفحة ٤٠٤، وكمال الدين حسين الخوارزمي في جواهر الأسرار جزء ١ صفحة ٤٦.

وذكر ابن الأثير في أسد الغابة جزء ١ صفحة ١٥٣، وابن حجر العسقلاني في الزهد صفحة ،٤١٦ وابن الجوزي في صفة الصفوة جزء ٣ صفحات ٤٣ و٤٤ عن أسير بن جابر قال: «كان عمر بن الخطاب إذا أتى أمداد اليمن سألهم: «أفيكم أويس بن عامر؟»، حتى أتى على أويس فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم. قال: من مراد ثم من قرن؟ قال: نعم. قال: كان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**». فاستغفر لي. فاستغفر له. فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحب إلي.

والعبارات فوق الذكر مع بعض التعديلات ذكرها السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة جزء ٣ صفحة ٥١٥، وأحمد بن حنبل في مسنده جزء ١ صفحة ٣٨، والحاكم النيسابوري في المستدرك جزء ٣ صفحة ٤٠٤، وأبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء جزء ٢ صفحات ٧٩ و٨٠ وابن حجر العسقلاني في الزهد صفحة ٤١٣.



شهادة أويس القرني في صفين

وقال العلامة المجلسي في بحار الأنوار جزء ٤٢ صفحة ١٤٧ نقلاً من كتاب الإرشاد للشيخ المفيد: قال أمير المؤمنين علي عليه السلام وهو بذي قار جالس لأخذ البيعة: «يأتيكم من قبل الكوفة ألف رجل لا يزيدون رجلاً ولا ينقصون رجلاً! يبايعونني على الموت». قال ابن عباس: فجعلت أحسبهم فسويت عددهم تسعمائة وتسعة وتسعين رجلاً ثم انقطع مجيء القوم. فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون! ماذا حمله على ما قال!

فبينا أنا متفكر في ذلك إذ رأيت شخصاً قد أقبل حتى دنا وإذا هو رجل عليه قباء صوف معه سيفه وترسه وأدواته! فقرب من أمير المؤمنين عليه السلام وقال: امدد يدك لأبايعك. فقال: على ما تبايعني؟ قال: «على السمع والطاعة والقتال بين يديك حتى أموت أو يفتح الله عليك». فقال له: ما اسمك؟ قال: أويس. قال عليه السلام: أنت أويس القرني؟ قال: نعم.

قال: «**الله أكبر! أخبرني حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله إني أدرك رجلاً من أمته يقال له أويس القرني يكون من حزب الله ورسوله يموت على الشهادة يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر**». قال ابن عباس: فسري عنا. وذكر ذلك باختصار الشيخ حر العاملي في إثبات الهداة جزء ١ صفحة ٣٧٠.

وقال ابن الجوزي في صفة الصفوة جزء ٣ صفحة ٥٦، والخوئي في معجم الرجال الحديث جزء ٣ صفحة ٥١٣، والشيخ الطوسي في اختيار معرفة الرجال صفحة ١٠٠ عن يعقوب بن شيبة عن علي بن الحكيم الأودي عن شريك عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «لما كان يوم صفين خرج رجل من الشام على دابته قال: أفيكم أويس؟ قلنا: نعم ما تريد منه؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أويس القرني خير التابعين بإحسان**». قال: فعطف دابته فدخل مع علي عليه السلام». وقال السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة جزء ٣ صفحة ٥١٢ إن أويساً كان يناجي ربه: «اللهم ارزقني شهادة توجب لي الجنة والرزق».

قال الكشي[1]: قتل بصفين في الرجالة مع علي بن أبي طالب عليه السلام، وروى بسنده من طريق العامة عن شريك: قتل أويس مع علي عليه السلام في الرجالة بصفين. وفي تاريخ دمشق لابن عساكر: في مقال لسعيد بن المسيب: إن أويساً قاتل بين يدي علي يوم صفين حتى استشهد أمامه فنظروا فإذا به نيف وأربعون جراحة من طعنة وضربة ورمية. وفي المستدرك للحاكم: ذكرته في جملة من استشهد بصفين بين يدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. سمعت أبا العباس محمد بن يعقوب يقول: سمعت العباس بن محمد الدوري يقول: قتل أويس القرني بين يدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يوم صفين. وبسنده عن شريك قال: وذكروا في مجلسه أويس القرني فقال: قتل مع علي بن أبي طالب في الرجالة.

ويأتي عند ذكر شهوده صفين رواية الكشي: أنه لم يزل يقاتل بين

(١) كتاب اختيار معرفة الرجال للشيخ الطوسي المعروف برجال الكشي.

يدي أمير المؤمنين عليه السلام حتى قتل فوجد في الرجالة. ورواية الحاكم: أنه ما زال يحارب بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام بصفين حتى قتل. وروايته الأخرى أنه استشهد أويس في الرجالة بين يدي علي بن أبي طالب. وروى نصر بن مزاحم في كتاب صفين عن حفص بن عمران البرجمي عن عطاء بن السائب عن أبي البختري قال: أصيب أويس القرني مع علي بصفين.

وفي ميزان الاعتدال بسنده عن زيد بن علي: قتل أويس يوم صفين. وفيه بسنده عن سعيد بن المسيب في حديث: إنه لما شهر[1] هام على وجهه، فلم يوقف له على أثر دهراً، ثم عاد في أيام علي فقاتل بين يديه فاستشهد بصفين. فنظروا فإذا عليه نيف وأربعون جراحة. وفي خلاصة تذهيب الكمال: شهد صفين مع علي وقتل يومئذٍ.

وفي الإصابة في ذيل حديث أسير أن أويساً قال: «اللهم ارزقني شهادة توجب لي الجنة والرزق». قال أسير: فلم يلبث إلا يسيراً حتى ضرب على الناس بعث علي، فخرج صاحب القطيفة أويس وخرجنا معه حتى نزلنا بحضرة العدو. قال ابن المبارك: فحدثني حماد بن سلمة عن الجريري عن أبي نضرة عن أسير قال: فنادى منادي علي: يا خيل الله اركبي وابشري. فصف الناس لهم فانتضى أويس سيفه حتى كسر جفنه فألقاه ثم جعل يقول: «يا أيها الناس تموا تموا ليتمن وجوه ثم لا ينصرف حتى يرى الجنة». فجعل يقول ذلك ويمشي إذ جاءته رمية فأصابت فؤاده فتردى مكانه كإنما مات منذ ...

وفي مناقب ابن شهر آشوب عند ذكر حرب صفين: وأتى أويس

(١) اشتهر.

القرني متقلداً بسيفين ويقال كان معه مرماة ومخلاة من الحصى، فسلم على أمير المؤمنين وودعه وبرز مع رجالة ربيعة، فقتل من يومه فصلى عليه أمير المؤمنين عليه السلام ودفنه.



أويس
نفس الرحمن وروحه ونسيمه العطر

قال السيد حيدر الآملي في كتابه جامع الأسرار ومنبع الأنوار صفحة ٢٦: «ولجلالة قدر أويس القرني - رحمة الله عليه - أيضاً لاطلاعه على أسرار الله تعالى كشفاً وذوقاً، قال رسول الله ﷺ في حقه حين كان يستنشق من طرف اليمن روائح أنفاسه الشريفة من حيث الباطن أو الظاهر: «**إني لأنشق روح الرحمن من طرف اليمن**».

وكان السيد حيدر الآملي نفسه من عرفاء القرن الثامن، ويعرف جلالة مقام أويس العرفاني واطلاعه على الأسرار الإلهية، الذي حصل عليها عن طريق الكشف والشهود، واستحق بذلك هذا الوسام النوراني من محمد المصطفى ﷺ نور الوجود وسيد الكائنات جميعاً.

فكان أويس (قدس سره) من أفقه الناس وأورعهم **وأكتمهم للأسرار إلا لمن استحقها**، كما قال الإمام الباقر عليه السلام: «**والله إن أحب أصحابي إليّ أورعهم وأفقهم وأكتمهم لحديثنا**»(١). وكما قال المصطفى ﷺ: «**لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم**».

وعندما رجع الرسول ﷺ إلى المدينة شاهد نوراً في بيته واستشم

---

(١) أصول الكافي للكليني جزء ٣ صفحة ٣١٧.

رائحة فردوسية وأحس نسيماً إلهياً فسأل من جاء لزيارتي، فقالوا جمال يسمى أويس أودعنا تحياته لك ورجع. فقال ﷺ في روايات مختلفة بترتيب الأرقام التالية:

١ - **أجد نفس الرحمن من جانب اليمن[١].**

٢ - **إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن[٢]**

٣ - **أجد نفس ربكم من قبل اليمن[٣].**

٤ - **إني لأنشق روح الرحمن من طرف اليمن[٤].**

٥ - **تفوح روائح الجنة من قبل القرن واشوقاه إليك يا أويس القرن[٥].**

٦ - **تفوح روائح الجنة من قبل القرن واشوقاه إليك يا أويس القرن ألا ومن لقيه فليقرأه مني السلام»[٦].**

٧ - **إني لأستنشق روح الرحمن من جانب اليمن[٧].**

٨ - **إني أشم رائحة الرحمن من قبل اليمن[٨].**

---

(١) القاضي نور الله الشوشتري في كتابه مجالس المؤمنين جزء ١ صفحة ٢٨٣.
(٢) الجويري في كشف المحجوب صفحة ١٠١، والعطار في تذكرة الأولياء جزء ١ صفحة ٢٦.
(٣) أحمد بن حنبل في مسنده جزء ٢ صفحة ٥٤١.
(٤) سيد حيدر الآملي في جامع الأسرار ومنبع الأنوار صفحة ٢٦.
(٥) المجلسي في بحار الأنوار جزء ٩ صفحة ٦٣٧، وعباس القمي في منتهى الآمال جزء ١ صفحة ١٤٢.
(٦) الشيخ عباس القمي في سفينة البحار جزء ١ صفحة ٥٣.
(٧) محمد علي مدرس في ريحانة الأدب جزء ٤ صفحة ٤٤٤.
(٨) سعيد النفيسي في كتابه منبع التصوف في إيران صفحة ١٨٩.

٩ ـ إني أجد الرحمن من قبل اليمن[١].

ونفس الرحمن وروحه قد استكانت له نفسه أية استكانة إلى حدّ أن نفسه كانت تحمله إلى الله وهي ضاحكة مستبشرة ـ المقام الذي وصل إليه بايزيد البسطامي (قدس سره) بعد عمر طويل من الجهاد والكفاح مع نفسه حيث يقول: «كنت أسحب نفسي إلى بلاط الملك الحق المبين مدة طويلة وهي باكية. وحينما وصلني المدد من الله تعالى كانت نفسي تحملني إليه وهي ضاحكة فرحة».



(١) كمال الدين حسين الخوارزمي في جواهر الأسرار جزء ١ صفحة ٤٦.

أويس العارف
وحواري عليّ عليه السلام

وكان أويس القرني حواري الإمام علي عليه السلام كما في حديث الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين حواري محمد بن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وآله الذين لم ينقضوا العهد ومضوا عليه فيقف سلمان ومقداد وأبو ذر. ثم ينادي مناد أين حواري علي بن أبي طالب عليه السلام وصي محمد بن عبد الله رسول الله فيقوم عمرو بن الحمق الخزاعي، ومحمد بن أبي بكر، وميثم بن يحيى التمار مولى بني أسد وأويس القرني». كما ذكره السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة جزء ٣ صفحة ٥١٤، وفي رجال الكشي صفحة ٩ نقلاً عن محمد تقي الشوشتري في قاموس الرجال جزء ٢ صفحات ٢١٨ و٢١٩ والخوئي في معجم الرجال الحديث جزء ٣ صفحة ٢٤٧.

وكان أويس صاحب سر مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام ومهبط الأنوار العلوية وتحت تعليمات الإمام وتربيته. وكان قد طور روحه وقلبه إلى مرتبة السر بجهاده ورياضاته المستمرة. وقد روى الحديث عن الإمام عليه السلام. وعلمه الإمام عليه السلام أدعية كما ذكره السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة جزء ٣ صفحة ٥١٤. وقد ذكر مدرس رضوي في تعليقات حديقة الحقيقة صفحة ٨٣ هذا الحديث: عن أويس القرني عن علي بن

أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة غير واحد، ما من يدعو بهذه إلا وجبت له الجنة إنه وتر يحب الوتر، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام ـ إلى قوله ـ الرشيد الصبور**».

وجاء في الصحيفة العلوية[1] هذان الدعاءان اللذان علمهما إياه الإمام عليه السلام: «وكان من دعائه عليه السلام في الثناء على الله مما علمه أويساً: يا سلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الطاهر المطهر القادر القاهر المقتدر...».

وأيضاً: «وكان من دعائه عليه السلام في الثناء على الله مما علمه أويساً: بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني أسألك ولا أسأل غيرك، وأرغب إليك ولا أرغب إلى غيرك، أسألك يا أمان الخائفين وجار المستجيرين أنت الفتاح ذو الخيرات مقيل العثرات وماحي السيئات وكاتب الحسنات ورافع الدرجات».

أويس حواري علي عليه السلام أراد أن يكون كما أراد له مربيه زاهداً يعلو على المشقات ومصائب الدنيا، كما قال مولانا علي عليه السلام: «ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات»[2].

أما أويس العارف فهو في جد واجتهاد لعمارة باطنه لا ظاهره. فهو لا يأبه بظاهره وملبسه إلا بقدر الكفاف. أويس في جد واجتهاد لعمارة ما بينه وبين ربه لا لعمارة ما بينه وبين الناس. فهو يستأنس بربه ويستوحش من خلقه، أو كما يقول أبو فراس الهمداني:

---

(١) تأليف عبد الله بن صالح السماهيجي صفحات ٢٧ و٢٩.

(٢) الكليني في أصول الكافي جزء ٣ صفحة ٨٣.

وليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
ويا ليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب



فأويس يستوحش من الخلق، ولا مؤنس له إلا هو، كما يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «أنت المؤنس لي حيث أوحشتني العوالم». وهو يستأنس بربه إلى حدّ الوصال ولا يفرح بشيء إلا بوصاله تعالى كما يقول بايزيد البسطامي: «العارف لا يفرح إلا بالوصال». ولله در ابن الفارض حيث يقول عن الوصال:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... سر أرق من النسيم إذا سرى



أويس العارف كان يحمل ثقل الحق، وكان مروضاً بالمجاهدة ومدللاً بالمشاهدة والكشف الرباني، ولذا أوحشته الخلائق وما استأنس إلا به تعالى. يقول بايزيد: «**ثقل الحق لا يحمله إلا أهله، فهم مروضون بالمجاهدة ومدللون بالمشاهدة**». أليس عجيباً أن عبداً عاجزاً ضعيفاً مسكيناً مستكيناً محتاجاً مدقعاً يحبه الله هذا الحب العظيم، وهو الملك المستغني عن الخلائق وعن العوالم! يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: «**رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره**». ويقول بايزيد وكأنه ينطق على لسان أويس القرني: «إلهي لا أعجب من حبي لك وأنا عبد عاجز ضعيف محتاج. بل أعجب من حبك لي وأنت الله الملك المستغني».

أويس العارف كان خفيفاً من أحمال الدنيا لا يحمل في قلبه أثقال الطلبات والأغراض الدنيوية كما قال الإمام علي عليه السلام: «فاز المخفون». وكما قال سلمان الفارسي رضي الله عنه لسعد بن أبي وقاص حين زاره في مرضه

الأخير بالمدائن: «اذكر الله عند همك إذا هممت وعند لسانك إذا حكمت وعند يدك إذا قسمت». فجعل سلمان يبكي، فقال له سعد: «يا أبا عبد الله ما يبكيك؟». قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن في الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون»**.

والناس على عكس ذلك حمالون يمشون في الأسواق، يحملون على أكتافهم صناديق الذهب والفضة وأطنانا من زينة الدنيا وزخرفها، يتباهون بها ويتفاخرون، في حين أن هذه الصناديق لغيرهم لا لهم وهم لا يشعرون. أما التي هي لهم وتبقى معهم إلى الأبد، وهي الباقيات الصالحات وزاد الآخرة وعمارة باطنهم وما بينهم وبين ربهم، فهم لا يعبئون بها. وكل همهم وغمهم في أشياء ليست لهم ولا تبقى معهم.

أما التي هي لهم وتبقى معهم إلى الأبد فهي الحكمة التي هي ضالة المؤمن يثبتها الله في قلب من يحب. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه». فهي لا تأتي إلا عن طريق الزهد. فما أقل الطالبون للزهد والحكمة! وأكثر الكادحون في الدنيا لمتاع الدنيا وزينتها وزخرفها، لا يبقى لهم شيء منها إلا التبعات الثقال والحساب والكتاب والمسائلة والميزان وحمل المسئولية الكبرى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾(1).

أويس العارف كان يسيح في البراري والقفار مركزاً على الدوام على قلبه، كما في قولته الشهيرة: «عليك بقلبك». كان من عباد الله ولم يتعلق قلبه بغير الله، كما يقول بايزيد: «رجال الله عباد لم تتعلق قلوبهم بغير الله». كان درويشاً بحق حاضراً في كنز قلبه ورجلاه تغوصان في الكنز، وقد اكتشف في هذا الكنز جوهرة اسمها العشق والمحبة. يقول

---

(1) سورة الصافات، الآية: ٢٤.

بايزيد: «من كان حاضراً في كنز قلبه وإذا برجليه تغوصان في الكنز، وهذا هو سيماء الآخرة. ثم يجد في ذلك الكنز جوهرة اسمها المحبة. فمن وصل إلى تلك الجوهرة فهو الدرويش». قلبه في حظائر القدس وفي الليل على وسادة عوالم الأنس. يقول بايزيد: «العارف ذاك الذي يأكل معك ويهرب منك ويشتري منك ويبيع لك، ولكن قلبه في حظائر القدس وفي الليل على وسادة عوالم الأنس».

يتلقى إلهامه على خطرات قلبه وتنكشف له عوالم الغيب. ويحظى بحالة أو مقام أو مزاج هو مزاج الله وصبغته، ومن أحسن من الله صبغة، لا يستطيع الخلق كشفها ويكل اللسان عن وصفها. يقول بايزيد البسطامي (قدس سره): «إلهي أدلني[1] حتى أصل منك إليك. إلهي ما أحسن إلهامك على خطرات قلبي، وما أحلى أسلوبك في إفهامي عوالم الغيب، وما أعظم الحالة التي تهبها لي، لا يستطيع الخلق كشفها ويكل اللسان عن وصفها، وهذه القصة لا نهاية لها».



(١) تكرم علي بالدلال عليك.

أويس الجواد المتواضع

يقول المصطفى ﷺ: **«إن من أمتي من لا يستطيع أن يأتي مسجده أو مصلاه من العري، يحجزه إيمانه أن يسأل الناس. منهم أويس القرني وفرات بن حيان»** .ذكره أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء جزء ٢ صفحة ٨٤. ويقول في نفس الصفحة، وابن الجوزي في صفة الصفوة جزء ٣ صفحة ٥٤، وأحمد بن حنبل في الزهد صفحة ٤١٥: **«إن كان أويس القرني ليتصدق بثيابه حتى يجلس عرياناً لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة»**.

وكان في الكوفة يحدث الناس بحقائق القرآن ودقائق العرفان ولطائف الإيمان. يقول أسير بن جابر: «كان في الكوفة رجل إذا حدث يقع حديثه في قلوبنا موقعاً ما يقع حديث غيره. فانقطع عنا فسألت عنه. فقال أحدهم: أعرفه إنه أويس القرني. فقلت هل تعرف داره؟ قال: بلى. فأخذني إلى داره. فسألته: لماذا اخترت التباعد عنا؟ فقال أويس: لأني لا أملك القطيفة. فقلت له: البس هذه الجبة. فقال: لا تهبني جبتك لأن الناس سوف يستهزئون بي إن رأوني ألبس هذه الجبة الفاخرة. فأصررت عليه إصراراً شديداً حتى قبل. وعندما خرجنا قال بعضهم: من الذي احتلت عليه حتى أخذت جبته؟ فقال لي أويس: أما ترى ماذا يقولون؟ فرافقته إلى المسجد وقلت للناس: لماذا تؤذون هذا الرجل؟ ولمتهم

وأنبتهم على أفعالهم وسلوكهم تجاه أويس». ذكر ذلك ابن الجوزي[1]، وأبو نعيم الأصفهاني[2]، وابن الأثير[3]، والحاكم النيسابوري[4] وأحمد بن حنبل[5] وغيرهم.

كان قمة في الجود والتواضع. جوده كجود البحار وتواضعه كتواضع الأرض. فنظرة إلى تصرفاته في الكوفة في رواية أسير بن جابر تدلك على جوده الفياض وتواضعه العظيم. فهو يتصدق بثيابه حتى يجلس عرياناً لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة. ويذكرني هذا بجود عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم أفضل الصلاة والسلام حين تصدقوا ثلاثة أيام متتاليات بإفطارهم على مسكين ويتيم وأسير. وبقوا جياعاً ثلاثة أيام حتى بدت أضلاعهم من تحت جلودهم من كثرة الجوع. وقد نزلت في حقهم سورة الإنسان كلها منها: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾.

ورغم عظم مقامه وأحاديث الرسول ﷺ في فضائله فإنه لا ينطق ببنت شفة حين يقول له الرجل: «من الذي احتلت عليه حتى أخذت جبته؟»، تواضعاً كتواضع الأرض حين تدوسها الخلائق تحت أقدامها وهي لا تقول لهم أف. وحين يسأله عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها. يجيبه بكل تواضع: «أكون في غبراء الناس أحب إليّ»، تواضعاً وفراراً من الشهرة ومدح الناس وثنائهم. بل إنه يجد في الشهرة هلاكه حين يقول لعمر: «لقد أشهرتني وأهلكتني». يقول بايزيد

(١) في صفة الصفوة جزء ٣ صفحة ٥٢.
(٢) في حلية الأولياء جزء ٢ صفحة ٧٩.
(٣) في أسد الغابة جزء ١ صفحة ١٥١.
(٤) في المستدرك جزء ٣ صفحة ٤٠٤.
(٥) في الزهد صفحة ٤١١.

البسطامي: «علامة حب الله ثلاثة خصال: جود كجود البحار، وشفقة كشفقة الشمس، وتواضع كتواضع الأرض». ويقول غاندي: «لا أجد الحقيقة إلا حينما أتواضع حتى ألتصق بالأرض». ويقول المسيح عليه السلام: «المتواضعون يشاهدون الله».

وحينما سألوا بايزيد كيف نصل إلى الله أجاب: «إن اختفت نفسك عن الطريق وصلت إلى الله». والتواضع هو في الحقيقة اختفاء النفس وإمبراطوريتها! ويقول بايزيد عن أولياء الله المتواضعين المغمورين الذين هم أعيانهم مفقودة حتى لا تكاد ترى: «يروون أن إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم قالوا: إلهنا اجعلنا من أمة محمد ﷺ. أتظنون أنهم تمنوا الدخول في أمة عسعست فيها الظلمات وكثر فيها محبوا العلو والجاه والرئاسة؟ كلا وحاشا! بل وجدوا في هذه الأمة رجالاً أقدامهم تحت الثرى، ورؤوسهم تجاوزت أعلى عليين، وهم على الأرض متواضعون مغمورون أعيونهم مفقودة لا تكاد ترى».

وكيف لا يتواضع من يجد نفسه أخبث النفوس! يقول بايزيد البسطامي: «**من أعجب بإخلاصه وعبادته، وتباهى بصفاء كشفه ومشاهداته، ولم يجد نفسه أخبث النفوس، لا يعد من الواصلين**». وما أكثر السالكين الذين أعجبوا بعباداتهم وتباهوا بصفاء كشفهم ومشاهداتهم! يتساقطون من فوق الصراط ولا يصلون إلى الله البتة، لأنه من المحال أن يصلوا إلى الله رغم ادعاءاتهم، إذ إنهم يحملون معهم بذور العجب والتكبر والكبر، والتفاخر والتباهي والفخر، وهي من كبريات المعاصي. يقول بايزيد في حقيقة الكبر والتكبر: «المتكبر لا يرى الخبث إلا في غيره». ويقول: «المتكبر لا يشم رائحة المعرفة». فيا ترى كيف يصل هؤلاء السالكون إلى المعرفة مع كل هذا العجب والتباهي! وليس كل من سلك وصل!

وكيف لا يتواضع من يعرف عيبه ويضعه ليل نهار نصب عينيه! سألوا بايزيد متى يبلغ العبد درجة الكمال؟ فقال (قدس سره): «حين يعرف عيبه ويتسامى بهمته عن الخلق. بعد ذلك يقربه الله إليه على قدر همته وبعده عن نفسه».

وتحضرني الآن قصة النبي موسى الكليم[1] عليه وعلى محمد وآله السلام. ستعرف ما هو معنى التواضع في هذه القصة.

روي أن الله ﷻ كلم موسى بن عمران في إحدى ليالي مناجاته مع الله وقال له: إذا أصبح الصباح يوم غد أن يطوف المدينة طولاً وعرضاً باحثاً عن كائن يكون أوضع وأحقر منه. فلما أصبح الصباح خرج موسى يغذ السير ويجد ويكدح في بحثه، عله يقع على كائن ما يكون أوضع وأحقر منه. فلما دخل السوق رأى الناس في تجارتهم منغمسين في الدنيا. فأراد أن يمسك بواحد منهم ويجره إلى الله، ولكنه تنبه من غفلته يؤنبه ضميره قائلا له: ما أدراك عله عند الله وجيه وأنت لا تدري! ثم تحول إلى الثاني والثالث وهكذا دواليك، وفي كل حالة يستيقظ من سباته يؤنبه ضميره قائلاً له: عله أحسن منك وأنت لا تدري، وأوجه منك عند الله تعالى وأنت تجهل ذلك!

فقضى اليوم كله في البحث والتنقيب حتى تعب. فلما صار المساء وقرب وقت غروب الشمس وبدت ألوان الشفق على شاشة السماء عاد أدراجه إلى الله تعباً منهكاً. ولكنه في الطريق لقي كلباً عقوراً مريضاً وسخاً هزيلاً نحيلاً تبدو أسنانه. ففرح موسى قائلاً: الآن عثرت على بغيتي. وأراد أن يجر الكلب إلى ربه. فاستيقظ من غفلته يؤنبه ضميره

(١) روت لي هذه القصة زوجة وحرم العارف الكبير عمي السيد حسن المسقطي نقلاً عنه.

قائلاً: ما أدراك عل هذا الكلب العقور خير منك يا موسى! فرجع إلى ربه ليلاً خالي الوفاض يقص عليه قصته في ذلك اليوم. فخاطبه الله: **يا موسى لو أتيتني بذلك الكلب العقور ظاناً أنك أحسن منه، وأنه أحقر وأوضع منك، لخلعتك من النبوة!!!**

وهذا والله هو تواضع الأنبياء والأوصياء والأئمة والشهداء والصديقين والأولياء والعرفاء وعباد الله الصالحين. يرون أنفسهم أخبث النفوس! لا يتواضعون رياءً ومداهنة، ولكنهم صادقون في تواضعهم ومعرفتهم بأن الله تعالى خلق الكائنات وبرمج في كل كائن وظيفته التي يقوم بها. وأن الأفضل هو الله وأن الأحسن هو الله وأن الكائنات جميعاً عبيد الله. يقول بايزيد البسطامي (قدّس سرّه): «المتواضع يرى نفسه أخبث النفوس، والمتكبر لا يرى الخبث إلا في غيره». فيا ترى هل رأيت في الناس متواضعاً بهذا المعنى: أن يرى نفسه أخبث النفوس! أو أن أكثرهم متكبرون يرون الخبث في غيرهم، ولكنهم يتظاهرون بالتواضع ويداهنون ويراؤون!

وما قصة بايزيد البسطامي عن قصة موسى الكليم ببعيد! كان بايزيد يوماً من الأيام يمشي مع أصحابه في أزقة بسطام، وأراد أن يجتاز زقاقاً ضيقاً. فرأى كلباً يدخل الزقاق. فتراجع الشيخ وآثر أن يفسح الطريق للكلب. فخطر على بال أحد المريدين: كيف يؤثر الشيخ الكلب على نفسه وعلى المريدين الصادقين الذين يتبعونه، وقد كرم الله الإنسان، والشيخ هو سلطان العارفين؟ فقال لهم الشيخ: «يا أعزتي! لقد قال لي الكلب بلسان حاله: «أي بايزيد ما هو تقصيري وما هو فضلك في سبق السبق أن ألبسوني جلد الكلب، وألبسوك خرقة سلطان العارفين؟». فاستحييت منه وآثرته على نفسي».

وروي أنه كان يمشي، وصادف أن كلباً كان بجانبه، فسحب طرف ثوبه لئلا يمس الكلب. فقال له الكلب: «إن كنت جافاً فلا جفوة بيننا، وإن كنت مبتلاً أصلح بيني وبينك الماء والتراب سبعاً. أما أن تضم طرف ثوبك عني، فإن غسلك في البحار السبعة لا يطهرك». فقال بايزيد: «نجاستك في الظاهر وخبثي وقذارتي في الباطن، تعال نجمعهما لعل الطهارة تبرز في الجمع». فقال له الكلب: «لا أستحق صحبتك لأني مطرود من الناس وأنت المقبول. فمن رآني رماني بالحجارة، ومن رآك قال: السلام عليك يا سلطان العارفين، في حين أني لا أدخر عظام اليوم إلى غد، وأنك تدخر في بيتك جرة من الدقيق». فقال بايزيد لنفسه: **«إن كان الكلب لا يستحق صحبتي فكيف أستحق صحبة الملك الذي لم يزل ولا يزال»**. فاعتراني الشك ويئست من الطاعة. ولم تمض هنيهة إلا وسمعت هاتفاً يبشرني. فتنفست الصعداء! وعرفت أني قد شملتني عناية الحق تعالى.



أويس
الزاهد الورع

وكان أويس زاهداً بمعنى أنه كان يجد ويكد ويعمل لكسب الحلال، ولكنه لا يتعلق قلبياً بما يكسب من الرزق، بل يصرف على نفسه وعلى أمه، وينفق الباقي في سبيل الله. المهم أنه ليس بحاجة إلى الناس لتسيير أمور دنياه.

وهو تلميذ أمير المؤمنين عليه السلام الذي قال: «الزهد كله بين كلمتين من القرآن قال الله سبحانه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي **فقد أخذ الزهد بطرفيه**». وما أروع ما قاله المتنبي في شرح كلام إمامه:

لا أشرئب إلى ما لم يفت طمعا ولا أبيت على ما فات حسرانا



وكان أويس يجد ويكد ويعمل لا رغبة في الدنيا ولكن لتأمين الكفاف من عيشه وترفعاً عن سؤال غيره. فكان زهده لا تبرأ من حيازة المال ـ كما يظن بعض الناس ـ ولكن لإسقاط الرغبة عن المال بالكلية، كما قال الخواجة عبد الله الأنصاري في منازل السائرين صفحة ٥٤: **«الزهد إسقاط الرغبة عن الشيء بالكلية»**.

يقول أحمد بن جلاء وهو من عرفاء القرن الثالث: «**من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد**». وها هو أويس لا يستشيط غضباً عندما يسمع ذمه والتهكم والسخرية منه. كما لا يبتهج بما أغدق عليه من المدح والثناء من عمر وغيره من الصحابة. بل روي أنه قال لعمر حينما نقل له أمام الناس ـ وهم مجتمعون في الحج ـ أحاديث الرسول ﷺ في فضائله ومدحه وثنائه وطلب منه الشفاعة، ثم تزاحم الناس عليه يطلبون منه الشفاعة ويتبركون به: «يا أمير المؤمنين لقد أشهرتني وأهلكتني» ـ فراراً من المدح والثناء ولعدم الابتهاج بهما. **وهذا هو الزهد بعينه**. ذكر ذلك الشيخ الطوسي[1] والعلامة المجلسي[2] وأبو نعيم الأصفهاني[3] والجويري[4] وابن الجوزي[5] والخوئي[6] وكمال الدين حسين الخوارزمي[7] وغيرهم.

وروي أيضاً ما يؤكد قمة زهده بعدم ابتهاجه بالمدح والثناء والفرار منها أن شخصاً كان دائماً يسخر منه ويتهكم به. وعندما سمع من عمر هذه الأحاديث النبوية الشريفة في فضائل أويس قال لنفسه: «عجباً أويس كذلك ونحن لا نعرفه!». ثم قال لعمر عندنا شخص في الكوفة يسمى أويس. قال عمر: «نعم ... اعرف قدره ولا أتصور أنك ستعرف مقامه». ولما رجع إلى الكوفة ذهب تواً إلى أويس قبل أن يذهب إلى بيته واعتذر

---

(١) في اختيار معرفة الرجال صفحات ٩٩ و١٠٠.
(٢) في بحار الأنوار جزء ٤٢ صفحة ١٥٦.
(٣) في حلية الأولياء جزء ٢ صفحات ٨٢ و٨٣.
(٤) في كشف المحجوب صفحة ١٠٠.
(٥) في صفة الصفوة جزء ٣ صفحات ٤٦ و٤٨.
(٦) في معجم رجال الحديث جزء ٣ صفحات ٢٤٥ و٢٤٦.
(٧) في جواهر الأسرار جزء ١ صفحات ٤٧ و٥٠.

له من سلوكه الشنيع تجاهه. فقال أويس: «كان سلوكك معي مختلفاً، فما الذي غيرك؟». فقال نعم لقد كنت في المدينة وسمعت من عمر كيت وكيت وأنا الآن هنا أطلب منك أن تستغفر لي. فقال له أويس: «**سأستغفر لك بشرط أن لا تخبر أحداً بما سمعته من عمر**». ذكر ذلك ابن الأثير(١)، وابن الجوزي(٢)، وأبو نعيم الأصفهاني(٣)، والسيد محسن الأمين(٤)، والحاكم النيسابوري(٥) وغيرهم.

وهذا هو قمة الزهد. ومع الأسف الشديد يتصور أنصاف العلماء ويتبعهم العامة أن الزهد هو الاعتزال في الكهوف والتضور جوعاً ولبس الملابس الخشنة وغيره وغيره، ثم يعقبون عليها قائلين: وأن هذا ليس جائزاً في الإسلام. ويا للأسف يظنون أنفسهم يمثلون الإسلام! وإن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون.

أويس الزاهد يطلب الرياضة لا الرئاسة. وعندما قال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: «**أكون في غبراء الناس أحب إليّ**». ويذكرني هذا بسلوك النبي سليمان عليه السلام عندما كان يدخل بلاطه والأثرياء وكبار القوم يصطفون في جانب والفقراء والمساكين في جانب آخر، فينضم إلى صف الفقراء والمساكين قائلاً: «إنني من الفقراء والمساكين».

إنه الزاهد الذي اختار عمل الراعي في الكوفة، وكان بوسعه أن

---

(١) في أسد الغابة جزء ١ صفحات ١٥١ و١٥٣.
(٢) في صفة الصفوة جزء ٣ صفحات ٥٢ و٥٣.
(٣) في حلية الأولياء جزء ٢ صفحة ٨٠.
(٤) في أعيان الشيعة جزء ٣ صفحة ٥١٥.
(٥) في المستدرك جزء ٢ صفحة ٣٦٥ وجزء ٣ صفحات ٤٠٤ و٤٠٥.

يستفيد من أحاديث الرسول الأكرم ﷺ في فضائله ما كان يرفع مقامه في أعين الناس، لكنه لم يفعل ولم يحب ذلك ولم يمل إليه. بل أحب ومال إلى أن يكون من الأصفياء الأبرار والأولياء الأخفياء المغمورين.

ويظهر مدى زهده في الناس في آخر حكاية هرم بن حيان الذي كان من عرفاء وزهاد القرن الأول الهجري وكان من أصحاب أمير المؤمنين علي عليه السلام. وقد ذكر حكاية ملاقاته مع أويس القرني أبو نعيم الأصفهاني، وابن الجوزي، والسيد محسن الأمين، والجويري، والحاكم النيسابوري وأبو حامد محمد الغزالي، وأحمد بن حنبل والشيخ الطوسي وغيرهم.

يقول عبد الرزاق الجيلاني في مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة صفحة ٤٨٠:

«إن أصحاب السير رووا: أن هرم بن حيان كان صاحب أويس القرني وأنهما أول ما التقيا قال له هرم: السلام عليك يا أويس بن عامر. فقال: وعليك السلام يا هرم بن حيان. فقال هرم: أما أني قد عرفتك بالصفة فكيف عرفتني؟ قال: **إن أرواح المؤمنين لتشام كما تشام الخيل فتعرف بعضها بعضاً**».

وبعد محاورة طويلة قال له أويس في نهاية هذه المقابلة:

«في أمان الله يا هرم بن حيان! لن تراني بعد اليوم بإذن الله. إني أكره الشهرة، والوحدة أحب إليّ، لأني كثير الغمّ ما دمت مع هؤلاء الناس. فلا تبحث عني فإنك لن تراني، سأذكرك وأدعو لك على ظهر الغيب لأن الزيارة واللقاء يعرض فيهما التزين والرياء».

ثم ذهب عني. يقول هرم بن حيان: أردت أن أرافقه فأبدى مخالفته. ثم افترقنا وكان يبكي وكنت أيضاً أبكي. وبعدها كنت أبحث عنه ولم أجد له أثراً. ولكن لا تأتي علي جمعة إلا وأراه في المنام مرة أو مرتين.

وسترى في الفصل التالي مدى علمه وحكمته. فله ﷺ درر من الحكم وجوامع الكلم ما ألهم الأجيال ورباها. فالطريقة الأويسية في العرفان التي امتدت من زمان أويس القرني ﷺ إلى يومنا هذا يزيد أقطابها عن أربعين قطباً أي ما يزيد عن أربعين جيلاً. وأن شعار هذه الطريقة هو كلمته المقدسة: «**عليك بقلبك**». ومع هذا الكنز الرفيع من المعرفة والرصيد المقدس من الحكمة إلا أنه لم يزدد في الدنيا إلا زهداً. وهو المثل الأعلى للأجيال من بعده يعلمهم أن يزدادوا زهداً كلما ازدادوا علماً وإلا لم يزيدوا من الله إلا بعداً، في قول الرسول الأكرم ﷺ: «**من ازداد علماً ولم يزدد في الدنيا زهداً لم يزد من الله إلا بعداً**».

فلم يحب يوماً أن يعرفه الناس كما ذكرنا آنفاً. بل أحب ومال إلى أن يكون من الأصفياء الأبرار والأولياء الأخفياء المغمورين. فهو الذي قال لعمر عندما أراد أن يكتب له إلى عامل الكوفة: «أكون في غبراء الناس أحب إليّ». وهو الذي قال لمن كان يسخر منه ويتهكم به، ولكنه اعتذر إليه وطلب منه أن يستغفر له، بعد أن سمع من عمر فضائله الجمة: «سأستغفر لك بشرط أن لا تخبر أحداً بما سمعته من عمر». وهو الذي قال لهرم بن حيان: «الوحدة أحب إليّ لأني كثير الغمّ ما دمت مع هؤلاء الناس. فلا تبحث عني فإنك لن تراني». ويصدق فيه ما قاله بشر الحافي: «إذا أحببت أن يعرفك الناس فهذا من حب الدنيا». بمعنى أن الذي يحب أن يعرفه الناس يحب الدنيا وهو بعيد كل البعد عن الزهد. وما قاله أيضاً حين سألوه: «كيف وصلت إلى هذا المقام المنيع؟». فقال بشر: «لأني طوال عمري كتمت حالي عن غير الله ﷻ». لأن الذي يظهر حالته لغير الله إنما هو نوع من المباهاة والتفاخر وهو بعيد كل البعد عن الزهد.



درر الحكم وجوامع الكلم
لأويس القرني

قال مولانا ومقتدانا الإمام علي عليه السلام: «**روحوا أنفسكم ببديع الحكمة فإنها تكل كما تكل الأبدان**». أليس الأجدر بنا أن نستفيد من الحكم التي تفوه بها أويس القرني رضوان الله عليه، وهو ما هو عليه من منزلته العظيمة عند رسول الله صلى الله عليه وآله، ومقامه الرفيع الشامخ عند سيد الوصيين علي عليه السلام، حتى ارتفع إلى مقام حواري علي بن أبي طالب؟ وإن لم نفعل فعلى أقل تقدير نروح أنفسنا ببديع حكمه ومواعظه، وذلك أضعف الإيمان. وإليكم درر الحكم وجوامع الكلم التي تفوه بها هذا الرجل العظيم:

١ - عليك بقلبك.

٢ - قد خالط الشك هذه القلوب فما تنفع معها موعظة.

٣ - وقال له رجل أريد أن أصحبك لأستأنس بك فقال: «سبحان الله ما كنت أرى أحداً يعرف الله يستوحش مع الله».

٤ - من عرف الله لا يخفى عليه شيء.

٥ - إن معرفة المؤمن بحقوق الله لم تبق له فضة ولا ذهباً.

٦ - قيل لأويس إن شخصاً يلبس كفنه منذ ثلاثين سنة وهو في قبر

يبكي ليل نهار. فقال أويس: رافقوني حتى أراه. فلما رآه قال له: «ابتعدت عن الله ثلاثين سنة بالقبر والكفن وهما صنمان يبعدانك عن الله». فانتبه ذلك الشخص بفضل نور كلامه، وعرف صنمه والتحق بالملأ الأعلى.

٧ ـ كان أويس حينما يحمل شيئاً في يده يقول: «إلهي لا تجعله عذراً عن ديني». إنه تلميذ وتابع وشيعة علي عليه السلام حيث يقول: «اعلموا أن القرآن هدى الليل والنهار ونور الليل المظلم على ما كان من جهد وفاقة. فإذا حضرت بلية فاجعلوا أموالكم دون أنفسكم، وإذا نزلت نازلة فاجعلوا أنفسكم دون دينكم، واعلموا أن الهالك من هلك دينه، والحريب من حرب دينه».

٨ ـ لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان. هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً.

٩ ـ ما أطيب إيمان زانه علم، وما أطيب علم زانه عمل، وما أطيب عمل زانه حلم، وما ازدان شيء بشيء كما ازدان علم بحلم.

١٠ ـ سألوه ما هو عملك؟ فقال: «آه من قلة الزاد وطول الطريق».

١١ ـ قال هرم بن حيان لأويس القرني أوصني. قال: «يا هرم! توسد الموت إذا نمت واجعله أمامك إذا قمت».

١٢ ـ إن الموت وذكره لم يدع لمؤمن فرحاً».

١٣ ـ يا هرم بن حيان! مات أبوك حيان ويوشك أن تموت أنت فإما إلى الجنة وإما إلى النار، ومات أبوك آدم وماتت أمك حواء. يابن حيان! ومات نوح نبي الله، ومات إبراهيم خليل الله، ومات موسى نجي الله، ومات داود خليفة الرحمن ومات محمد صلى الله عليه وآله.

١٤ ـ قال أويس لهرم بن حيان: احذر ليلة صبيحتها القيامة.

١٥ ـ طلبت الرفعة فوجدتها في التواضع.

١٦ ـ وطلبت الرئاسة فوجدتها في نصحة الخلائق.

١٧ ـ وطلبت المروة فوجدتها في الصدق.

١٨ ـ وطلبت الشرف فوجدته في القناعة.

١٩ ـ وطلبت الراحة فوجدتها في الزهد.

٢٠ ـ وطلبت الفخر فوجدته في الفقر.

٢١ ـ وطلبت النسبة فوجدتها في التقوى.

٢٢ ـ إن قول الحق لم يترك لي صديقاً.

٢٣ ـ ما سمعت كلمة للحكماء كانت أنفع لي من قوله: صانع وجهاً واحداً يكفيك الوجوه كلها.

٢٤ ـ نظر إليه رجل فقال له: لماذا أراك كالمريض؟ فقال أويس: كيف لا يكون أويس مريضاً والمريض يأكل الطعام وأويس لا يأكل والمريض ينام وأويس لا ينام.

٢٥ ـ كن في أمر الله كأنك الناس كلهم.

٢٦ ـ كن في أمر الله كأنك قتلت الناس كلهم.

٢٧ ـ جاء رجل من مراد إلى أويس القرني فقال: السلام عليكم. قال: وعليكم. قال: كيف أنت يا أويس؟ قال: بخير بحمد الله. قال: كيف الزمان عليك؟ قال: ما تسأل رجلاً إذا أمسى لم ير أنه يصبح وإذا أصبح لم ير أنه يمسي.

٢٨ ـ قال أويس لهرم بن حيان: قد عمل الناس على الرجاء، تعال نعمل على الخوف.

٢٩ـ لا تنظر إلى صغر ذنبك ولكن انظر إلى من عصيت فإن صغرت ذنبك فقد صغرت الله.

٣٠ـ وعن أويس القرني أنه قال: لو عبدت الله عبادة أهل السماوات والأرض لما تقبل منك حتى تصدقه. قيل: وكيف نصدقه؟ قال: تكون آمناً بما تكفل الله لك من أمر رزقك **وترى جسدك فارغا لعبادته.**

٣١ـ كان أويس القرني إذا أمسى يقول: هذه ليلة الركوع فيركع حتى يصبح. وكان يقول إذا أمسى: هذه ليلة السجود فيسجد حتى يصبح.

٣٢ـ وقيل: كان أويس القرني إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فيقول: إن كان لا بدّ أن ترموني بالحجارة فارموني بالصغار كي لا تدقوا ساقي فتمنعوني عن الصلاة.

٣٣ـ سألوا أويس: ما هو الخشوع في الصلاة؟ قال: إذا رموه بسهم في جنبه وهو قائم يصلي لا يعلم بذلك.

٣٤ـ ولقد ذكر عن هرم بن حيان أنه قال لأويس القرني رحمهما الله: يا أويس! صلنا بالزيارة واللقاء. فقال أويس: قد وصلتك بما أنفع لك منهما وهو الدعاء على ظهر الغيب، لأن الزيارة واللقاء يعرض فيهما التزين والرياء.

٣٥ـ والله إنا لنأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر فيتخذونا أعداء ويجدون على ذلك من الفساق أعواناً، حتى والله لقد رموني بالعظائم. وأيم الله لا يمنعني ذلك أن أقوم لله بالحق.

٣٦ـ اللهم إني أعتذر إليك من كبد جائعة وجسد عار، وليس لي إلا ما على ظهري وفي بطني.

٣٧ـ ولا تفارق الجماعة فتفارق دينك.

٣٨ـ قال أويس لهرم بن حيان: «إني أكره الشهرة والوحدة أحب إليّ لأني كثير الغمّ ما دمت مع هؤلاء الناس».

٣٩ـ في يوم من الأيام عندما كان شيخاً كبيراً طاعناً في السنّ وكان يتوضأ على نهر الفرات إذ سمع صوت طبل فسأل ما هو هذا الصوت؟ فقالوا له: إنه جيش علي الكرار يذهب لحرب معاوية. فقال أويس: ما من عبادة أفضل من اتباع علي المرتضى عليه السلام.

٤٠ـ وقال وهو في حرب صفين يقاتل بين يدي إمامه: «اللهم ارزقني شهادة توجب لي الحياة والرزق».



العبودية جوهرة
كنهها الربوبية

عنوان هذا الفصل هو مقولة الإمام الهمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو ينطبق على نهج أويس القرني رضوان الله عليه وسيره وسلوكه. فلقد ذكرنا في فصل سابق أن نهج أويس رضي الله عنه وتربيته المقدسة وحكمته ودرر مواعظه ألهمت أجيالاً في الأمة الإسلامية وعلى الأخص عظماء الأمة من أقطاب الطريقة الأويسية، الذين تجاوزوا الأربعين قطباً منذ عهد أويس القرني إلى يومنا هذا.

والطريقة الأويسية في العرفان الإسلامي ترجع جذورها إلى هذه الشخصية الفذة الذي أيد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نهجه وسيره وسلوكه بإرسال خرقته المقدسة إليه عند وفاته. وأوصى بذلك النهج بقوله فيه: «احتذوا بأويس حذو النعل بالنعل فإنه شفيع أمتي».

ويظهر أن مقولة بايزيد البسطامي الشهيرة: «**دع نفسك وتعال!**» الذي خاطبه الله جل وعلا بها تصدق صدقاً كاملاً في أويس القرني رضي الله عنه. فهو الذي مات عن نفسه وودعها وتركها، وطبق مقولة النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم: «**موتوا قبل أن تموتوا**» تطبيقاً كاملاً. حتى أنه رضي الله عنه كان من كثرة خشوعه في صلاته بحيث إذا رموه بسهم في جنبه وهو قائم يصلي لا يعلم بذلك.

ترى ما هي جوهرة العبودية وكنهها الربوبية التي برزت في أويس

القرني أيما بروز! إننا لا نستطيع إلى كنه الربوبية سبيلاً. ولكننا سنجد إلى كنه العبودية سبيلاً بشرط أن نعثر على جوهرة العبودية. فإذا عثرنا عليها وجدنا كنهها ألا هي الربوبية. ترى ما هو السدّ الذي يمنعنا عن الوصول إلى صدق العبودية وجوهرتها ومن ثم إلى كنهها الربوبية! يقول أويس القرني ﷺ إن شرط الوصول هو **فراغ الجسد لعبادة الله.** ويقول إنه لا يتأتى هذا الفراغ إلا إذا كنا آمنين بما تكفل الله لنا من أمر رزقنا.

نعم آمنين بمعنى أن نشعر بالأمان الكامل في حياتنا الظاهرية والباطنية، بفضل إيماننا المطلق بأن الله ﷻ قد تكفل لنا من أمر رزقنا ـ بالأمان النفسي والروحي والجسدي، الذي لا يشوبه أي شعور بعدم الراحة أو التذمر أو الضجر، أو اضطراب الحال وتشويش البال، أو الاعتراض الداخلي على ما قدر الله لنا من أمر رزقنا. فإذا شعرنا بالأمان المطلق وعشنا في هذا الشعور الدائم المريح المطمئن، كنا مرتاحي البال مطمئني النفس، ومؤهلين لفراغ الجسد الكامل لعبادة الله وعبوديته. فالذي يفكر دائماً في أمر رزقه لا يستقيم له الجسد الفارغ ـ جسدياً وفكرياً وروحياً وعصبياً سواء في الوعي أو اللاوعي ـ ومن ثم لا يستعد بكل وجوده لعبادة الله وعبوديته، ويعيش دائماً مضطرب الحال مشوش البال.

ويستلزم هذا منك القناعة بما قدر الله وقسم لك، وبقسمك ونصيبك من أمور رزقك. أما إذا كنت تفكر دائماً بأن فلاناً أغنى منك، ويا ليت لك ما لفلان! فإنك غير مؤهل البتة لفراغ الجسد ومن ثم لعبادة الله وعبوديته. ومع الأسف الشديد فإنك قد وقعت في حبائل الشيطان، وفي عبودية المال والمتاع وزبرج الدنيا وزينتها. أما إذا أوزعك الله شكره وتحررت من هذه الحبائل، عاد الأمل مرة أخرى إلى عنفوان قوته، لاستعادة السكينة النفسية والروحية الدائمة، وتأهلت لفراغ الجسد ومن ثم لعبادة الله سبحانه وتعالى وعبوديته.

وحينما سئل الإمام الصادق عليه السلام عن حقيقة العبودية[1] قال: «ثلاثة أشياء:

١ ـ أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوله الله ملكاً، لأن العبيد لا يكون لهم ملك، يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به.

٢ ـ ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً.

٣ ـ وجملة اشتغاله فيما أمره تعالى به ونهاه عنه.

وإذا كان اشتغالك في أمور أخرى فيجب عليك الجهاد بكل وجودك، وإدارة دفة الإرادة والعزيمة، وقيادة أزمة العقال والشكيمة، وعقل أزمة نفسك بعقال مشيئة ربك، حتى تدخل في شغل واحد واهتمام واحد، ألا هو الاشتغال في أمر الله وحده، وعلى الأخص مسألة النفس المطمئنة القانعة الآمنة التي هي في مهاد أمن الله وأمانه وسكينته ورضوانه.

وفي دعاء عرفة نجد الإمام الحسين عليه السلام يسأل الله تضرعاً أن يقيمه على صدق العبودية. فإذا كان الحسين عليه السلام يسأل ربه ويدعوه ويناجيه، فما أغبى الذين يظنون أنهم وصلوا إلى الله ويحسبون أن لا حاجة لهم للتضرع والخشوع إلى الله ودعائه ومناجاته. وهل يجري على لسان العاشق غير ذكر المحبوب ودعائه ومناجاته!

فما هو فراغ الجسد الذي يقول أويس رضي الله عنه إن شرط الوصول إلى جوهرة العبودية أو صدقها أو حقيقتها هو أن ترى جسدك فارغاً لعبادة الله؟ ستجد الإجابة على هذا السؤال في رواية عنوان البصري حيث يشرح الإمام الصادق عليه السلام ماهية حقيقة العبودية وتفاصيلها الكاملة.

---

(١) راجع رواية عنوان البصري عن الإمام الصادق عليه السلام في السير والسلوك بتفاصيلها الكاملة في كتاب قدوة العارفين للمؤلف صفحات ٢٩١ إلى ٢٩٥.

إن الإنسان ينوء تحت أثقال جسام تحرمه من فراغ الجسد لعبادة الله. فمجرد رؤيته فيما خوله الله ملكاً لنفسه، سواء كان مالاً أو أملاكاً أو متاعاً أو أولاداً، تحمله معاناة هذه الملكية، أو بالأحرى الظن الكاذب بالملكية، ما لا يعد ولا يحصى من مشاغل الدنيا. وتترتب عليه المسؤوليات الجسام والتبعات العظام، التي هو في غنى عنها، لو أنه كان أذكى قليلاً ونفض أوساخ الغباء عن نفسه.

أما إذا تيقن العبد بأن العبيد لا يكون لهم ملك وإنما هو مال الله، وتصرف في حياته على هذا الأساس، لشعر بخفة عظمى!

أ - وكأن الأثقال انهارت من فوق رأسه ورقبته وجسده!

ب - وكأن معاناة الملكية قد زالت وحل محلها السعادة والطمأنينة!

ج - وكأن المشاغل الدنيوية التي كانت مهيمنة على أفكاره وهمومه قد ذابت ذوبان الجليد!

د - وكأن المسؤوليات الجسام وهمومها الثقال قد أزيحت من فوق رقبته وجسده! ويفوز في هذه الحالة من إحساس الخفة فوزاً عظيماً. فلقد فاز المخفون! كما قال الإمام علي عليه السلام.

كذلك الإنسان ينوء تحت أصفاد وأغلال تحرمه من فراغ الجسد لعبادة الله. فمجرد معاناته من تصوراته الخاطئة بأنه يدبر لنفسه ولعائلته وأولاده أمور الدنيا، ويواجه بنفسه على إثرها مشاكلها الصعبة، تحمله هذه المعاناة ما لا يعد ولا يحصى من مشاكل الدنيا. وتترتب عليه المسؤوليات الجسام والتبعات العظام.

أما إذا تيقن العبد بأن العبد لا يدبر لنفسه، وإنما التدبير من الله

وحده. وأن العبد يجهد جهده ويسعى سعيه، ولكن التدبير الفعلي هو من الله ﷻ. وأن العبد إذا أراد شيئاً، وأراد الله غير ذلك، فالذي يريده الله هو كائن لا محالة، فلا يعترضن العبد على مشيئة الله. وإذا أراد العبد شيئاً وأراد الله نفس ذلك الشيء، فلا يشكرن العبد جهده وسعيه، بل يشكرن الله الذي بيده التدبير جل وعلا. يقول الشاعر:

فسبخ[1] عليك الهم واعلم بأنه ... إذا قدر الرحمن شيئاً فكائن



ويقول شاعرأهل البيت الفرزدق:

وكيف أخاف الناس والله قابض
على الناس والسبعين[2] في راحة اليد



وإذا تيقن العبد أن الله يدبر له تدبيراً ويختار له اختياراً شعر بخفة عظمى!

أ ـ وكأن الأغلال والأصفاد قد حلت وسقطت من رقبته ويديه ورجليه!

ب ـ وكأن معاناة التدبير قد زالت وحل محلها السعادة والطمأنينة!

ج ـ وكأن مشاكل الدنيا قد خفت وطأتها! فقد وكلها وفوضها إلى الله تعالى، فهو الذي يتكفل بتهوينها عليه وحلها الحل المناسب.

د ـ وكأن المسؤوليات الجسام وهمومها الثقال قد أزيحت من فوق

---

(١) خفف.
(٢) السبع السماوات والسبع الأرضين.

رقبته وجسده! ويفوز في هذه الحالة من إحساس الخفة والسعادة والطمأنينة فوزاً عظيماً. فلقد فاز المخفون!

كذلك الإنسان ينوء تحت قيود وسلاسل تحرمه من فراغ الجسد لعبادة الله. فمجرد اشتغاله بمختلف الأشغال الدنيوية ورؤيتها وكأنها وظائف ثقيلة فرضت عليه فرضاً، ومعاناته من الشعور المرير بأن عليه أن يؤدي هذه الوظائف الثقيلة ويواجه مشاكلها وتعقيداتها، أو كأنها وظائف ومهمات ومأموريات لا يمكن أن تستقيم إلا بتدخله المباشر، وإن لم يتدخل لا يمكن إنجازها، ومعاناته الشديدة من هذه التصورات الخاطئة، تحمله هذه الرؤية الباطلة وأنانيته وتصوراته الخاطئة ومعاناته ما لا يعد ولا يحصى من هموم الدنيا، وتشويش البال واضطراب الحال وسوء المزاج، وتفقده أهليته لحسن حال الله جل وعل[1]، الذي يجب عليه أن ينشده ويطمح إليه في ليله ونهاره، ويضعه في الأولوية الأولى بل الأولوية الوحيدة في حياته. وتترتب عليه المسؤوليات الجسام والتبعات العظام.

أما إذا تيقن العبد بأن واجبه الوحيد في الدنيا هو جملة اشتغاله فيما أمره الله تعالى به ونهاه عنه، وأن يكل الوظائف الثقيلة والمهمات والمأموريات إلى الله تعالى، وأن يسعى سعيه ويجهد جهده وهو على يقين بأنه بتفويض أموره إلى الله تنجز مهماته ووظائفه مهما ثقلت خير إنجاز. وإذا تيقن العبد أن الله منجز وعده وناصرعبده شعر بخفة عظمى!

أ ـ وكأن القيود والسلاسل قد حلت وسقطت من رقبته ويديه ورجليه!

---

(١) كما في الدعاء المشهور: «إلهي حول سوء حالنا لحسن حالك».

ب ـ وكأن الوظائف الثقيلة والمهمات الصعبة قد أصبحت عليه سهلة يسيرة!

ج ـ وكأن معاناة الشعور المرير بالأنانية وثقل الوظائف وصعوبة المهمات قد زالت! وكأن الصعوبة في تأدية الوظائف وإنجاز المهمات قد خفت وطأتها!

د ـ وكأن المسؤوليات الجسام وهمومها الثقال قد أزيحت من فوق رقبته وجسده! ويفوز في هذه الحالة من إحساس الخفة فوزاً عظيماً. فلقد فاز المخفون!

فإذا وصل العبد إلى حقيقة العبودية كما قال الإمام الصادق عليه السلام أو إلى صدق العبودية كما قال جده الإمام الحسين عليه السلام أو إلى جوهرة العبودية كما قال جده الإمام علي عليه السلام، وعلم علم اليقين بل رأى عين اليقين:

أ ـ بأن العبيد لا يكون لهم ملك، وأن المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله تعالى.

ب ـ وأن العبيد لا يدبرون لأنفسهم تدبيراً.

ج ـ وجملة اشتغال العبيد فيما أمرهم الله تعالى به ونهاهم عنه.

د ـ وتصرفوا على هذا الأساس في هذه الحياة الدنيا، وتجسدوا هذه الحقيقة العظمى في وجودهم حق اليقين.

هنالك تبرز جوهرة العبودية ويتحقق كنهها وهو الربوبية! أما كيف تكون هذه الجوهرة؟ فسل عن النار جسم من عاناها! أو تكون حشاك في أحشائهم حتى تعرف ماهيتهم! يقول الشاعر:

لا تعذل المشتاق في أشواقه   حتى تكون حشاك في أحشائه

واعلم أن الكيفيات غير قابلة للانتقال كما يقول شيخي ومعلمي الرباني الشيخ صادق العنقا (قدس سره). فالذي وصل إلى هذه الجوهرة وذاقها يعرف طعمها، كما أن الذي وصل إلى العسل وذاقه يعرف طعمه. أما الذي يتكلم فلسفياً عن طعم العسل ولم يتذوقه طوال حياته، فما ذاك إلا مهزلة! أو يتكلم ذهنياً وفلسفياً عن جوهرة العبودية ويحاضر فيها ويملأ الصحائف في شرحها، وهو لم يصلها قطّ ولم يجربها ولم يذق حلاوتها وقدسيتها، لا يتعدى كلامه ومحاضراته وكتاباته مجرد ظنون، وهي حقاً مهزلة! ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[1]!

وهل يتيسر انتقال طعم العسل إلى من لم يذق العسل قطّ في حياته! أم هل يتيسر انتقال طعم هذه الجوهرة إلى من لم يذق هذه الجوهرة قطّ في حياته! وكيف يتيسر لنا شرح طعم العسل؟ وقصارى ما نستطيع فعله هو أن ندل الطالب على عنوان من يبيع العسل، ثم يشتري الطالب منه ذلك العسل، ثم يتذوقه فيعرف فوراً ما نقوله.

كذلك كيف يتيسر لنا شرح طعم جوهرة العبودية؟ وقصارى ما نستطيع فعله هو أن ندل الطالب على ما يجب فعله، حتى تتحقق له العبودية الحقة، فيجد طعم جوهرتها وكنهها الربوبية. ولقد دلنا الإمام الصادق عليه السلام على ما يجب فعله ولكن ما أقل العاملون! ولو آمنوا به حقاً لعملوا الصالحات وناضلوا وجاهدوا في أنفسهم إلى آخر رمق من حياتهم! ألا تستحق هذه الجوهرة وكنهها الربوبية كل هذا الجهاد الأكبر وكل هذه الإرادة والهمة والتصميم والعزيمة رغم كل المصاعب الجمة والعقبات الجسام؟

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

ولقد أسهبت في شرح هاتين النظريتين القيمتين لمولانا الشيخ صادق العنقا (قدس سره):

أ ـ المعاني لا تنقل بالألفاظ.

ب ـ الكيفيات غير قابلة للانتقال.

في كتابي «قدوة الفقهاء والعارفين» في فصل «وإن الدين لواقع» من صفحات ٢٦٤ إلى ٢٧١. فللمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع الهام الرجاء مراجعة هذه الصفحات.

ولنضرب مثلاً لتقريب هذا المعنى إلى فهم القارئ حول هذا العبد الذي يتبع ربه اتباع الظلّ لصاحبه، من دون أي عائق أو اعتراض أو أي جدل أو احتجاج. فلحسن الحظ يوجد في زماننا الروبوت ـ هذه الماكينة الإلكترونية السحرية التي تطيعك في كل شيء في إطار البرامج التي برمجت من أجلها.

فإذا رأينا الروبوت يمشي على الحبل على شلالات نياجارا مثلاً على ارتفاع مئتي متر، أو يتسلق جدران أطول ناطحات السحاب شاهقة الارتفاع على الأرض مثلاً بما يقرب طول ارتفاعها كيلومتراً واحداً كما في أبراج جدة، أو يقطع البراري والقفار على سطح كوكب المريخ، أو ينزل في منزلقات وديانه الخطرة، ثم يخرج منها متسلقاً جدرانها المنحدرة، أو ينجز أعمالاً عجيبة رائعة على سطح القمر، أو يؤدي الأعمال المبرمجة من أجلها على بعد مليارات الكيلومترات من الأرض، في شكل أقمار اصطناعية. فإذا رأينا الروبوت يعمل كل هذه الأعمال الرائعة نتعجب من عمله عجباً شديداً.

والحقيقة أن الروبوت عبد ذليل طيع وديع برمجه مخترعوه على هذا النحو بحيث يؤدي وظائفه العجيبة الغريبة بكل دقة، على الرغم من

بعده عن الأرض هذه المسافات الشاسعة. ففي الحقيقة نحن ننظر إلى روعة أعمال مخترعيه، لا روعة أعمال الروبوت نفسه. أو بعبارة أخرى نحن ننظر من خلال الروبوت العبد الذليل الطيع الوديع إلى جوهرة العبودية أو صدقها أو حقيقتها، ومن ثم إلى كنهه في علم مخترعيه وعبقريتهم الفذة، لا إلى علم الروبوت نفسه أو عبقريته.

يقول أويس القرني رضي الله عنه: «لو عبدت الله عبادة أهل السماوات والأرض لما تقبل منك حتى تصدقه. قيل: وكيف نصدقه؟ قال: «تكون آمناً بما تكفل الله لك من أمر رزقك وترى جسدك فارغاً لعبادته». ولقد شرحنا موضوع الجسد الفارغ من منطلق كلام الإمام الصادق عليه السلام في رواية عنوان البصري. وهناك منطلق آخر وهو أن حياتنا الحديثة لها تبعاتها الثقيلة والمعقدة على حياتنا، بحيث تبقى السدَّ المنيع في طريق فراغ الجسد.

وفراغ الجسد يتطلب الخلاص من النفس واعوجاجاتها والعقد النفسية والهواجس العصبية الكثيرة التي لا ينتبه إليها إلا المنصفون الذين ينظرون في واقع الأمور بعيداً عن الكبر والعجب والادعاءات الزائفة. **وهل يستقيم فراغ الجسد مع كل هذه العقد النفسية والهواجس العصبية التي تستبد بالإنسان العاجز أيما استبداد، وتملأ حيزاً لا يستهان به من روحه وفكره!** الرجاء الرجوع إلى أنواع العقد النفسية والهواجس العصبية التي تعشعش في منطقة اللاوعي في دماغ الإنسان في الفصول اللاحقة مثل «السير والسلوك من القلب إلى الرأس» و«كل شيء من الله وإليه»، والفصول الثلاثة الأخيرة من هذا الكتاب، ألا هي فصول «نظم السلوك» بشعبها الثلاثة: فرن الرياضة، ومرآة النفس، والعقبة الكأداء.

فالناس في هذا الزمن منذ أيام مراهقتهم يتعرضون لانبهارات

الحياة الغربية، وما يرافقها من المغريات الجنسية ووسائل الاتصالات التي تسهل على المراهقين التعرض لها والتأثر بها، كما في التلفزيون والإنترنت مثلاً، وكذلك مغريات الحياة المادية الغربية وما يسمى بالحلم الأمريكي وحياة الرفاهية المفرطة، التي تعين قيمة في الحياة تختلف عن القيم والمثل العليا في الحضارة الإسلامية وفي ديانات الأنبياء ﷺ. فتخلق هذه المغريات والتأثرات المعقدة تبعات وتعقيدات في النظام العصبي لا يمكن التخلص منها إلا لمن رحم ربي. أو بعبارة أخرى تلطخ النظام العصبي وتجرحه بهوى النفس[1]، ومن ثم نشوء التبعات الثقال والتعقيدات الصعاب الناتجة عنه. ولكن لا داعي لليأس! فإن الله إذا سنى عقد شيء تيسراً كما قال الشاعر:

وأعلم علماً ليس بالظن أنه إذا الله سنى عقد شيء تيسرا

وما أكثر ما ينعش الله المذنبين بعد عثراتهم! كما يقول الشاعر:

وقد ينعش الله الفتى بعد عثرة وقد يجمع الله الشتيت من الشمل

ونحن نخاطب هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بأن لا يقنطوا من رحمة

---

(١) هوى النفس عبارة عن اعوجاجات النفس الذاتية، الناتجة عن عوامل الوراثة والجينات، بالإضافة إلى عوامل التربية والمحيط والاكتسابيات، التي تنتقل إليها عن طريق الحواس الخمس. نعم إن الطيور على أشكالها تقع، ولولا السنخية بين النفس المعوجة وفساد التربية والمحيط والطبيعة، لما حصل هذا التناغم ولما كان هذا الانتقال ممكناً. ولكن الفساد الخارجي يزيد الفساد الذاتي فساداً ويفاقمه ويزيد الطين بلة. وكل هذه العوامل ـ الذاتية والمكتسبة ـ تتمركز في الدماغ وتتسبب في فساده. والدماغ هو المحطة الكبرى في شبكة النظام العصبي العنكبوتية الواسعة. ولذا يأتمر النظام العصبي بأمره وينتهي بنهيه، ويكون واقعاً تحت استبداد الدماغ الفاسد. ويصبح الإنسان بدوره واقعاً تحت سيطرة النظام العصبي وسطوه وجبروته. وعلاجه السير والسلوك إلى الله، والتعرض للنفحات الرحمانية من جانب ولي مرشد ومعلم رباني، والتزكية ونيل الكنوز من الكتاب والحكمة.

الله، وسلوانهم في ذلك قول الله تعالى[1]: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾. فالله سبحانه وتعالى قادر على تيسير قلبك كما كان قادرا على إلانة الحديد لداود عليه السلام.

ألان لداود الحديد بقدرة   مليك على تيسير قلبك قادر

إن مقولة بايزيد البسطامي الشهيرة: «**دع نفسك وتعال**» التي خاطبه الله تعالى بها تعني أن تدع نفسك كما دلنا على ذلك الإمام الصادق عليه السلام. يعني أن تموت عن نفسك وأن تدعها وتتركها كما كان أويس القرني رضوان الله عليه، وكما أمرنا به نبينا الأكرم ﷺ في قوله: «موتوا قبل أن تموتوا».

لأن النفس إذا انزاحت لا يبقى غير الله العزيز الجبار! وإذا كان كذلك فلربما تستيقظ يوماً لترى أنك أنت تلك الجوهرة من العبودية وذلك الكنه العظيم من الربوبية! في قول الإمام الهمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «العبودية جوهرة كنهها الربوبية»، ولا لزوم للبحث عنهما في مكان آخر، أو في محاضرات المحاضرين أو في كتابات الكتاب الألمعيين.

أو كما قال شيخي ومربي الرباني الشيخ صادق العنقا (قدس سره): «لا عدم إلا وجود»، بمعنى إن العدم غير موجود ولا وجود إلا للوجود الأحد الصمد لا غيره، وذلك معنى «لا إله إلا الله».

فإذا مت عن نفسك اتصلت بالتوحيد وبالوجود الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. أو كما قال مولانا ومقتدانا

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

الإمام علي عليه السلام: «وإذا وصلوا اتصلوا وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم».

ولا غرو أن مثل هذه النماذج الإنسانية السامية يؤدون أفضل العبادات طراً، وهم بحق أتباع علي المرتضى عليه السلام كما قال أويس القرني رضي الله عنه: «ما من عبادة أفضل من اتباع علي المرتضى صلوات الله وسلامه عليه». وذلك حينما سمع صوت طبال ينادي الناس ويدعوهم إلى جيش علي الكرار عليه السلام المتدفق إلى صفين لحرب معاوية والقاسطين من أعوانه.

وهذه النماذج الإنسانية السامية تخلقوا بأخلاق الله وتجلت فيهم الأسماء الحسنى. فحبك لأن يعرفك الناس حافزه الزهو والعجب، ولذلك اعتبره بشر الحافي رذيلة ومن حب الدنيا. يقول بشر: «إذا أحببت أن يعرفك الناس فهذا من حب الدنيا». فما بالك بخلق من أخلاق الله هو نفس هذا العمل ولكنه فضيلة، وحافزه نشر الرسالة بين الناس! يقول الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف». وشتان ما بين هذا وذاك! وشتان ما بين الذي يعنيه بشر الحافي من نشدان الزهو والعجب وحب الدنيا وبين الذي يعنيه الله جل وعلا في حديثه القدسي من نشدان نشر المعرفة والعرفان!!!

يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾[1]. فإذا كان هدفك أن تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر فما أحلى وما أسمى أن تعرف من قبل الناس! فهذا من أكبر الفضائل. وشتان ما بين الخاسرين وبين الرابحين

(١) سورة العصر، الآيات ١ ـ ٣.

في منطق الله جل وعلا وأنبيائه والأئمة الطاهرين وأوليائه وعرفائه وعباده الصالحين!

كذلك الكبر أمر قبيح، والمريد إذا تكبر وأصابه الغرور سقط من عين الله وحبطت أعماله. أما شتان ما بين كبر المريد وكبرياء الله العزيز المقتدر! فإذا كان الحسين بن علي عليه السلام يعلن في يوم عاشوراء: «هيهات منا الذلة»، فهل هذا هو الكبر أم الكبرياء الذي هو خلق الله عز وجل ومن أسمائه الحسنى «المتكبر»؟

تردى ثياب الموت حمراً فما دجا لها الليل إلا وهي من سندس خضر



كذلك إذا طلب المريد الرفعة والرئاسة والفخر والتباهي بالأنساب سقط من عين الله وحبط عمله. أما إذا طلب أويس ذلك فتلك من أخلاق الله تعالى. يقول أويس القرني رضي الله عنه:

١ ـ طلبت الرفعة فوجدتها في التواضع.

٢ ـ وطلبت الرئاسة فوجدتها في نصحة الخلائق.

٣ ـ وطلبت المروة فوجدتها في الصدق.

٤ ـ وطلبت الشرف فوجدته في القناعة.

٥ ـ وطلبت الراحة فوجدتها في الزهد.

٦ ـ وطلبت الفخر فوجدته في الفقر.

٧ ـ وطلبت النسبة فوجدتها في التقوى.

فأويس ينشد التواضع ونصحة الخلائق والصدق والقناعة والزهد والفقر والتقوى وكلها من أخلاق الله عز وجل. أما غيره فينشد العلو في

الأرض والعظمة الزائفة والشهرة البغيضة، والرياء وحب المدح والثناء والطمع المدمر، والفخر والتباهي بالأموال والأولاد والأنساب ومتاع الدنيا وزينتها وزبرجها. وشتان بين هذا وذاك!

فمثلاً يقول الرسول الأكرم ﷺ: «**الفقر فخري**». فهو ﷺ يفتخر بفقره. وكان النبي سليمان عليه السلام حين يدخل بلاطه كان الناس يصطفون صفين: الأعيان والأشراف والأثرياء وكبار الدولة في صف والفقراء والمساكين في صف. فكان سليمان عليه السلام ينضم دائماً إلى صف الفقراء والمساكين مفتخراً متباهياً قائلاً: «أنا من الفقراء والمساكين».

فالذي يطلب الرفعة والرئاسة والفخر وغير ذلك من أجل الدنيا لا يمت إلى الآخرة بشيء. أما العبد الصالح إذا طلب هذه الصفات فإنه لا يطلبها من أجل الدنيا، ولكنه يطمح إلى أخلاق الله تعالى وصفات الآخرة. فشتان ما بين طلب العبد الصادق وبين طلب أهل الدنيا! وشتان ما بين الذين يريدون علواً في الأرض وفساداً وبين الذين يريدون التواضع والتقرب إلى الناس والاختلاط بهم وعدم التميز عنهم!

وشتان ما بين الذين يريدون الشرف والراحة للتميز عن الناس والعظمة الزائفة والطمع المشين وبين الذين يريدون الشرف والراحة للقناعة في الدنيا والزهد وعدم التمايل إلى الرئاسة وملك الدنيا والجاه والمقام والثروة والمال وزينة الحياة الدنيا وزبرجها! وشتان ما بين الذين يريدون الاستعلاء على الناس والطمع فيما أيديهم وبين الذين يريدون التواضع بين الناس والقناعة والاستغناء عما في أيديهم!

يقول الإمام علي عليه السلام: «**من حرص على الآخرة ملك ومن حرص على الدنيا هلك**». فهو الحرص نفسه يا ترى! ولكن على ماذا؟



بايزيد البسطامي

قدس سره





نبذة من سيرة
بايزيد البسطامي

يقول السيد حسين العالم في المجلس العشرين من مخطوطة كتابه المجالس[1]: فانظر إلى حال بايزيد البسطامي، كيف جاهد في الله ومن أين كسب علومه. يقول الشيخ المرشد جنيد البغدادي (قدس سره) (وهو من أولاد الشيخ أبي الحسن الخرقاني) أن السلطان بايزيد البسطامي في أوائل أيامه كان يبحث عن ضالته وهي الحكمة أينما وجدها، إلى أن سأل عن الآية الكريمة: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[2]، وسأل عن حديث الثقلين: «إني تارك فيكم الثقلين لن تضلوا إن تمسكتم بهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي». فاختار التمسك والاعتصام بالعروة الوثقى، ومتابعة أهل البيت[3] عليهم السلام، فركب راحلة الشوق، وتزود بزاد اليقين، وتوجه إلى كعبة آمال العاشقين الصادقين الإمام جعفر الصادق عليه السلام (أو الإمام موسى الكاظم عليه السلام حيث يوجد خلاف ـ فارجع إلى مجالس المؤمنين للقاضي)، وبقي في خدمته مدة طويلة.

---

(١) كتاب قدوة الفقهاء والعارفين للمؤلف صفحة ٢٢٤.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٣) يقول شاعر أهل البيت الكميت الأسدي:

ومالي إلا آل أحمد شيعة ومالي إلا مشعب الحق مشعب

(المشعب هو الطريق).

وفي يوم من الأيام طلب منه الإمام جعفر الصادق عليه السلام أن يناوله كتاباً كان موضوعاً على الطاق، فقال الشيخ أي طاق. قال الإمام عليه السلام أنت عندنا من مدة طويلة ولا تعرف مكان الطاق. قال الشيخ لم آت هنا للنظر إلى الطاق أو الرواق، بل أتيت وكلي نظر إلى قبلة الحق. فأمعن الإمام الصادق عليه السلام نظره فيه وقال: «أرى فيك مجاهدة ومساعدة، **فالمجاهدة سير العبد والمساعدة عناية الحق، فليكن صاحب المجاهدة سياراً، وصاحب العناية طياراً، وأنّى يدرك المريد السيار العارف الطيار،** طر بجناح الارتياح إلى بسطام، وادع إلى سبيل الملك العلام» .

فقال الشيخ: «هب لي خلعة ورفيقاً». فألبسه الإمام جعفر الصادق عليه السلام جبته، وأرسل معه ابنه محمد. فرحل الشيخ إلى بسطام برفقة ابن الإمام عليه السلام. وتوفي محمد في أثناء حياة الشيخ، فدفنه الشيخ في مقام توجد فيه الآن قبة، وكان دائماً يتقرب إلى الله بزيارة تربته المقدسة. وكان بايزيد البسطامي ساقي ماء في بيت الإمام جعفر الصادق عليه السلام ردحاً من الزمن ـ انتهى كلام السيد حسين العالم.

ويقول جنيد البغدادي (قدس سره) : «مثل بايزيد بين العرفاء كمثل جبرائيل بين الملائكة».



أم بايزيد البسطامي
وطفولته

تقول أم بايزيد: «عندما كان بايزيد جنيناً في بطني كلما وضعت لقمة مشتبهة في فمي ضرب برجليه في بطني حتى ألفظ اللقمة من فمي».
سألوه ما هو الأمثل لرجال الله قال: «دولة الله وهو في بطن أمه». قالوا: إذا لم يكن. قال: «قلب عليم». قالوا: إذا لم يكن. قال: «عين بصيرة». قالوا: إذا لم يكن. قال: «أذن سميع». قالوا: إذا لم يكن. قال: «الموت الفجائي».

وفي طفولته أرسلوه إلى الكتّاب كي يدرس القرآن وعندما وصل إلى سورة لقمان وإلى هذه الآية الشريفة: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ سأل المعلم معنى هذه الآية، فأوضح له ذلك. فوقع ذلك في قلبه وقعاً عظيماً، فترك المدرسة وذهب إلى بيته. فقالت له أمه: لم رجعت من الكتّاب؟ قال: «لأني وصلت إلى هذه الآية، وإني لا أستطيع الخدمة في منزلين، فإما أن تطلبي من الله سبحانه وتعالى أن أكون كلي لك وحدك، أو أن تهبيني إلى الله حتى أكون كلي له وحده سبحانه وتعالى». فقالت: «بل وهبتك إلى الله وتنازلت عن حقي فيك».

ترك بايزيد بسطام وذهب إلى بادية الشام، وأمضى فيها ثلاثين عاماً، مارس فيها الرياضات والسهر والجوع الدائم، وتتلمذ على مائة

وثلاثة عشر شيخاً استفاد منهم كلهم. وكان أكبر مشايخه وأعلمهم وأعظمهم وأوقعهم أثراً في حياته الإمام الصادق عليه السلام.

حج بيت الله اثنتا عشرة مرة. وفي المرة الأولى حج إلى الكعبة المشرفة ولم يزر مدينة الرسول ﷺ. وقال: ليس من الأدب أن أزوره كشيء ثانوي بعد زيارة الكعبة، بل علي أن أحرم خصيصاً لزيارته ﷺ. وفي السنة الثانية عندما أحرم خصيصاً لزيارة الرسول ﷺ أتى إلى بلد ورأى هناك حشداً كبيراً من الناس يتزاحمون عليه. قال: «ما بال هؤلاء؟». قالوا: جاؤوا لاستقبالك ومصاحبتك. فرفع يديه إلى السماء وقال: «إلهي لا تدع الخلق أن يحجبوك عني». وأراد ان يخرج محبته من قلوب الناس حتى يتركوه ولا يصاحبوه. فعند الفجر بعد الصلاة خاطبهم قائلاً: «إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدوني». فقالوا: هذا رجل مجنون، وتركوه وذهبوا. وفي الحقيقة تكلم الشيخ بايزيد بلسان الله لا بلسانه، فكان ذلك حكاية عن ربه.

يقول بايزيد: «بعدما انتهيت في السنة الثانية من زيارة المدينة المنورة وزيارة رسول الله ﷺ، خطر على بالي أن أزور أمي في بسطام». فذهب في جمع من أصحابه إلى بسطام. ولما وصل إلى قريته، وكانت شهرته قد طبقت الآفاق وسبقته إلى مسقط رأسه، رأى حشداً كبيراً من أهل المدينة جاؤوا لاستقباله. فأراد أن يصرفهم عنه حتى لا يشغله الناس عن الله. فأخذ قطعة من خبز وأكلها أمام أعين الناس، وكان ذلك في شهر رمضان المبارك. فأعرض الناس عنه وانفضوا عنه وذهبوا. فنظر إلى أصحابه وقال: عندما أخللت في حكم من الأحكام الشرعية لم يطيقوها الناس فانفضوا وذهبوا.

وفي صبيحة اليوم التالي ذهب إلى أمه، وكان ذلك في وقت

السحر. وكانت أمه تتوضأ للصلاة، وسمعها تقول: «يا إلهي احفظ غريبي وابسط عليه عنايتك ورعايتك، وأرض المشايخ عنه وتكرم عليه بأحسن الأحوال». ولما سمع بايزيد ذلك بكى بكاءً شديداً وقرع الباب. فقالت أمه: «من على الباب». قال: «غريبك وقد رجع إليك». فاستقبلته الأم باكية وهي تقول: «أما ترى كيف ذبلت عيوني من البكاء على فراقك، وكيف انكسر ظهري من شدة الهم والحزن عليك!».

روي أنه سألوه: «بماذا وصلت إلى هذه الدرجة والمقام الرفيع؟». فقال: «خرجت ليلاً في طفولتي من قريتي بسطام وكان البدر منيراً والليل ساكنا. فشاهدت جنة مترامية الأطراف لا تتراءى أمامها العالمون إلا كذرة. فأصابتني حرقة وغلبت عليّ حالة عظيمة. قلت: «يا رب! بلاطك بهذه العظمة وليس به أحد! وجنتك بهذه الروعة وبهذا الخفاء!». فسمعت هاتفاً يقول: «بلاطنا خالٍ لا لأن أحداً لا يأتينا، بل لأننا لا نقبل إلا القليل، فليس كل من دب وهب يستحق هذا المقام».



كرامات بايزيد ومعجزاته

ومن كراماته ومعجزاته أنه كان في سفر إلى الحج وكان يضع مؤونته وراحلته على ظهر جمل. فقال أحدهم: «مسكين هذا الجمل حمله ثقيل وهذا ظلم كبير». فقال له بايزيد: «أيها الشاب إن الذي يحمل هذا الحمل الثقيل ليس هو الجمل فانظر جيداً». فنظر الشاب جيداً ورأى أن الحمل الثقيل مرتفع شبراً واحداً عن ظهر الجمل. فقال: سبحان الله هذا شيء عجيب! فقال له بايزيد: «إن كتمت حالي عنكم أطلقتم علي ألسنتكم بالملامة، وإن كشفت حالي لكم لم تطيقوه، لا أدري ماذا أفعل معكم».

وفي ليلة من الليالي كان بايزيد راجعاً من المقبرة، فرأى شاباً من أغنياء بسطام يعزف على العود. ولما اقترب الشاب منه قال بايزيد: «لا حول ولا قوة إلا بالله». فاغتاظ الشاب وضرب بعوده على رأس الشيخ، فانكسر العود ورأس الشيخ كلاهما، ورجع الشيخ إلى محرابه. وفي الصباح أعطى خادمه ثمن العود وطبقاً من الحلوى، وأرسله إلى ذلك الشاب معتذراً قائلاً: «قل للشاب أن بايزيد يعتذر إليك لأنك في الليلة الماضية كسرت عودك على رأسي، فخذ هذا القليل من المال واشتر عوداً آخراً. وخذ هذا الحلوى واكله حتى تذهب عن قلبك مرارة كسرها وغصته». فلما رأى الشاب ذلك ندم ندماً كبيراً وأتى إلى الشيخ تائباً من

عمله وهو يبكي بكاءً كثيراً. واقتدوا به شبان آخرون وتابوا جميعاً ببركة أخلاق بايزيد السامية.

قال أحدهم لبايزيد: «حضرت جنازة فلان في طبرستان ووجدتك هناك، يدك في يد الخضر عليه السلام. وبعد صلاة الجنازة رأوك وقد غادرتنا طائراً في الهواء». فقال الشيخ: «صدقت».

وروي أن جماعة من الناس جاؤوا إلى الشيخ يشتكون من القحطّ وشح السماء وقالوا: «ادع الله ﷻ أن ينزل المطر». فطأطأ الشيخ رأسه قليلاً ثم رفع رأسه قائلاً: «اذهبوا وعدلوا ميازيبكم فإن المطر قد انهمر عليكم». وفي الحال انهمر المطر واستمر ذلك يوماً وليلة.

وروي أن بايزيد كان يوماً من الأيام قد مد رجليه في مجلسه، فمد أحد المريدين رجليه أيضاً. فضم الشيخ رجليه، وأراد المريد أن يضم رجليه أيضاً فلم يستطع. ويقال إنه بقي على هذه الحالة إلى آخر عمره. وذلك لأنه كان يظن أن مد الشيخ رجليه ثم ضمهما عمل كعمل الآخرين. وروي أن بايزيد كان يوماً من الأيام جالساً وهو ضام رجليه. وكان هناك عالم جالس في مجلسه. فنهض العالم من مكانه وداس برجليه فوق رجلي الشيخ. فقالوا له: «أيها الجاهل لماذا فعلت ذلك؟»، فقال: «أما تقولون إنه صاحب الطامات؟»، وبعد ذلك أصابه الجذام في رجليه، ويقال أنه أعدى الجذام إلى عدة من أولاده.

وسألوا أحد الأبرار: «كيف أن أحداً يعصي ثم يعاقب وتنتقل عقوبته إلى الآخرين أيضاً؟»، فقال: «من كان عملاقاً في الرمي كان سهمه أسرع وأبعد».

وروي أن أحد المنكرين جاءه وقال: «اكشف علي مسألة فلانية». فرأى الشيخ إنكاره وجحوده فقال له: «اذهب إلى الغار الفلاني وستجد

هناك أحد أصحابنا واسأله فإنه سيكشف عليك». فقام الرجل وذهب إلى ذلك الغار، فوجد هناك ثعباناً عظيم الجثة مخوفاً مرعباً. فلما رآه فقد وعيه وأنجس ثيابه، وجهد جهداً كبيراً بأن يخرج نفسه من الغار حافي القدمين. ثم رجع إلى الشيخ ورمى بنفسه على قدميه وتاب. فقال له بايزيد: «سبحان الله! إنك لا تتمالك حذائك ولا طهارتك من هيبة مخلوق، فكيف تتمالك نفسك من هيبة كشف الخالق حيث أتيت منكراً جاحداً سائلاً: «اكشف علي المسألة الفلانية»؟.

وروي أن قارئاً من قراء القرآن الكريم كان ينكرعظمة الشيخ، إذ كانت له تلك المنزلة العظيمة والقارئ المسكين قد حرم منها. وكان يقول: «إذا كانت له رياضات وصولات وجولات فأنا أيضاً لي كذلك، ولكنه يقول أشياء عظيمة لا نفهمه!». وكان بايزيد يعرف ذلك. فجاء إليه القارئ يوماً من الأيام وجلس عنده، وتنفس الشيخ عميقاً ثم وجه زفراته صوب القارئ. فأغمي على القارئ ثلاثة أيام وأنجس نفسه. وحينما استفاق اغتسل وجاء إلى الشيخ معتذراً. فقال له بايزيد: «أما تعرف أن حمل الفيلة لا تحمله الحمير؟».

روي أن الشيخ سعيد الميخوراني جاء إلى بايزيد وطلب أن يمتحن الأولياء. فأرسله إلى مريده أبي سعيد الراعي قائلاً: «اذهب إليه فلقد أعطي الكرامات». وجاء سعيد إلى الراعي فوجده يصلي في الصحراء، وكانت الذئاب ترعى غنمه. ولما فرغ من صلاته قال له: «ماذا تريد؟». قال: «عنباً وخبزاً حاراً». وكان للراعي عصاً فشقه نصفين: صوب النصف إلى نفسه والنصف الآخر إلى سعيد. فظهر عنقودان من العنب: أبيض طرف الراعي وأسود طرف سعيد. فقال سعيد: «لماذا عنب أبيض في طرفك وعنب أسود في طرفي؟». فقال له الراعي: «طلبت اليقين وطلبت الإمتحان، فجاء لكل واحد اللون الذي يليقه». فأعطى بساطاً إلى

سعيد وقال له: «احفظه». وحينما جاء سعيد إلى الحج فقد البساط في عرفات. وعند عودته إلى بسطام رأى البساط نفسه عند الراعي.

ومرة كان في خلوته وجذبته فانطلق لسانه بهذه الكلمة: «سبحاني ما أعظم شأني». فلما أفاق من صعقته سألوه مريدوه: «لماذا تلفظت بهذه الكلمة؟». قال: «أقسم عليكم بالله إلا أن تقطعوني إرباً إرباً إن سمعتم مني هذه الكلمة مرة أخرى». ثم أعطى لكل واحد منهم سكيناً وأمرهم إذا تلفظ بهذه الكلمة مرة أخرى أن يقتلوه. واتفق أن نطق بهذه الكلمة مرة أخرى وهو في جذبته. وأرادوا قتله ولكنهم رأوا المكان مليئاً بأشخاص بايزيد يرونه في كلِّ مكان. فكلما طعنوه بالسكين تراءى لهم وكأنما يطعنون في الماء، وبعد هنيهة تنهار تلك الصورة أمام أعينهم. فلما أفاق من صعقته في المحراب شرح الأصحاب له تلك الحالة. فقال الشيخ: «بايزيد هذا الذي أمامكم، أما ذاك فلم يكن بايزيد». ثم قال: «نزه الجبار نفسه على لسان عبده».

سألوا بايزيد: «من كان شيخك؟». قال: «امرأة عجوز رأيتها في الصحراء تحمل طحيناً في جلد خروف، وكنت آنذاك في غلبات الشوق والوجد! فطلبت مني أن أحمل الكيس وكنت لا أستطيع حمل نفسي. فأشرت إلى أسد فجاء إليّ ووضعت الكيس فوق ظهره وقلت للمرأة: إذا أتيت المدينة فقولي لهم من رأيت ـ فلم أرد أن تعرف من أنا. فقالت: أقول لهم أني رأيت ظالماً أحمقاً. فاستغربت من كلامها وقلت لها: «ماذا تقولين؟». فأجابت العجوز: «قل لي هل الأسد مكلف أم لا؟». فقلت: لا. فقالت: «كلفت الذي لم يكلفه الله ﷻ، أليس هذا ظلماً؟». فقلت: بلى. فقالت: «وتريد أن يعرف أهل المدينة بأن الأسد مطيع لك وأنت صاحب الكرامات! أليس هذا حمقاً؟». فقلت: بلى. فتبت إلى الله ونزلت من أعلى إلى أسفل. وهكذا كان كلام شيخي». يقول بايزيد:

«وبعدها إذا تحققت آية أو كرامة على يدي طلبت من الله ﷻ تصديقها. فيظهر في الحال نور أصفر مكتوب عليه بالخط الأخضر: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، نوح نجي الله، إبراهيم خليل الله، موسى كليم الله، عيسى روح الله ـ عليهم الصلوة والسلام. فأقبل الكرامة بهؤلاء الشهود الخمس».

وروي أن درويشاً خجولاً سأله سؤالاً فأجابه بايزيد. فذاب الدرويش من كثرة الحياء. فجاء مريد ورأى ماءً أصفراً واقفاً. فقال: «ياشيخ ما هذا؟». فقال: «جاءني رجل خجول وسألني شيئاً. فلم يطق وذاب من شدة الخجل».

روي أنه حينما أصبح جيش الإسلام ضعيفاً أمام الروم، وكان على وشك الهزيمة، سمعوا هاتفاً يصيح: يا بايزيد أدركنا! فظهر في الحال نار من جانب خراسان فدخل الخوف والهلع في جيش العدو وانتصر جيش الإسلام.



مناجاة بايزيد مع ربه

ومن مناجاته: «إلهي إلى متى يكون بيني وبينك أنا وأنت؟ أزل عني الأنا حتى أعيش بك وأكون أنا شيئاً منسيًّا»[1]. وقال: «إلهي متى كنت معك كنت أوسع من الكل، ومتى كنت مع نفسي كنت أضيق من الكل». وقال: «إلهي فقري وفاقتي أوصلاني إليك ولطفك لم يزلهما». وقال: «إلهي لا أريد أن أكون زاهداً ولا قارئاً ولا عالماً. إذا أردت فاجعلني أهل أسرارك وأوصلني إلى درجة أوليائك».

وقال: «إلهي أدلني[2] حتى أصل منك إليك. إلهي ما أحسن

---

(١) بمعنى ولا أكون أنا شيئاً مذكوراً كما كنت عندما أتى عليّ حين من الدهر.

(٢) بمعنى تكرم عليّ بالدلال عليك. وأطرف شيء قرأته في طفولتي عن دلال المعشوق قول الشاعر:

شكوت فقالت كل هذا تبرماً ... بحبي أراح الله قلبك من حبي
فلما كتمت الحب قالت لشد ما ... صبرت وما هذا بفعل شجي القلب
وأدنو فتقصيني فأبعد طالباً رضاها ... فتعتد التباعد من ذنبي
فشكواي تؤذيها وصبري يسوئها ... وتجزع من بعدي وتنفر من قربي
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها ... أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربي

ويقول حافظ إبراهيم:

أصغت إلى قول الوشاة فأسرفت ... في هجرها وجنت علي وأجرموا
حتى إذا يئس الطبيب وجاءها ... أني تلفت تندمت وتندموا
وأتت تعود مريضها لا بل أتت ... مني تشيع راحلاً لو تعلم

وقال آخر:

إذا ما شكوت الحب كيما تثيبني ... بودي قالت إنما أنت يلمع

(بمعنى الكذاب).

إلهامك على خطرات قلبي، وما أحلى أسلوبك في إفهامي عوالم الغيب، وما أعظم الحالة التي تهبها لي، لا يستطيع الخلق كشفها، ويكل اللسان عن وصفها، وهذه القصة لا نهاية لها». وقال: «إلهي لا أعجب من حبي لك وأنا عبد عاجز ضعيف محتاج. بل أعجب من حبك لي وأنت الله الملك المستغني». وقال: «إلهي كم أنا سعيد معك في خوفي، كيف لا أكون سعيداً معك وأنا في حصن أمنك وأمانك».

وقال: طلقت الدنيا ثلاثاً، ووقفت أمام الله ﷻ مناجيًا: ـ «إلهي ليس لي أحد غيرك، ولأنك لي فكل شيء لي». فلما أدرك أني صادق في مقولتي، كان أول فضله علي أن أزال تفاهات النفس وسفاهاتها عني.

وقال: أمضيت ثلاثين سنة وأنا أدعو الله أن يفعل بي كذا أو يعطيني كذا إلى أن وضعت قدمي الأول في ساحة المعرفة فكان دعائي: «إلهي كن لي وافعل بي ما تشاء»[1]. وقال: ناجيت الله مرة قائلاً: «إلهي كيف السلوك إليك؟»، فجاءني النداء: «أي بايزيد طلق نفسك ثلاثاً ثم قل الله»، وقال: «عبدت الله ثلاثين سنة وعندما سكت نظرت مليًّا وإذا بالذكر هو الحجاب بيني وبين الله».

قال: رأيت الله ﷻ في المنام فقال لي: «أي بايزيد ماذا تريد؟»، قلت: «أريد ما تريد»، قال: «أنا لك كما أنك لي». قال: رأيت الله في المنام وسألته: «كيف الوصول إليك؟». قال: «اترك نفسك تصل إلي».

وقال: «لقد فتحت سبعين عقدة وبقيت واحدة، كلما حاولت جهدي أن أفتحها لم تنفتح. فشكوت إلى الله باكياً: «إلهي هب لي القوة حتى أفتح هذه العقدة». فسمعت النداء: «أي بايزيد لقد فتحت كل العقد إلا هذه فلا طاقة لك بها».

---

(١) تولني كما تتولى الصالحين من عبادك.

وصعد مرة إلى سطح الصومعة[1] كي يذكر الله سبحانه وتعالى ويناجيه. فوقف على الحائط وبقي واقفاً هناك إلى الفجر صامتاً لا يذكر الله. وفي الصباح نظروا وإذا بالدم قد نزف منه بدل البول. فسألوه ما هذه الحالة؟ قال: «بقيت صامتاً طول الليل لسببين: **أولهما** أني كنت قد نطقت بكلمة في طفولتي، **وثانيهما** أن عظمة الخالق قد هيمنت علي وبقيت حيراناً مذهولاً، فإن بقي قلبي حاضراً كل لساني، وإن تحرك لساني خرجت من حضور القلب». فأمضيت الليل طوله في هذه الحالة.

وكان إذا أراد أحد منه دعاء قال: «يا إلهي ها هي هموم خلقك وأنت خالقهم، ومن أنا حتى أكون واسطة بينك وبين خلقك؟». وكان يقول لنفسه: «هو العالم بالأسرار فمن أنا حتى أتطفل عليه».

وقال: «حينما وصلت إلى مقام القرب والزلفى قالوا لي: «اطلب». فقلت: «لا طلب لي، بل اطلب لي أنت، فأنا أريدك أنت وحدك». فقالوا لي: «هذا محال ما دامت هناك ذرة باقية من بايزيد، **دع نفسك وتعال**». فقلت: «أتجاسر! لا أرجع من دون زلة». فقال: «لا تثريب عليك قل ما تشاء». فقلت: «ارحم كل الخلائق». فقال: «ارجع البصر كرة أخرى». فنظرت فلم أجد مخلوقاً لا شفيع له، ورأيت الحق تعالى أشفق عليهم مني أضعافاً مضاعفة. فسكت ثم قلت بعد ذلك: «ارحم إبليس». فقال: «اسكت لقد تجاسرت! فإنه خلق من النار ولا يستحق النار إلا النار. واجهد جهدك أن لا تميل إليه حتى لا تستحق النار فإنه لا طاقة لك بها».

ويروى أنه كان قائماً طول الليل على أصابع رجليه من صلاة العشاء إلى صلاة السحر. وشهد خادمه تلك الحالة، وكان الدم ينزف من

---

(١) الخانقاه.

عين الشيخ وينسكب على التراب. فتعجب كثيراً، وفي الصباح سأل الشيخ عن ذلك قائلاً: «ما هذه الحالة؟ اعطنا نصيباً منها». فقال بايزيد: خطوت خطوة ووصلت إلى العرش فقلت له: «أنت الذي قيل فيك: الرحمن على العرش استوى». فقال العرش: «ما هذا الحديث! أما قيل فيك: أنا عند المنكسرة قلوبهم»؟

وقال (قدس سره): «أهل السماء يطلبون من أهل الأرض، وأهل الأرض يطلبون من أهل السماء، والشيوخ يطلبون من الشبان، والشبان يطلبون من الشيوخ، والمطيع يطلب من العاصي، والعاصي يطلب من المطيع».

وروي أن أحداً كان يتنصت على الشيخ في وقت السحر. فسمع الشيخ يقول: «الله». ثم أغمي عليه وجرى الدم منه. فسألوا: «ما معنى هذه الحالة؟». فقال: «جائني النداء: من أنت حتى تتحدث بذكرنا؟».

وقال (قدس سره): بعد رياضات أربعين سنة ومجاهداتها كشفوا لي الستار في إحدى الليالي. فبدأت بالبكاء والنحيب والصراخ كي يسمحوا لي بالدخول. فجاء النداء: «لا نسمح لك ما دمت تحمل جرة وقطيفة». فرميت الجرة والقطيفة، ثم سمعت النداء: «يا بايزيد قل لهؤلاء المدعين: إن بايزيد بعد أربعين سنة من الرياضات والمجاهدات حظي بمقابلتنا بعد أن رمى بعيداً جرة مكسورة وقطيفة بالية. كيف يسمح لكم وأنتم بهذه العلائق التي كبلتكم، والطريقة التي جعلتموها مصيدة هوى النفس! كلا وحاشا! ليس لكم إلى وصال الرب سبيل.

وقال: «لقد تمنيت في طول عمري أن أصلي لله ما هو أهله. وفي إحدى الليالي كنت أصلي من وقت العشاء إلى الصباح أربع ركعات، وفي كل مرة أقول: يجب أن تكون الصلاة أحسن منها، إلى أن اقترب

وقت الصبح ولم تتحقق تلك الصلاة. فقلت: إلهي لقد حاولت جهدي أن أصلي لك ما أنت أهله، ولكني لم أنجح فكانت صلاتي لبايزيد ما هو أهله. ولديك الكثير من غير المصلين، فاحسب بايزيد واحداً منهم».

وقال: «إذا طلب ربي مني حساب سبعين سنة طلبت منه حساب سبعين ألف سنة وهو يقول: «ألست بربكم؟». والعالمون في هياج وتلاطم من قول «بلى». وقد هاجت وماجت السماوات والأرضون من شوق «ألست». ثم جاءني الجواب قائلاً: ستحظى كل ذرات وجودك التي لا تعد ولا تحصى بلقائي، وأقول لك هذا هو حساب سبعين ألف سنة».

يروى أنه قال (قدس سره): أحضرني ربي عنده في ألفين مقام، وعرض علي في كل مقام ملكاً، ولكني لم أقبل! وأخيراً قال لي: «ماذا تريد يا بايزيد!». فقلت له: «مقام من لا يريد شيئاً».

وقال: هتف بي هاتف قائلاً: **«يا بايزيد خزائننا مليئة من الطاعات والخدمات المقبولة. إذا طلبتنا فأتنا بشيء ليس عندنا». فقلت: «يا إلهي ما هذه الأشياء التي ليست عندك؟». فقال الله ﷻ: «المسكنة والعجز والحاجة والذل والإنكسار».**



جذبات بايزيد البسطامي

الجذبات الرحمانية يمكن أن يعبر عنها بالتحليق في الملكوت أو تجلي نور الذات، أو الاستقرار في عالم التوحيد أو مقام الفناء أو مقام كلمة الله أو مرآة الحق وغيرها. ولكن أقرب شيء إلى ذهن الإنسان العادي وفهمه هو الكلمات التي ينطق الله بها على لسان عبده الصالح في حال جذبته. يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «**أم كيف أترجم بمقالي وهو منك برز إليك**». فإن كلمات الصدق تعبر عن واقع الصدق وعن التحليق في الملكوت وتجلي نور الذات وغيرها.

وما وجدت جذبة رحمانية في شكل كلمات أبلغ من دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام الذي قرأها في حال جذبته عليه السلام يوم عرفة على سفح جبل عرفات. ففي هذا الدعاء الشريف يفصح الله تعالى على لسان عبده عن أسرار الوجود الإنساني بكل تفاصيلها.

والدعاء الثاني هو المنظومة العينية المعروفة من مناجاة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والتي أنشدها عليه السلام في جذبته الرحمانية، ونسطر بعض أبياتها في آخر هذا الفصل.

قالوا لبايزيد البسطامي (قدس سره): «لماذا لا تصلي الليل؟». قال: «لا أفرغ للصلاة، فإني أحلق في الملكوت، وكلما رأيت متعثراً مددت

إليه يد العون». يعني أنه يعمل في باطنه ويستغرق في جذبته، فهي تعادل عبادة الثقلين. وقال: «من تجلى عليه نور ذاته سار إلى علم الأزل».

وقال: «خرجت من نفسي كما تخرج الحية من جلدها. فوجدته في عالم التوحيد هو العاشق والمعشوق». وقال: «جاء النداء مني إلي: يا أنت يا أنا» ـ يعني وصلت إلى مقام الفناء في الله. وقال: «اجتزت الآلاف من المقامات فنظرت فوجدت نفسي في مقام كلمة الله» ـ يعني لا سبيل إلى كنه الله. وقال: «كان الله تعالى مرآتي لمدة ثلاثين سنة وأنا الآن مرآة نفسي» ـ يعني لم يبق «أنا» في وجودي لأن وجودي مع الحق شرك. وعندما فنيت صار الحق تعالى مرآة نفسه. فالذي أقوله «أنا الآن مرآة نفسي» إنما هو الحق تعالى ينطق بلساني وأنا قد اختفيت من الوجود.

وقال: «كنت أجاور بلاط الملك لسنوات. وأخيراً لم يبق لي إلا الهيبة والحيرة». وقال: «كنت في بلاط العزة فلا كلل ولا ملل. كان أهل الدنيا مشغولين بدنياهم ومحجوبين، وكان أهل الآخرة في شغل بآخرتهم، والمدعون بدعواهم، وأصحاب الطريقة بعضهم يأكلون ويشربون وبعضهم في سماع ورقص. أما الذين كانوا رواد المعرفة فقد ضاعوا في بادية الحيرة وغرقوا في بحر العجز».

وقال (قدس سره): «طفت حول الكعبة مدة طويلة، ولما وصلت إلى ربي وجدت الكعبة تطوف حولي». وقال: «في ليلة من الليالي كنت أبحث عن قلبي. وفي وقت السحر سمعت هاتفاً يقول: أي بايزيد! أتبحث عن شيء غيرنا، ماذا يجديك قلبك؟»، وقال: «أوصلني ربي إلى مقام كنت أجد الخلائق طراً بين إصبعين من أصابعي».

وقال: «ربما زارنا أحد فلم يجن إلا اللعنة، وربما أتانا أحد وكان

حصاده الرحمة». فقالوا: «كيف ذلك؟». فقال: «ربما زارني أحد وقد غلبتني الجذبة واغتابني فوقع في اللعنة. وربما أتاني أحد وقد غلبتني الجذبة فأعذرني فكان حصاده الرحمة».

وكان (قدس سره) في أغلب الأوقات مستغرقاً في جذباته الرحمانية. حتى أنه كان له مريد قد لزمه لمدة عشرين عاماً لم يفارقه قطّ. وكان الشيخ في كل يوم يناديه: «ما اسمك يا ولدي؟». فقال المريد يوماً لشيخه: «أنا منذ عشرين سنة في خدمتك ولم أفارقك، وكل يوم تسألني عن اسمي؟». فقال بايزيد: «يا ولدي لا أستهزء ولا أتهكم بك ولكن اسمه غلبني وأزال عن قلبي كل الأسماء. أتعلم اسمك ثم أنساه».

وروي أن بايزيد قال: «لما ذهبت إلى الحج لأول مرة وجدت الكعبة. ولما حججت للمرة الثانية وجدت رب الكعبة سبحانه وتعالى. ولما حججت للمرة الثالثة لم أجد الكعبة ولا رب الكعبة». ويعني بذلك أنه استغرق في الحق تعالى وغاص في جذباته، حتى لم يعلم ولم يجد شيئاً. والدليل على ذلك أن أحداً طرق بابه فقال الشيخ: «من تريد؟». فقال: «أريد بايزيد». فقال: «ليس في البيت إلا الله». وجاءه أحد وطرق بابه. فقال الشيخ: «من تريد؟». قال: «أريد بايزيد». فقال: «مسكين بايزيد! أطلبه منذ ثلاثين سنة ولا أجد له أثراً». فنقلوا هذا الكلام إلى ذي النون المصري فقال: «غفر الله أخي بايزيد فإنه مع جماعة ضاعوا وذابوا في الله ﷻ».

وروي أنه عندما كان يتكلم في صفات الحق تعالى تملكته السكينة والسعادة والهدوء. وعندما كان يتكلم في ذاته فقد وعيه وأصابه الارتعاش ويقول: «جاءني جاءني!» .

زاره أحد العلماء فرآه مستغرقاً في أفكاره، وعندما رفع رأسه

سأله: «أي شيخ ماذا كنت تفعل؟». فقال: «استغرقت في فنائي ورفعت رأسي في بقاء الحق تعالى».

وسمع يوماً الخطيب على المنبر يقرأ هذه الآية الشريفة: «وما قدروا الله حق قدره». وكان بايزيد جالساً بمحاذاة المنبر فضرب برأسه على المنبر حتى أغمي عليه. وعندما أفاق قال: «يا رب إذا كنت تعرف ذلك فمن أين أتيت بهذا الكذاب الذي يدعي معرفتك؟». وقال: «كنت في الصحراء فأمطر العشق فابتلت الأرض واهتزت وربت، فغاص رجلي في العشق كما يغوص في الثلج». نعم أمطر العشق وابتل كل وجوده واهتز وربا، فغاصت كل ذرات وجوده في العشق والهيام بمحبوبه، ومن أعظم من بايزيد عاشقاً:

أيها السائل عن وجدي بها	إنه أعظم مما تزعم
ولقد حدثت عن شرح الهوى	أنت يا رب بحالي أعلم
طال ما ألقاه من نار الجوى	وحديثي لك يا من يفهم
عشق الناس ومثلي لم يكن	فاعلموا أني فيهم علم
سطرت قبلي أحاديث الهوى	وبمسك من حديثي تختم



وروي أنه زاره أحد وكان بايزيد مستغرقاً في نفسه. وحينما أفاق سأله الرجل: أين كنت؟ فقال: «كنت عند الله». فقال الرجل: «الساعة كنت عند الله ولم أجدك هناك». فقال الشيخ: «صدقت كنت وراء الستار، وكنت أنت خارج الستار، ومن كان خارج الستار لا يرى من هو داخل الستار» ـ أي أن أهل الظاهر لا يرون أهل الباطن. وأنّى للمادي أن يرى الملكوتي وأن يعرف شيئاً عنه! وأنّى لأهل الأرض أن يدركوا أهل السماء!

وهاكم المنظومة العينية من مناجاة علي عليه السلام والتي يفصح الله تعالى على لسان عبده، في حال جذبته، عن أسرار الإنسان من ذله وفقره وفاقته وحاجته ومسكنته وضعفه وقلة حيلته، ومن ثم عن فضل الله تعالى ورجائه وعفوه عنه وصفحه عن ذنوبه وطوله وإقالة عثرته وروحه وراحته ورعايته له:

إلهي ترى حالي وفقري وفاقتي ... وأنت مناجاتي الخفية تسمع
إلهي فلا تقطع رجائي ولا تزغ ... فؤادي فلي في سيب جودك مطمع
إلهي لئن لم ترعني كنت ضائعاً ... وإن كنت ترعاني فلست أضيع
إلهي لئن فرطت في طلب التقى ... فها أنا إثر العفو أقفو وأتبع
إلهي لئن أخطأت جهلاً فطالما ... رجوتك حتى قيل ما هو يجزع
إلهي ذنوبي بذت الطود واعتلت ... وصفحك عن ذنبي أجلَّ وأوسع
إلهي ينحي ذكر طولك لوعتي ... وذكر الخطايا العين مني يدمع
إلهي أقلني عثرتي وامح حوبتي ... فإني مقر خائف متضرع
إلهي أنلني منك روحاً وراحة ... فلست سوى أبواب فضلك أقرع
إلهي لئن أقصيتني أو أهنتني ... فما حيلتي يا رب أم كيف أصنع
إلهي حليف الحب في الليل ساهر ... يناجي ويدعو والمغفل يهجع
إلهي يمنيني رجائي سلامة ... وقبح خطيئاتي علي يشنع
إلهي فإن تعفو فعفوك منقذي ... وإلا فبالذنب المدمر أصرع



وصايا بايزيد ومجاهداته

ومن وصاياه: أن مريداً من مريديه قد عزم على حج بيت الله الحرام وطلب من الشيخ وصية. فقال له: «أوصيك بثلاثة خصال: إذا تعامل معك سيئ الخلق فقابل سوء خلقه بحسن خلقك حتى تهنأ في عيشك، وإذا أنعم عليك أحد فاشكر ربك أولاً وبعد ذلك اشكر ذلك المنعم الذي أودع الله في قلبه الشفقة عليك، وإذا أصابك بلاء فاعترف فوراً بعجزك واستغث ربك لضعف صبرك فإن الله لا يخاف شيئاً».

طلب أحد منه وصية. فقال له بايزيد: «انظر إلى السماء». فنظر السائل إلى السماء. قال: «هل تعلم من خلقه؟». قال السائل نعم. قال بايزيد: «إن الذي خلقه مطلع عليك أينما كنت فاحذر منه».

وجاء رجل إلى بايزيد وقال: «علمني شيئاً حتى يكون سبب فلاحي». فقال: «تعلم شيئين: أن تعلم أن الله تعالى مطلع عليك وهو يرى كل ما تفعله، وأن تعلم بأن الله تعالى مستغن عن أعمالك».

وكان بايزيد يوماً يمشي، وإذا بشاب يمشي وراءه ويحتذي به حذو النعل بالنعل ويقول: «هكذا يكون الاحتذاء بالشيخ حذو النعل بالنعل». وكان الشيخ يلبس جبة من الصوف فقال له الشاب: «اعطني قطعة من جبتك حتى أتبرك بها». فقال له بايزيد: «إذا لبست جلدي لا ينفعك ذلك حتى تعمل ما يعمله بايزيد».

وقال بايزيد (قدس سره) وهو يحكي عن طريقه الشاق الشائق في السير والسلوك: «**كنت حداد نفسي لمدة اثنتي عشرة سنة، وضعتها في فرن الرياضة، وأشعلت عليها نار المجاهدة، ووضعتها على سندان المذمة، وطرقت عليها بمطرقة الملامة، حتى صنعت منها مرآة. وفي السنوات الخمسة التالية كنت مرآة نفسي أنظفها بأنواع الطاعات والعبادات. ثم نظرت في نفسي فوجدت فيها عقدة من الغرور والتباهي والعجب والاعتماد على الطاعة والأعمال. وفي السنوات الخمسة التالية حاولت جهدي أن أتجاوز تلك العقبة الكأداء وأسلمت إسلاماً جديداً. ثم نظرت فوجدت الخلق أمواتاً وكبرت عليهم أربعاً ومررت على جنائزهم، وبعيداً عن معاناة مخالطة الخلق وبعون الحق وصلت إلى الحق**».

نعم العقبة الكأداء وما أدراك ما العقبة الكأداء!

ويحضرني الآن ما قاله سلمان الفارسي ﷺ لسعد بن أبي وقاص حين زاره في وقت احتضاره بالمدائن وقد سأله الوصية. فقال ﷺ: «اذكر الله عند همك إذا هممت، وعند لسانك إذا حكمت، وعند يدك إذا قسمت». فجعل سلمان يبكي. فقال له سعد: يا أبا عبد الله ما يبكيك؟ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إن في الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون**. وأرى هذه الأساود حولي». فنظروا فلم يجدوا في البيت إلا إداوة وركوة ومطهرة[1].

وأتذكر أيضاً ما قاله أبو ذر الغفاري ﷺ لذلك الغلام حين أهانه قائلاً: «لو كنت طيباً لما أخرجك عثمان من المدينة». فقال له ﷺ: «إن أمامي عقبة كأداء إذا اجتزتها لم أبال بما تقول، وإن لم أجتزها فأنت صادق فيما تقول».

---

(١) المسعودي في مروج الذهب ٢/٣٠٦.

سألوا بايزيد البسطامي (قدس سره): «بأي شيء وصلت إلى ما وصلت إليه؟». قال (قدس سره): «**جمعت الزبارج من متاع الدنيا، وربطتها بسلاسل القناعة، ووضعتها في منجنيق الصدق، ثم قذفت بها في بحر اليأس**».

وقال (قدس سره): «لم آكل ما يأكله البشر لمدة أربعين سنة»، ويعني ذلك أن قوته كان من مكان آخر.

وقال: «منذ ثلاثين سنة متى ما ذكرت ربي غسلت وطهرت فمي ولساني ثلاثاً تعظيماً لربي». سأله أبو موسى: «ما هو أصعب شيء لقيت في هذا الطريق؟». قال: «**كنت أسحب نفسي إلى بلاط الملك الحق المبين مدة طويلة وهي باكية. وحينما وصلني المدد من الله تعالى كانت نفسي تحملني إليه وهي ضاحكة فرحة**».

وروي أنه قال: «كنت في ليلة من الليالي في الصحراء وقد غطيت رأسي بالخرقة، فاحتلمت وكان الجو قارساً. فأردت أن أغتسل فرأيت نفسي تتكاسل قائلة لي: «اصبر حتى الغد واغتسل عندما تطلع الشمس». وشعرت أن صلاة الفجر ستقضى إن أنا لم أغتسل. فشرعت أكسر الثلج بالخرقة، واغتسلت بالثلج، وبقيت في الخرقة وكانت قد تجمدت من البرد القارس. وبت بهذه الحالة حتى دبت في السخونة شيئاً فشيئاً. وأمضيت الشتاء في هذه المعاناة عقاباً لنفسي حتى أني كنت أفقد وعيي سبعين مرة».

وسألوه: «أخبرنا عن مجاهداتك». فقال: «إذا ذكرت كبراها فلن تطيقوها، فدعوني أخبركم عن صغراها: أمرت نفسي يوماً بعمل فعاندتني فلم أسقها الماء عاماً واحداً. قلت لها: إما أن تطيعيني أو تموتي من العطش».

وقال (قدس سره): «راقبت قلبي أربعين سنة، ولما نظرت في نفسي

مليًّا رأيت عقدة الشرك لا زالت عالقة». وكان شركه عبارة عن ميله إلى سوى الله أو ارتباطه القلبي بغير الله ـ ولو كان بمقدار مثقال ذرة من خردل ـ لأن القلب الذي لا شرك فيه لا ترى فيه بالإطلاق ميلاً لغير الله أو ارتباطاً بغيره، وما يزال الشرك باقياً حتى ينقشع كل ميل إلى سوى الله تعالى وكل ارتباط قلبي بغيره.

وقال: «راقبت قلبي أربعين سنة ثم نظرت مليًّا فرأيت أن العبودية والألوهية كلاهما من الله». وقال: «كنت أطلب الله ﷻ ثلاثين عاماً، ثم نظرت مليًّا فوجدت أنه الطالب وأنا المطلوب».

وقال: «عاديت الدنيا واقتربت من الخالق واخترته على المخلوقات، واستولى حبه عليّ حتى عاديت نفسي، واختفى الكلل والملل، وأنست ببقاء لطفه وكرمه». وقال: «ذكرته بقدر ذكر الخلق كله إلى أن صار ذكري ذكره، فهاجت معرفته فيّ حتى فنيت، ثم هاجت كرة أخرى فحييت».



حكايات بايزيد
عن نفسه

كان بايزيد يوماً يمزمز شفتيه ويهمس بالحقيقة المطلقة قائلاً: «أنا الشراب وأنا الشارب وأنا الساقي». وقال: «مثلي كمثل البحر لا يدرك غوره ولا يعرف أوله ولا آخره». وسألوه: «ما هو العرش؟» قال: «أنا». قالوا: «ما هو الكرسي؟». قال «أنا». قالوا: «وما هو اللوح والقلم؟». قال: «أنا». قالوا: «يقولون إن لله عباداً هم أبدال إبراهيم وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام». قال: «كلهم أنا». قالوا: «يقولون إن لله عباداً هم أبدال جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام». قال: «كلهم أنا». فسكت الرجل فقال له بايزيد: **«نعم من كان محواً في الحق وصل إلى حقيقة كل شيء»** .

وقال: «إن الخلق يظنون أني مثلهم، ولو اطلعوا على صفتي في عالم الغيب لهلكوا». وقال: «ما وجدت عقوبة أشد على بدني من الغفلة، **وإن نار جهنم لا تفعل بالرجال ما تفعله ذرة من الغفلة»**.

قالوا: «هل تمشي على الماء؟». قال: «العيدان تمشي على الماء». قالوا: «هل تطير في الهواء؟». قال: «الطير يطير في الهواء». قالوا: «هل تذهب إلى الكعبة في ليلة؟». قال: «الساحر يذهب من الهند إلى دماوند

في ليلة». قالوا: «فما بال رجال الله؟». قال: «رجال الله عباد لم تتعلق قلوبهم بغير الله».

وقال: «أمر الله تعالى بالخلعة لكل من أطاعه، فانشغلوا بالخلعة. أما أنا فلم أرد منه إلا هو». قال: «ظننت أني أحبه، فلما نظرت مليًّا رأيت أن حبه لي أسبق». وقال: «أخذ الناس العلم من الأموات وأخذنا العلم من الحي الذي لا يموت». وقال: «كل ينطق بالحق وأنا أنطق عن الحق». وقال: «أخذوا قلبي إلى السماء وحلقوا به في الملكوت ولما رجع سألته: ماذا أتيتني به من السماء؟ قال: المحبة والرضا فهما الملكان المهيمنان على كل شيء».

سألوه: كم عمرك؟ قال: «أربع سنوات». قالوا: كيف ذلك؟ قال: «كنت في حجب الدنيا سبعين سنة، ومنذ أربع سنوات وأنا أراه، ولا تسألوني كيف، فقد ولى حجاب العمر». قالوا: «تعظنا بالزهد والعبادة ولا نرى فيك كثرة الزهد والعبادة». فصاح الشيخ: «لقد انشقت حجب الزهد والعبادة عني».

قالوا: «ما أكثر ما سمعنا كلام العرفاء والأولياء ولكن لم نسمع كلاماً أعظم من كلامك». فقال: «هم في بحر الصفا يتعاملون معه، ولكني ترجمان بحر الصفا. هم الماء العكر، ولكني الماء الزلال الخالص. والماء العكر لا يطهر الماء العكر. هم قالوا: (أنت وأنا) وأنا أقول: (أنت وأنت)».

يقول بايزيد (قدس سره): «كنت جالساً يوماً فخطر على بالي أني اليوم شيخ زماني وعظيم عصري. فلما رجعت إلى نفسي علمت ما هو الخطأ الكبير الذي وقعت فيه. فقمت من مكاني وذهبت في طريق خراسان. وفي الطريق أقمت في منزل، وعهدت الله أن لا أنزح عنه، حتى يبعث الله

إلي من يعرفني بنفسي. فأقمت هناك ثلاثة ليال وثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع رأيت رجلاً أعور راكباً على حمار. وعندما نظرت إليه بدا لي أني أعرفه. فأشرت على ناقتي التي أركبها أن توقفي. وفوراً غاصت أرجلها في الأرض. فنظر ذلك الرجل إلي وقال: «ستعرفني في لمحة بصر عندما أغرق بسطام وأهل بسطام وبايزيد معاً». قال: ففقدت وعيي. وحينما أفقت سألته: «من أين أتيت؟». قال: «قطعت ثلاثة آلاف فرسخ لملاقاتك منذ أن قطعت على نفسك العهد». ثم قال: «احذر يا بايزيد واحفظ قلبك». ثم أعرض عني وذهب».

سألوه عن الزهد فقال: «الزهد لا قيمة له فإني كنت زاهداً ثلاثة أيام: في اليوم الأول كنت زاهداً في الدنيا، وفي اليوم الثاني كنت زاهداً في الآخرة، وفي اليوم الثالث كنت زاهداً في كل ما سوى الله. فجاء النداء: «أي بايزيد أنت لا تطيقنا». فقلت: «هذا الذي أريده». فجاء النداء: «لقد وجدته لقد وجدته».

وقال: «رغب ربي في رؤيتي ولم أرغب في رؤيته» ـ يعني لا رغبات تذكر في رجال الله. وقال: «أقبلت أربعين عاماً على الناس أدعوهم إلى الله فلم يستجيبوا. ثم ذهبت عنهم إلى الله فوجدت الناس قد تقدموني إلى الحق» ـ يعني وجدت عناية الله في حق خلقه أكثر من عنايتي بهم. فالذي كنت أريده سهله الله بمحض عنايته، فجاء الناس إلي أفواجاً. وقال: «عبدت الله ثلاثين سنة وعندما سكت نظرت فوجدت أن ذكري حجاب بيني وبين ربي».

وروي أنه في يوم من الأيام كان ينطق بالحقائق، وتنصت إليه أحد مريديه وكان جالساً قريباً منه وهو يمزمز شفتيه هامساً: «أنا الشراب وأنا السكران وأنا الساقي».

وقال: «أردت أن أطلب من الحق تعالى أن يكفيني مؤونة النساء. فقلت في نفسي: لا يجوز ذلك لأن النبي الأكرم ﷺ لم يطلب ذلك. فكان تعظيمي لحرمة النبي الأكرم ﷺ سبب تساوي المرأة والجدار في عيني».

وقال: «ليت القيامة أسرعت في القيام حتى أضع خيمتي في طرف الجحيم، فإذا عاينتني أصابها الذل، وكنت سبب راحة الخلق». فنويت أن أشفع للخلائق طراً، فتذكرت أن مقام الشفاعة مختص بمحمد ﷺ فحفظت حرمته. فجاءني الجواب: «لأنك عظمت حرمة محمد ﷺ سنرفع اسمك حتى يسموك إلى يوم القيامة سلطان العارفين بايزيد!».

ورأى أحد المريدين بايزيد وهو يرتعش فقال: «يا شيخ لماذا هذا الارتعاش؟». فقال الشيخ: «تحتاج إلى ثلاثين سنة سيراً في طريق الصدق والإخلاص وتخضيب شعرك بالمزابل ووضع رأسك على منكبي الحزن حتى تتعرف على حركات الرجال. أتريد معرفة أسرار الرجال في يوم أو يومين؟».

وقال: «في الظاهر ليس من الصلاة إلا الوقوف وليس من الصوم إلا الجوع. والذي وصلت إليه هو من فضل الله تعالى لا من أفعالي». ثم استطرد قائلاً: «لا يمكن الوصول إلى الله ﷻ بالجهد وكسب العلوم، ولقد آتاني الله تعالى بفضله حظًّا عظيماً إذ وصلت إلى ما وصلت إليه. والعبد المحظوظ من يسير في الطريق فتغوص رجلاه فجأة في الكنز ويصبح مقتدراً».

وقال (قدس سره): «**أنا في درجة من الكمال في الرضا بحيث لو خلدوا عبداً في أعلى عليين وخلدوني في أسفل سافلين لكنت أرضى من**

ذلك العبد»[1]. وقال: «إذا دخلت الجنة ولم أجده سأصرخ وأبكي حتى ينسوا أهل الجحيم عذابهم من شدة صراخي وبكائي ونحيبي».



(١) هذه الحقيقة الصادقة الناصعة بالإضافة إلى حقائق صادقة ناصعة أخرى ودرر من الحكمة لا يبلغ مداها تؤهله بأن يسمى «سلطان العارفين». وعندما كنت في حرم الإمام الرضا عليه السلام في يوليو ٢٠٠٨ قريباً جداً من ضريحه المبارك تيقنت بأن الحوائج مستجابة في هذا المقام المقدس، فاستحييت أن أسأل الله تعالى حوائج الدنيا فسألته ما هو أعلى وأسمى من ذلك بكثير وهو مقام كمال الرضا الذي كان يحظى به الإمام الرضا عليه السلام وبايزيد البسطامي فسألته سبحانه وتعالى شعراً:

أطالب ربي كمال الرضا ... بحق علي بن موسى الرضا
بحق الإمام التقي النقي ... ومن اسمه في العالمين الرضا

حكاياته مع عرفاء عصره

وأرسل ذو النون المصري إليه مريداً لخدمته، وأرسل معه رسالة تقول: «أي بايزيد تنام الليل كله وأنت مرتاح البال وقد مرت القافلة ولم تلحق بهم». فأرسل إليه بايزيد يقول: «قل لذي النون إن الرجل الكامل ينام الليل كله ويصل إلى المنزل في الصباح قبل وصول القافلة». فلما سمع ذو النون ذلك بكى وقال: «مبارك له هذه الأحوال السامية، فإننا لم نصل إلى رتبته بعد، ويستلزم ذلك اتباع الطريقة والسير والسلوك الباطني».

وأرسل إليه أحمد بن حرب حصيراً حتى يصلي الشيخ ويقوم الليل عليه. فقال بايزيد: «جمعت عبادات أهل السماء والأرض ووضعتها في وسادتي تحت رأسي». روي أن ذا النون المصري أرسل إلى الشيخ مصلى. فأعاده بايزيد قائلاً: «ماذا أفعل بالمصلى؟ أرسل لي مسنداً حتى أستند إليه». فلما سمع ذو النون المصري ذلك أرسل له مسنداً. وكان بايزيد في ذلك الوقت قد أصبح نحيفاً جداً ولم يبق عليه إلا الجلد والعظم. فأعاد المسند إليه قائلاً: «من كان مسنده لطف الله وكرمه لا يحتاج إلى مسند المخلوق».

ذكروا عند أبي نصر القشيري أن بايزيد قال: «في ليلة من الليالي أردت أن أطلب من كرم الربوبية أن يتغمد بغفرانه جرائم الأولين والآخرين، ولكني استحييت أدباً من أن أعرض على الكريم حاجتي،

وأطلب منه مقام الشفاعة الذي هو مقام صاحب الشريعة. فقال القشيري: «بهذه الهمة نال ما نال».

قال حاتم الأصم لمريديه: «من لم يشفع منكم يوم القيامة أهل الجحيم فهو ليس مريدي». فأخبروا بايزيد بذلك. فقال: «قولوا له أن بايزيد يقول: مريدي من جلس في طرف الجحيم، وكلما أوتي بأحد يوم القيامة إلى جهنم أخذه بيده وأوصله الجنة، وذهب مكانه إلى الجحيم».

سأله أبو موسى يوماً: «كيف تمضى صباحك؟». فقال الشيخ: «لا صباح عندي ولا مساء» ـ يعني يتساوى عندي الصباح والمساء.

روي أن شقيق البلخي وأبا تراب النخشبي جاءا إلى الشيخ، فأكرمهما الشيخ فدعا بطعام. وكان أبو تراب صائماً وكذلك شقيق. ولكن أحد مريدي بايزيد أصر عليهما قائلاً لأبي تراب: «افطر حتى أهبك ثواب شهر واحد». فقال: «لا أفطر من صومي». ثم قال لشقيق: «افطر حتى أهبك ثواب سنة واحدة». فقال: «لا أفطر من صومي». فقال بايزيد: «دعوه فإنه رجيم» ـ يعني بذلك المريد. ولم تمض فترة حتى مسكوه باتهام السرقة وقطعوا يديه.

وكتب يحيى معاذ الرازي إلى بايزيد: «ماذا تقول في عبد احتسى جرعة من الشراب من قدح، وأصبح سكران الأزل والأبد؟». فكتب إليه بايزيد شعراً:

شربت الحب كأساً بعد كأس فما نفذ الشراب ولا ارتويت

يعني أنا أشرب ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[1]، أي أن بايزيد يشرب في كل يوم وليلة بحرالأزل والأبد ثم يصيح هل من مزيد.

---

(١) سورة الدهر أو الإنسان، الآية: ٦.

وكتب إليه يحيى يوماً: «إن بيني وبينك يا بايزيد سراً، ولكن موعدنا الجنة وتحت شجرة طوبى». وأرسل له قرصاً من الخبز قائلاً: «يجب أن يأكل الشيخ هذا القرص من الخبز، فإني قد عجنته بماء الزمزم».

فباح بايزيد له بذلك السر وقال: «الجنة وشجرة طوبى في حضور الحق. ونحن لم نأكل ذلك القرص من الخبز لأنك ذكرت بأنك عجنته بماء الزمزم، ولم تقل من أي بذر زرعته». فلما سمع يحيى ذلك غلب عليه الشوق، وذهب لزيارة بايزيد، ووصل هناك عند صلاة العشاء.

يقول يحيى: «لم أرد إزعاج الشيخ إلى صباح اليوم التالي. وسمعت بأن الشيخ منشغل بالعبادة في المقبرة. فذهبت إلى المقبرة ورأيت الشيخ هناك واقفاً على إبهامي رجليه حتى الفجر. تعجبت من عمله هذا وكنت أستمع إلى ما يقوله. وكان طول الليل مستغرقاً في الحديث مع ربه. وعندما طلع الصباح سمعته يقول: أعوذ بك أن أسألك هذا المقام». فتقدم يحيى إليه وسلم عليه وسأله عما حدث له في الليلة الماضية. فقال بايزيد: «عرضوا علي عشرينا ونيفاً من المقامات. قلت: لا أريد ذلك. فكل هذه المقامات حجاب».

وكان يحيى مبتدئاً وبايزيد منتهياً. فقال يحيى: «يا شيخ لماذا لم تطلب المعرفة؟ فإنه ملك الملوك وقد عرض عليك أن اطلب تعطى». فصعق بايزيد صعقة وقال: «اسكت يا يحيى فإني أغار من نفسي أن أعرفه، لأني لا أريد أن يعرف الله إلا الله. فإذا تيسرت معرفته، من أنا حتى أكون هناك؟ يا يحيى إنها مشيئته سبحانه وتعالى أن لا يعرفه غيره».

فقال يحيى: «أقسم عليك بعزة الجبار إلا أن تعطيني نصيباً من الفتوحات التي حصلت لك الليلة الماضية». قال بايزيد: «يا يحيى إذا

أعطيت صفوة آدم وقدسية جبرائيل وخلة إبراهيم وشوق موسى وطهارة عيسى ومحبة محمد عليهم الصلاة والسلام فإنك لا ترضى بذلك وتطلب ما ورائها. فحذار حذار! إن ما وراء ذلك عمل ومجاهدات، فكن ذا همة ولا تخضع لشيء، فكلما خضعت لشيء حجبك عن الله سبحانه وتعالى».

قال أحمد خضرويه لبايزيد: «إني لا أصل إلى نهاية التوبة». فقال له الشيخ: «التوبة نهايتها العزة، والعزة صفة الخالق جل وعلا، لا يستطيع المخلوق أن يصل إليها».

وقال أحمد خضرويه: «رأيت الحق ﷻ في المنام فقال لي: «رجال الله يطلبون مني كيت وكيت إلا بايزيد البسطامي فإنه يطلبني وحسب».



حكاياته مع مريدي عرفاء عصره

روي أنه كان لأبي تراب مريد ذو شوق وصاحب وجد. فقال له أبو تراب: «يجب أن يراك بايزيد كما أنت في حالتك». فقال المريد مرة: «الذي يرى الله في اليوم مائة مرة ما حاجته إلى بايزيد!». فقال له أبو تراب: «إنك ترى الله على قدرك، وفي حضور بايزيد سترى الله على قدر بايزيد، وبين الرؤيتين تفاوت كبير». فاقتنع المريد وقال: «قم حتى نذهب إليه». فجاءا إلى بسطام، ولم يكن بايزيد في البيت، وكان ذاهباً إلى الحمام للاستحمام. فذهبا إليه ووجدا الشيخ يأتي نحوهما وفي يده كوز ماء، وكان يلبس جبة قديمة. ولما وقع عين بايزيد على مريد أبي تراب ووقع عين المريد على بايزيد ارتعد المريد ووقع على الأرض وأسلم الروح. فقال أبو تراب: «يا شيخ الموت بنظرة واحدة!». فقال بايزيد: «يا أبا تراب كان في هذا الشاب سر لم يحن الوقت بعد لكشفه، وعند رؤيتي انكشف له هذا المعنى فجأة فلم يطقه ومات»[1].

روي أن مريداً لشقيق البلخي عزم على الحج. فقال له شقيق:

(١) أتذكر واقعة همام عندما سمع وصف المتقين من لسان أمير المؤمنين وسيد المتقين علي بن أبي طالب ﷺ فصعق صعقة كانت روحه فيها.

«اذهب إلى بسطام وزر الشيخ بايزيد البسطامي». فلما جاء إليه سأله الشيخ: «مريد من أنت؟». فقال: «أنا مريد شقيق البلخي». فقال: «ماذا يقول شقيق؟». قال المريد: «إن شقيق فرغ من الخلق وتربع منصة التوكل وهو يقول: إن شحت السماء وجفت الأرض وكان الخلق عيالي لم أترك التوكل على الله». فقال بايزيد: «ما أصعبه من مشرك! إن كان بايزيد غراباً لم يطر إلى بلده. إذا رجعت إليه فقل له: «لا تمتحن الله بقرصين من الرغيف. إذا صرت جائعاً فخذهما من جارك، وضع التوكل جانباً حتى لا يخسف ببلدك في الأرض».

فرجع المريد إلى شقيق البلخي. فقال له شقيق: «ما أسرع ما رجعت!». فقال: «لقد أمرتني بزيارة بايزيد، وها هو يقول لك كذا وكذا». فأحس شقيق البلخي بعيبه. ويروى أنه كان عنده مائة وعشرون ألف كيلوغرام من الكتب. ولكنه على رغم عظمته انحنى إجلالاً لكلام بايزيد. فقال له شقيق البلخي: «هل سألته إذا كان شقيق كذلك فكيف تكون أنت؟». فقال: لا لم أسأله ذلك. فقال: «ارجع إليه واسأله». فرجع المريد إلى بايزيد. فقال له الشيخ: «لقد رجعت؟». قال المريد: «لقد أرسلني شقيق إليك حتى أسألك: إذا كان هو كذلك فكيف تكون أنت؟». فقال بايزيد: «هذه جهالة أخرى! إذا قلت ماذا أكون أنا لم تفهمه». فقال المريد: «أرجو أن تكتبه حتى لا يضيع وقتي، فأنا قادم من مكان بعيد». فقال بايزيد: «اكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا هو بايزيد». ثم لفه في الغلاف وأعطاه إياه. يعني بايزيد ليس شيئاً! ليس موصوفاً! كيف يمكن وصفه وهو ليس شيئاً مذكوراً؟ فكيف يسأل عنه كيف يكون؟ وهل يحظى بصفات التوكل أو الإخلاص؟ لأنها صفات الخلق. فيجب التخلق بأخلاق الله لا التحلي بالتوكل وغيره. فعاد المريد أدراجه، وكان شقيق مريضاً وقد قرب أجله، وكان ينتظر رد بايزيد. وعندما قرأ شقيق البلخي

رد بايزيد قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». وأصبح مسلماً منزهاً عن عيب الظن وتاب منه، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة والتحق بالملأ الأعلى.

روي أن أحمد بن خضرويه مع ألف من مريديه جاؤوا إلى بايزيد. وكان كل واحد منهم يمشي على الماء ويطير في الهواء. فقال أحمد: «من كان منكم له طاقة برؤية بايزيد فليأت معي، ومن لم يكن فليبق في الخارج حتى ندخل البيت ونزور بايزيد». فدخلوا كلهم وكان كل واحد منهم يحمل عصا في يده. فوضعوا العصي في بيت العصا. وقال أحدهم: «لا طاقة لي برؤية بايزيد، سأبقى هنا حارساً للعصي».

وعندما دخلوا على بايزيد قال الشيخ: «من الأحسن فيكم؟» فعرفوه إياه. فقال بايزيد لأحمد: «إلى متى السياحة حول العالم؟». فقال أحمد: «نحن كالماء إذا توقف أسن». فقال الشيخ: «**كن بحراً ولا تتغير**». فتكلم بايزيد بكلام لم يفهمه أحمد. فقال للشيخ سبعاً: «بسط لنا الكلام فإنا لا نفهمك». فشرح كلامه حتى فهموه. وعندما سكت الشيخ قال له أحمد: «يا شيخ لقد رأيت الإبليس مصلوباً على بابك». فقال الشيخ: «نعم كان قد تعهد لنا أن لا يقرب بسطام. والآن لقد وسوس إلى أحد حتى تلطخت يداه بالدم. فلا بدّ من صلبه على باب الملك».



تواضع بايزيد البسطامي وبساطته

ورأى يوماً مجذوباً يصيح: «إلهي انظر إليّ». فغلبت الغيرة والوجد والشوق على الشيخ فقال: «كيف ينظر إليك ربك ومنظرك هكذا؟». فقال المجذوب: «يا شيخ أريده أن ينظر إلي حتى يحسن منظري». فأعجب الشيخ به كثيراً وقال: «لقد صدقت».

كان يوماً من الأيام يمشي مع أصحابه في أزقة بسطام، وأراد أن يجتاز زقاقاً ضيقاً. فرأى كلباً يدخل الزقاق. فتراجع الشيخ وآثر أن يفسح الطريق للكلب. فخطر على بال أحد المريدين: كيف يؤثر الشيخ الكلب على نفسه وعلى المريدين الصادقين الذين يتبعونه، وقد كرم الله الإنسان، والشيخ هو سلطان العارفين؟ فقال لهم الشيخ: «يا أعزتي! لقد قال لي الكلب بلسان حاله: «أي بايزيد ما هو تقصيري وما هو فضلك في سبق السبق أن ألبسوني جلد الكلب، وألبسوك خرقة سلطان العارفين؟» فاستحييت منه وآثرته على نفسي».

وروي أنه كان يمشي، وصادف أن كلباً كان بجانبه، فسحب طرف ثوبه لئلا يلامس الكلب. فقال له الكلب: «إن كنت جافاً فلا جفوة بيننا، وإن كنت مبتلاً أصلح بيني وبينك الماء والتراب سبعاً. أما أن تضم طرف ثوبك عني، فإن غسلك في البحار السبعة لا يطهرك». فقال بايزيد:

«نجاستك في الظاهر وخبثي وقذارتي في الباطن، تعال نجمعهما لعل الطهارة تبرز في الجمع». فقال له الكلب: «لا أستحق صحبتك لأني مطرود من الناس وأنت المقبول. فمن رآني رماني بالحجارة، ومن رآك قال: السلام عليك يا سلطان العارفين، في حين أني لا أدخر عظام اليوم إلى غد، وأنك تدخر في بيتك جرة من الدقيق». فقال بايزيد لنفسه: «إن كان الكلب لا يستحق صحبتي فكيف أستحق صحبة الملك الذي لم يزل ولا يزال». فاعتراني الشك ويئست من الطاعة. ولم تمض هنيهة إلا وسمعت هاتفاً يبشرني. فتنفست الصعداء! وعرفت أني قد شملتني عناية الحق تعالى.

روي أن بايزيد كان في جامع، وكان قد غرس عصاه في الأرض. فارتطم شيخ طاعن في السنّ بالعصا ووقع على الأرض وانكسر ظهره. فذهب بايزيد إلى منزله لعيادته واعتذر إليه لمرضه بسبب عصاه.

روي أنه قال: «عزمت على حج بيت الله الحرام، فلقيني شخص في الطريق فقال لي: «أين تذهب؟». قلت: «إلى الحج». قال: «كم عندك؟». قلت: «مئتا درهم». قال: «اعطني إياه وطف حولي سبعاً وهذا هو حجك». ففعلت ذلك ورجعت.



اختلاف بايزيد
مع علماء عصره

روي أن بايزيد كان يصلي وراء إمام، فقال له الإمام: «يا شيخ ليس لك كسب، ولا تطلب شيئاً من أحد، فمن أين تعيش؟». فقال الشيخ: «اصبر حتى أقضي صلاتي، فإنه لا يجوز الصلاة وراء أحد لا يعرف الرازق».

وكان يوماً في المسجد فرأى أحداً يصلي هناك فقال له: «إن ظننت أن الصلاة سبب الوصول إلى الله تعالى فقد أخطأت، فهو مجرد ظن لا مواصلة. وإن لم تصل فأنت كافر، وإن نظرت إليه بعين الاعتماد فأنت مشرك».

وعندما رفع ذكره عالياً في الأرض لم يطقه أهل الظاهر وأخرجوه من بسطام سبع مرات. فقال لهم: «لماذا تخرجونني من بلدي؟». قالوا: «لأنك رجل سيئ». قال: «طوبى لبلد سيئه بايزيد».

وبالنسبة إلى دخول الملل الأخرى في دين الإسلام فلقد كان بايزيد مثلاً أعلى في الأخلاق، بحيث إنه كان قدوة لا للمسلمين فحسب بل أيضاً لأتباع الأديان الأخرى. فما أكثر من تحولوا إلى دين الله بسببه! فلقد كان مريد الأئمة بحق، وعلى الأخص الإمام جعفر الصادق عليه السلام، حيث يقول: «كونوا زيناً لنا ولا تكونوا شيناً علينا».

روي أنه كان للشيخ جاراً من المجوس، وكان له طفل رضيع يبكي في جوف الليل خوفاً من الظلام. وكان الجار غائباً ولم يكن في بيتهم قنديل. فكان بايزيد يأخذ فانوسه إلى بيت الجار حتى ينام الطفل. وحينما رجع الرجل المجوسي من سفره، حكت له أم الطفل ما جرى. فقال: «ما دام نور الشيخ قد دخل بيتنا، فواحسرتاه! من أن نرجع إلى ظلمتنا». فجاء فوراً إلى الشيخ وأعلن إسلامه.

وروي أن رجلاً مجوسيًّا كان يقال له بأن يسلم. فقال: «إذا كان الإسلام ما يفعله بايزيد فأنا لا أستطيع ذلك، وإذا كان ما تفعلونه أنتم فلا حاجة لي بدينكم».

وما أكثر العلماء الذين يتخلقون بالزهد الظاهري وكثرة الصيام والقيام وطول الصلاة، معتمدين على النص والروايات المنقولة، وهم في الحقيقة مرضى بالكبر والعجب! وإذا ما محصوا لإزالة هذه الرذائل انقلبوا على أعقابهم. يقول الله ﷻ: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾[1]. ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من الكبر».

روي أنه كان هناك زاهد من أكابر القوم في بسطام، وكان لا يغيب البتة عن حلقة بايزيد. فقال يوماً للشيخ: «يا شيخ أصوم الدهر وأقوم الليل منذ ثلاثين سنة، ولا أجد في نفسي أثراً من هذا العلم الذي تذكره، ولكني أصدقه وأحبه». فقال له بايزيد: «إن صمت وصليت ثلاثمائة سنة لم تجد شيئاً من هذا العلم». فقال: لماذا؟ قال: «لأنك محجوب بنفسك عن الله جل وعلا». فقال: «هل من دواء؟». قال بايزيد:

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥٦.

«نعم علي أن أقوله ولكنك لن تقبله». فقال: «سأقبله لأني أطلبه من سنين».

فقال له بايزيد: «اذهب الساعة واحلق رأسك ولحيتك، وانزع عنك لباسك وشدّ الصوف على بطنك، واجلس في المكان الذي يعرفك فيه الناس، واملأ خرجك من الجوز، واجمع الأطفال وقل لهم: «من لطمني على وجهي وضربني على رقبتي أعطيته جوزاً. ومن لطمني وضربني مرتين أعطيته جوزين». وطف في داخل المدينة حاملاً خرجك على ظهرك، حتى يلطمك الأطفال ويضربوك على رقبتك. فهذا هو علاجك».

فقال الرجل: «سبحان الله! لا إله إلا الله». فقال بايزيد: «إذا نطق الكافر بهذه الكلمة أصبح مؤمناً، أما أنت فقد أصبحت بهذه الكلمة مشركاً». فقال: لماذا؟ فقال بايزيد: «لأنك بهذه الكلمة عظمت نفسك لا الله العلي العظيم». فقال الرجل: «لا أستطيع فعل ما أمرته». فقال بايزيد: «هذا هو دواؤك وعلاجك! ولقد قلت لك إنك لن تفعله».



صفات العارف
في نظر بايزيد البسطامي

سألوه ما هو علامة العارف؟ قال: «ذاك الذي يأكل معك ويهرب منك ويشتري منك ويبيع لك، ولكن قلبه في حظائر القدس وفي الليل على وسادة عوالم الأنس». وقال: «العارف لا يرى في نومه غير الله، ولا ينسجم ولا يتناغم إلا مع الله، ولا يبوح بسره لغير الله».

سألوه: «متى يعرف الولي أنه وصل إلى حقيقة المعرفة؟». قال: «في وقت يكون فيه فانياً بعين الله، وباقياً على بساط الحق، بعيداً عن النفس وعن الخلق، فهو الفاني وهو الباقي، وهو الباقي وهو الفاني، وهو الميت وهو الحي، وهو الحي وهو الميت، وهو المحجوب المكشوف، وهو المكشوف المحجوب».

قالوا: «ما حال من غرق في البحر؟». قال: «حال من يرى الخلق، ويعبأ بالكونين، ويطلق لسانه باللغو والمجادلة. فمن عرف الله كل لسانه». وسألوه من هو الدرويش؟ قال: «من كان حاضراً في كنز قلبه، وإذا برجليه تغوصان في الكنز، وهذا هو سيماء الآخرة. ثم يجد في ذلك الكنز جوهرة اسمها المحبة[1]. فمن وصل إلى تلك الجوهرة فهو الدرويش».

(١) يقول أحد الشعراء في محبة الله ﷻ: =

وقال: «إذا صاح المريد وأحدث الضجيج فهو الحوض، وإذا صمت فهو البحر يزخر بالدرر».

وقال: «قلب العارف كمصباح في مشكوة في زجاجة طاهرة، يشع بالنور ويملأ الملكوت كله بنوره، فما خوف العارف من الظلام!».

سألوه: «متى يبلغ العبد درجة الكمال؟». قال: «حين يعرف عيبه ويتسامى بهمته عن الخلق. بعد ذلك يقربه الله إليه على قدر همته وبعده عن نفسه».

وقال: «من عرف الله لم يحتج إلى سؤال، ومن لم يعرف لم يدرك كلام العارفين». وقال: «العارف إذا شرب الماء العكر لم يتعكر مزاجه. فإن الماء العكر لا يصل إليه حتى يصفو». وقال: «النار عذاب من لم يعرف الله، أما العرفاء فهم على النار عذاب».

= لا تخدعن فللمحب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه ... وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة ... والفقر إكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه ... طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسماً ... والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهماً ... لكلام من يحظى لديه سائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفاً ... متحفظاً عن كل ما هو قائل
ومن الدلائل أن تراه مشمراً ... في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه ... خوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه باكياً ... أن قد رآه على قبيح فاعل
ومن الدلائل أن تراه راضياً ... بمليكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل أن تراه مسلماً ... كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل زهده فيما ترى ... من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى ... والقلب محزون كقلب الثاكل
ومن الدلائل أن تراه مسافراً ... نحو الجهاد وكل فعل فاضل

وقال: «من ترك هوى النفس كان له إلى الله سبيلاً». وقال: «من كان قريباً إلى الله كان في كل مكان، وكان له كل شيء، لأن الحق تعالى في كل مكان وله كل شيء». وقال: «العارف بالله يعرف مدى جهله، والجاهل بالله يعيش بظن المعرفة».

وقال: «**العارف طيار والزاهد سيار**». وقال: «من عرف الله كان على النار عذاباً، ومن لم يعرف الله صارت النار عليه عذاباً، ومن عرف الله كان للجنة ثواباً، ومن لم يعرف الله صارت الجنة عليه وبالاً». وقال: «العارف لا يفرح إلا بالوصال». وقال: «نفاق العارفين أفضل من إخلاص المريدين».

وقال: «من أعجب بإخلاصه وعبادته، وتباهى بصفاء كشفه ومشاهداته، ولم يجد نفسه أخبث النفوس، لا يعد من الواصلين».

وقال: «**ثقل الحق لا يحمله إلا أهله، فهم مروضون بالمجاهدة ومدللون بالمشاهدة**». وقال: «ليتك عرفت نفسك، فإنك إن عرفت نفسك فهذا هو عين المعرفة والعرفان». وقال: «اجهد جهدك واسع سعيك حتى تغتنم لحظة لا ترى فيها غير الله».

وقال: «**المعرفة تتلخص في أن تعرف أن كل حركات الخلق وسكناتهم من الله سبحانه وتعالى**».

وقال: «العارف يشاهد المعروف والعالم يجالس العالم. يقول العالم: ماذا أفعل، ويقول العارف: ماذا يفعل؟». وقال: «تسمع خرير الماء من الجداول إذا الماء جرى، وإذا اتصل هذا الماء بالبحر سكن وهدأ. والبحر لا يزيد ولا ينقص شيئاً من ورود الماء وخروجه». وقال: «من عرف الله لا يستطيع أن ينطق إلا بذكره». وقال: «أقل الواجبات على العارف إزاء مالك الملك، التبرء من المال والأملاك، وإن ضحى

في حبه بالدارين فذلك شيء قليل» ـ إذا كان العارف متيقناً أنه مالك الملك، فالواجب عليه تفويض المال والأملاك إليه تعالى لا إلى نفسه.

وقال: «ثواب العارف من الحق هو الحق». وقال: «الألم في حياة العارف أصدق أنباء من القلم» ـ بمعنى أن القلم لا يعبر عن الألم كما هو، أو بعبارة أخرى: الكلمات لا تنقل المعاني. وقال: «العارف يجول ويصول في حديث المعارف، حتى ينتهي الحديث ويصل العارف، وتتوب المعارف من العارف. والعارف لا يصل إلى المعرفة ما لم يتوقف عن ذكر المعارف».

وقال: «من المحال أن تعرف الله ثم لا تحبه، والمعرفة من دون العشق لا وزن له ولا قدر». وقال: «إذا دخل عشق الله في القلب أزال ما دون الله، ولم يبق له أثراً، حتى يبقى وحده لا شريك له». وقال: «كمال العارف احتراقه في عشق الله».

وقال: «الدنيا لأهل الدنيا غرور في غرور، والآخرة لأهل الآخرة سرور في سرور، وحب الله لأهل المعرفة نور في نور». وقال: «المعاينة نقد والمشاهدة نقد النقد». وقال: «**عبادة أهل المعرفة مراقبة الأنفاس**».

وقال: «العارف إذا سكت أحب الحديث مع الله في صمته وسكوته، وإذا نام أحب أن يفتح عينه على الله حين يستيقظ من نومه، وإذا وضع رأسه على منكبيه طلب أن لا يرفع رأسه حتى ينفخ إسرافيل في صوره حباً في لقاء ربه».

وقال: «كونوا فرسان القلب ورجالة البدن». وقال: «علامة معرفة الله الاستيحاش من الخلق والصمت في حبه». وقال: «من ابتلاه الله بحبه لم يبخل عليه بملكه، وشغله عن الدارين». وقال: «أكمل درجات

العارف اكتواؤه بعشقه». وقال: «أقل درجات العارف أن تتجلى صفات الحق فيه».

وقال: «ماذا تقول في رجل حجابه الحق تعالى؟» ـ يعني ما دام يعلم بأنه الحق تعالى فهو حجابه. يجب أن يختفيان هو وعلمه، حتى يصبح الكشف حقيقياً».



درر الحكم
لبايزيد البسطامي

روي أنه إذا اختار الخلوة للعبادة أو التأمل دخل بيته وسدّ المنافذ كلها. سألوه لماذا تفعل ذلك؟ قال: «أخاف أن يأتيني صوت يزعجني ويعكر علي خلوتي». قال عيسى البسطامي: «أمضيت ثلاثة عشرة سنة في مصاحبة بايزيد ولم أسمع منه شيئاً، وكان من عادته أن يضع رأسه على ركبتيه ويستغرق في تأملاته». قال الشيخ سهلكي: «هذا في حال القبض، أما في حال البسط فكانت تفيض من لسانه درر من الحكمة يستفيد منها الناس».

وقال: «الشوق جنة العاشقين، وفيها أريكة من الفراق، وسيف من هول الهجران[1]، وغصن نرجس من وصال الرجاء. وفي كل نفس يحصد سيف الهجران آلاف الرؤوس. وقد مضت سبعة آلاف سنة ولا زالت تلك الزهرة من النرجس غضة طرية، لا يصل إليها أي سالك بمحض التمنيات».

وقال: «يروون أن إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم

---

(١) يقول الشاعر:

أريد وصاله ويريد هجري　　فأترك ما أريد لما يريد

قالوا: «إلهنا اجعلنا من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم». أتظنون أنهم تمنوا الدخول في أمة عسعست فيها الظلمات وكثر فيها محبوا العلو والجاه والرئاسة؟ كلا وحاشا! بل وجدوا في هذه الأمة رجالاً أقدامهم تحت الثرى، ورؤوسهم تجاوزت أعلى عليين، وهم على الأرض متواضعون مغمورون، أعيونهم مفقودة لا تكاد ترى».

وقال: «حظ الأولياء في اختلاف درجاتهم ومقاماتهم ينبثق من أربعة أسماء من أسماء الله الحسنى وهو قوله تعالى: هو الأول والآخر والظاهر والباطن. فمن كان حظه من كل اسم غالباً عليه زاد حظه من ذلك الاسم. فمن نظر إلى ظاهر قدرة الله وعجائبه وروائعه زاد حظه في الظاهر من هذه الأسماء الحسنى. ومن نظر إلى الأنوار والأسرار والغيوب زاد حظه في الباطن. ومن كانت مشغلته أنه سبقت له من الله الحسنى زاد حظه في الأول. ومن كانت مشغلته ما يكون عليه في المستقبل بعد الجهاد الأكبر زاد حظه من الآخر. ولكل مقام معلوم على قدر طاقته».

وسأله أحدهم: «نرى عندك جمعاً يشبه النساء فمن هم؟». قال: «هم ملائكة يأتونني ويسألونني عن العلوم وأنا أجيبهم». وروي أنه قال: «رأيت في المنام ملائكة السماء الأولى»، وقالوا لي: «قم حتى نذكر الله ﷻ». فقلت لهم: «ليس لي لسان ذكره». ثم أتاني ملائكة السماء الثانية وقالوا نفس الشيء ورددت عليهم نفس الجواب. حتى أتاني ملائكة السماء السابعة وأجبتهم بنفس الشيء. فقالوا: «متى يكون لك لسان ذكره؟». فقلت: «عندما يستقر أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة، وتنقضي القيامة، يرجع بايزيد حول عرش الله ﷻ ويقول: الله الله».

وقال: «تنور منزلي ليلة فقلت: إن كنت شيطاناً فأنا أعز وأبعد همة من أن تطمع فيّ، وإن كنت من الأبرار فامهلني حتى أنتقل من دار الخدمة إلى دار الكرامة».

وروي أنه في ليلة من الليالي لم ير في نفسه ذوق العبادة. فقال للخادم: «انظر ماذا في البيت؟». فنظر الخادم فوجد عنقود عنب. فقال الشيخ: «تصدقوا به فإن بيتنا ليس دكان بقال». ثم طابت نفسه للعبادة.

سألوه: «لماذا لا تدعو الخلق إلى الله وقد آتاك الله هذا الفضل العظيم». فقال: «من كبله الله بالقيود كيف يستطيع بايزيد فكها؟». وقال: «من لم يقرأ القرآن ولم يحضر جنازة المسلمين ولم يعد المرضى ولم يسأل عن اليتامى كيف يدعي هذا الحديث؟ وقال له أحد: «يا شيخ أريد منك قلباً صافياً حتى تسمع حديثي». فقال بايزيد: «منذ ثلاثين سنة وأنا أطلب من الباري قلباً صافياً ولم أجده حتى الآن. من أين أجد لك الآن قلباً صافياً!.يظن الناس أن الطريق إلى الله أوضح من الشمس، وأنا أطلب من الله تعالى منذ سنوات أن يفتح علي من طريقه بمقدار سم الخياط ولم يفتح لي». وقال: «أخاطب المريدين كلًّا على قدر مقامه».

روي أنه كان في أواخر أيامه كلما خطرت له خاطرة ظهرت وتجسدت أمامه حالاً، وكلما ذكر الله خرج منه الدم بدل البول. وزاره بعض الناس وكان مطأطأ الرأس، فرفع رأسه وقال: «منذ الصباح أطلب حبة تستطيعون تحملها كي أعطيها لكم ولكن لم أجدها».



جوامع الكلم
لبايزيد البسطامي

سألوا بايزيد عن الصلاة. فقال: «هي الصلة ولا تأتي الصلة إلا بعد الفراق». سألوه كيف هو الطريق إلى الله ﷻ. فقال: «من غاب عن الطريق وصل حالاً إلى الله ﷻ». وسألوه لماذا تمدح الجوع؟ فقال: «لو كان فرعون جائعاً لما قال: «أنا ربكم الأعلى».

وقال (قدس سره): «المتكبر لا يشم رائحة المعرفة». فقالوا ما هي علامة المتكبر؟ فقال: «**المتواضع يرى نفسه أخبث النفوس، والمتكبر لا يرى الخبث إلا في غيره**». سألوه عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقال: «هما في عالم الخلق، فكن في حضور الأحد الواحد، حيث لا يوجد شيء من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ألا هو عالم الوحدانية».

سألوه كيف هو الطريق إلى الله؟ قال: «إن اختفت نفسك عن الطريق وصلت إلى الله». سألوه كيف نصل إلى الله؟ قال: «أن تكون أعمى وأصم وأبكم».

قالوا: «طلاب المعرفة لا يكادون يستريحون من السفر والسياحة». فقال بايزيد: «المقصود مقيم لا مسافر، وطلب المقيم محال في السفر».

سألوه من نصاحب؟ قال: «ذاك الذي إذا مرضت يشفيك، وإذا أذنبت قبل توبتك، وهو مطلع عليك ولا يخفى عليه شيء».

قال: «ما وصل سالك إلى الله إلا بحفظ الحرمة، وما هلك في الطريق إلا بترك الحرمة». وقال: «لا يدرك هذا الحديث كل من طلبه. كما أنه لا يدرك حديثنا إلا الطالبون». وقال: «كن في الظاهر كما أنت في الباطن، أو كن في الباطن كما أنت في الظاهر».

وقال: «من كان يتوقع ثواب الله في الغد فهو لا يعبد اليوم، لأن ثواب كل نفس من المجاهدات حاضر فعلاً». وقال: «العلم غدر والمعرفة مكر والمشاهدة حجاب، فمتى يا صاحبي تجد ما تطلبه؟». وقال: «قبض القلب في بسط النفس، وبسط القلب في قبض النفس». وقال: «النفس صفة لا تزدهر إلا بالباطل». وقال: «الحياة في العلم، والراحة في المعرفة، والرزق في الذكر».

وقال: «عيش التوكل حياة اليوم، وفكرة الغد قلق وهول». وقال: «الذكر الكثير ليس بكميته، ولكن بحضور القلب من دون غفلته». وقال: «المحبة أن لا تحب الدنيا ولا الآخرة». وأقول: «المحبة هي محبة الله جل وعلا، وحب الدنيا أو الآخرة ليس إلا حجاباً بينك وبين ربك».

وقال: «اختلاف العلماء رحمة إلا في التجريد والتوحيد». وقال: «الجوع سحابة الرحمة لا ينزل منها إلا ودق الحكمة». وقال: «أبعد الخلائق عن الله من أشار إلى الله». وقال: «أقرب الخلائق إلى الله من حمل هم الناس وكان حسن الخلق». وقال: «ذكر الله نسيان النفس، والحي من عرف الله بالله، والميت من عرف الله بنفسه». وقال: «هلك الناس في شيئين: عدم حفظ حرمة الناس، وعدم حفظ شكر الله ﷻ». سألوه ما هي الفريضة وما هي السنة؟ فقال: «**الفريضة هي صحبة المولى والسنة هي ترك الدنيا**» .

وقال: «في العلم علم لا يعرفه العلماء، وفي الزهد زهد لا يعرفه الزهاد». وقال: «من اصطفاه الله واجتباه بعث إليه فرعوناً يؤذيه». وقال: «هذا القيل والقال، والمشاغل والضجيج، والحركة والآمال كلها خارج الستار. أما داخل الستار فكله صمت وسكوت وسكينة، وهدوء وهيبة وجلال»[1]. وقال: «كل هذا اللغو والنقاش من المتفلسف، لأنه عاشق نفسه وغائب عن حضور المولى، أما إذا حصل الحضور فلا لغو ولا نقاش».

وقال: «مصاحبة الأخيار خير من العمل الصالح، ومصاحبة الأشرار شر من العمل السيئ». وقال: «اعمل في باطنك بنية المجاهدة، حتى ترى فضل الله عليك، ولا ترى عملك». وقال: «تصل المقصود بخطوتين: أن ترضى بنصيبك بالمجاهدة، وأن تعمل بأوامر الحق بالطاعة».

وقال: «لا تفرح بالمال[2] إذا أغدق عليك، ولا تيأس إذا قبض عنك، فالله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون». وقال: «من أمات قلبه بكثرة الشهوات لفوه في كفن اللعنة ودفنوه في تراب الندامة، ومن أمات نفسه بالصمود أمام شهواته لفوه في كفن الرحمة ودفنوه في أرض السلامة».

وقال (قدس سره): «الحجاج بأجسامهم يطوفون حول الكعبة ويطلبون

---

(١) يقول الشاعر:

كانت لقلبي أهواء مفرقة ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده ... وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

(٢) قال المتنبي في صباه:..

ورب مال فقيراً من مروئته ... لم يثر منها كما أثرى من العدم

البقاء، وأهل العشق والمحبة بقلوبهم يطوفون حول العرش ويطلبون اللقاء». وقال: «**اطلع الحق على قلوب الأولياء فوجد أن بعضهم لا قبل لهم بحمل ثقل المعرفة ، فأشغلهم بالعبادة**» .وإذا كان بعض الأولياء لا قبل لهم بحمل ثقل المعرفة فما بالنا نحن! وأطرف ما دونته في مذكرتي في عهد الصبا القصة التالية:

روي في بعض الأخبار أن بعض أهل الله سأل بعض الصديقين أن يسأل الله تعالى أن يعطيه ذرة من معرفته. ففعل ذلك، فحار عقله، وذهل لبه، ووله قلبه، وهام في الجبال، وبقي شاخصاً سبعة أيام لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء. فسأل له الصديق ربه أن ينقص بعض الذرة من المعرفة التي أعطاه. فأوحى الله تعالى إليه: «إنا أعطيناه جزء من مائة ألف جزء من ذرة المعرفة، وذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيئاً من المحبة في الوقت الذي سألني هذا. فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا. فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته. فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد. فهذا ما أصابه من ذلك». فقال الصديق: «سبحانك سبحانك أنقصه مما أعطيته». فأذهب الله عنه ما أعطاه، وأبقى فيه عشر معشاره، وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة. فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه، وسكن وصار كسائر الكمل من العارفين.

وقال: «علامة حب الله ثلاثة خصال: جود كجود البحار، وشفقة كشفقة الشمس، وتواضع كتواضع الأرض». وقال: «لا شيء أحرى بالعبد من أن يكون لا شيء: لا زهد ولا علم ولا عمل. فإن صار لا شيء كان كل شيء».

وقال: «الأجدر بالعلم أن يفنى العالم في المعلوم. أما إذا كان

العلم مادة لفخر العالم ومباهاته، وإظهاراً لفضله ومقامه، في سبيل إرضاء المخلوق، فهو يبتعد عن الله يوماً بعد يوم». وقال: «ما قدر الدنيا حتى نظن تركه شيئاً مذكوراً». وقال: «المعاصي لا تضرك بقدر انتهاك حرمة المسلم وإذلاله».

وسأل يوماً أصحابه: «ألا يدخل الله برضاه العباد جنته؟». فقالوا: بلى. فقال: «إذا أعطى رضاه لعبد فماذا يفعل العبد بالجنة؟». وقال: «ذرة من حلاوته في القلب خير من ألف قصر في الفردوس الأعلى». وقال: «العابد الصادق من استأصل رغباته بجهاده، وصغرت شهواته وتمنياته في إزاء حب الله. فهو يحب ما يشاء الله ويتمنى ما يشهده الله». وقال: «التوبة من المعصية واحد ومن الطاعة ألف» ـ يعني العجب في الطاعة شر من المعصية.

وقال: «لا زال المريد يتذوق حلاوة الطاعة حتى يفرح بها. عند ذلك يصبح فرحه حجاباً بينه وبين قربه وزلفاه إلى الله».

وقال (قدس سره): «**طرقت باب الحق تعالى بكل الأيادي ولم يفتح إلا بيد البلاء، وطلبت وصاله بكل اللغات ولم أنله إلا بلغة الحزن، وسلكت طريقه بكل الأقدام ولم أصل بلاط العز إلا بقدم الذل**».



بشر الحافي

رضوان الله عليه





بشر الحافي
تلميذ الإمام الكاظم عليه السلام

استلهم بشر الحافي الهداية العظمى من الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام ببركة اعتقاده الراسخ بأصول الدين وعلى الأخص أصل الإمامة.

يقول السيد حسين الموسوي العالم (قدس سره) في المجلس الثامن عشر من كتابه المجالس[1]:

«فانظر إلى أحوال بشر بن الحارث المشهور ببشر الحافي، كان من أهل المعصية في بداية أمره، ولكنه كان متيقناً بحقانية الإمام، وكان معتقداً تمام الاعتقاد بالأصول، فلذلك أثر عليه كلام الإمام أثراً بليغاً، حيث غير مسيرة حياته إلى طريق لا رجعة له منه. فلقد كان الإمام موسى الكاظم عليه السلام يمر ذات يوم على منزل بشر، وسمع هناك صوت طبل وغناء، وكانت تقف على باب منزله جارية، فسألها الإمام عليه السلام: هل صاحبك حر أو عبد؟ فأجابت الجارية: بل هو حر. فقال الإمام عليه السلام: صدقت لو كان عبداً لمارس العبودية والخوف من ربه. فدخلت الجارية إلى المنزل وأخبرت بشراً بما جرى، فانتبه بشر إلى نفسه ـ وكأنه كان في

(١) كتاب قدوة الفقهاء والعارفين للمؤلف صفحات ١٧٦ إلى ١٧٨.

سبات عميق. فخرج من منزله حافي القدمين، وجرى مسرعاً وراء الإمام ﷺ حتى وصل إليه، ورمى بنفسه على قدمي الإمام ﷺ، وأعلن التوبة على يده الكريمة. وكان لا يرى بعد ذلك اليوم إلا حافي القدمين حتى وصول أجله، ولذلك سمي ببشر الحافي.



كرامات بشر الحافي (قدس سره)

ويستطرد السيد حسين العالم:

فلقد وصل بشر إلى مرتبة الإيمان الكشفي، ووصل إلى مقام من القرب والزلفى، بحيث شمل المغناطيس الإلهي روحه وبدنه وجميع جوارحه، المغناطيس الذي كان يجذب العاصين جذباً إلى الله تعالى. فيا فداء روحي لهؤلاء العظماء عباد الله الصالحين!!!».

ويستطرد السيد حسين العالم:

«نقل عن أبي علي الرودباري أنه قال: كان في جوارنا في بغداد عشرة شبان وكانوا يرتكبون المعاصي مجتمعين. ففي يوم من الأيام أرسلوا واحداً منهم إلى دكة الخمار فغاب عنهم طويلاً، فغضبوا منه كثيراً. وفجأة رجع إلى البيت وفي يديه شمام وهو يشمه ويقبله. فصرخ عليه أصدقاؤه قائلين: لقد تركتنا ننتظرك طويلاً، وأخيراً ترجع وفي يدك شمام لتضحك علينا. فقال لهم لقد تأخرت عليكم ولكني أتيتكم بفائدة عظمى. لقد وجدت بشر الحافي على دكان وهو يضع يده على شمام، فصبرت حتى أقنعت صاحب الدكان، ودفعت له عشرة دراهم واشتريت منه الشمام.

ولما سمع أصدقاؤه هذا الكلام قال أحدهم لقد كان بشر في يوم

من الأيام مستهتراً مثلنا، وقال الآخر لقد وصل بشر إلى هذا المقام المنيع بسبب التقوى والعمل الصالح. ثم أعلن هدايته وقال: أشهد الله أولاً ثم أشهدكم بأني تائب قربة إلى الله من كل معصية ومن كل ما لا يرضي الله سبحانه وتعالى، وإن شاء الله سأدخل في السالكين في طريقة بشر الحافي. فقال كل واحد منهم: أنا أيضاً تائب. فتابوا جميعاً ورجعوا إلى الله تعالى، ثم ذهبوا جميعاً إلى طرطوس في إحدى الغزوات ونالوا هناك جميعاً شرف الشهادة».

روى أحمد بن إبراهيم المطيب أن بشراً قال له: «أبلغ معروف (الكرخي) بأنني سأزوره بعد صلاة العشاء». يقول فأبلغت معروف هذه الرسالة، ثم انتظرت حتى صلينا المغرب والعشاء والنوافل قبلهما وبعدهما. ثم حمل سجادته وذهب إلى معروف. ولما وصل إلى دجلة مشى على الماء حتى وصل إلى معروف في الطرف الثاني من دجلة. ثم جلسا معاً يتكلمان حتى وقت السحر. وعند عودته مشى على الماء مرة أخرى. يقول فألقيت بنفسي على قدميه قائلاً: «أدع لي يا بشر». فدعا لي وقال: «لا تظهر هذا الأمر». فوالله لم أظهره إلا بعد موته.

روي عن بشر الحافي أنه قال: دخلت يوماً في بيتي ورأيت هناك رجلاً فقلت له: «من أنت حتى تدخل بيتي من دون إذني». فقال: «أنا أخوك الخضر». فقلت له: «ادع لي». فقال: «سهل الله تعالى عليك إقامة طاعته». فقلت زدني. فقال: «وأن يحجب عنك طاعتك».

روي أنه قال: «أتيت يوماً إلى مقبرة ورأيت الأموات يتنازعون على قبر كأنهم يقسمون شيئاً فيما بينهم. فقلت: يا رب أخبرني ما هذه الحالة؟ فسمعت هاتفاً يقول: «اسألهم». فسألتهم فقالوا لي: قبل أسبوع مر علينا أحد من رجال الله وقرأ علينا «قل هو الله أحد» ـ أي سورة

التوحيد ـ ثلاث مرات ووهب لنا ثوابه. ونحن طوال هذا الأسبوع نقسم فيما بيننا ثوابه ولم نفرغ بعد».

روي أنه ما دام بشر الحافي كان حياً لم ترث أية دابة في مدينة بغداد تعظيماً لحرمته لأنه كان يمشي حافياً. وفي ليلة من الليالي لاحظ شخص أن دابة تروث فصاح: «لقد مات بشر». وسمع الناس ذلك وتحققوا فوجدوا أن بشراً قد مات فعلاً. فسألوه: كيف عرفت ذلك؟ فقال: «ما دام بشر حياً لم نر في بغداد روثاً. وعندما رأيت الروث علمت بأن بشراً قد مات».



درر الحكم
لبشر الحافي (قدس سره)

وروي أن أحداً قال في حضوره: توكلت على الله. فقال: «كذبت والله! فلو كنت تتوكل عليه لرضيت بما قضى ويقضي». وقال: «إذا شعرت بالعجب عند الكلام فاسكت، وإذا شعرت بالعجب عند السكوت فتكلم». وقال: «إذا انشغلت بالسجدة لله شكراً طوال عمرك لم تؤد واجب الشكر بقدر حديثه عنك بين المحبين، فاجتهد أن تكون من المحبين». وقال: «النظر في وجه البخيل يجعل القلب قاسياً». وقال: «الأدب كل الأدب رفع التكلف بين الإخوان». وقال: «ما جلست مع أحد وجلس إليّ أحد ثم افترقنا إلا وحصل اليقين بأنه كان أحسن لنا لو أننا لم نجالس بعضنا البعض». وقال: «لم يكره أحد الموت إلا وكان في قلبه ريب». وقال: **«لا تصل كمال الإيمان ما لم يأمن جانبك عدوك»**. وقال: «إذا لم تكن في طاعة الله فلا تكن في معصيته».

سألوه لماذا لا تلبس النعلين؟ فقال: «في يوم تصالحت فيه مع ربي كنت حافياً، والآن أخجل من ربي أن أنتعل. أما سمعتم الله ﷻ يقول: وجعلنا الأرض بساطاً. فليس من الأدب المشي على بساط الله بالنعال».

وقال: «الزهد ملكة يختص بها القلب الخالي» ـ أي القلب الخالي من غير الله. وقال: «أفضل شيء أوتي به العبد المعرفة والصبر في

الفقر». وقال: «إذا كان لدى الله خواص فهم العارفون». وقال: «الصوفي من صفا قلبه مع الله». وقال: «العرفاء قوم لا يعرفهم إلا الله تعالى، ولا يعظمون إلا من أجل الله تعالى». وقال: «إن أردت أن تتذوق الحرية فاحفظ السر على طهر». وقال: «من عمل لله في صدق استوحش من الخلق». وقال: «سلموا على أهل الدنيا بيد الاستغناء». وقال: «إذا لم تكن القناعة غير المعيشة في عز فذلك يكفي». وقال: «**إذا أحببت أن يعرفك الناس فهذا من حب الدنيا**». وقال: «لا تذوق حلاوة العبادة ما لم تجعل بينك وبين الشهوات جداراً من حديد». وقال: «أشق الأعمال ثلاثة: البذل عند الضيق، والورع في الخلوة، وحديث الحق مع من تخشاه». وقال: «الورع تحاشي الشبهات في طهارة، ومحاسبة النفس في كل طرفة عين».

يروى أنه كان يقول لأصحابه: «سيحوا في الأرض، فإن الماء الجاري زلال، وإذا سكن أسن». وقال: «إذا أردت العزة في الدنيا فابتعد عن ثلاث: طلب الحاجة من المخلوقين، وهجو الآخرين، وحضور المآدب». وقال: «**لا يذوق حلاوة الآخرة من أحب أن يعرفه الناس**».

روي أن جماعة من الناس زاروه في منزله، فتكلم بشر في الرضا. فقال أحدهم: «يا أبا نصر لماذا لا تقبل شيئاً من خلق الله؟ إذا كنت في قمة الزهد معرضاً عن الدنيا فلا بأس أن تأخذ شيئاً بالخفاء من الناس وتوزعه على الفقراء، ولا تجلس متوكلاً حتى تحصل قوتك من الغيب». فاستثقل أصحاب بشر هذا الكلام.

فقال بشر: «اسمع الجواب واعلم أن الفقراء ثلاثة فرق: فرقة لم يسألوا الناس قطّ وإن أعطاهم الناس لم يقبلوا منهم. فهم الروحانيون

الذين إذا سألوا الله ﷻ أعطاهم كل ما سألوه، وإذا أقسموا على الله أبر الله بقسمهم حالاً. وفرقة لا يسألون الناس وإن أعطاهم الناس قبلوا منهم. فهم الوسط الذين يتوكلون على الله ويجلسون على مائدة الخلد في حضرة القدس. وفرقة يصمدون على الصبر إلى ما شاء الله حتى يكل الصبر منهم». فلما سمع ذلك الصوفي كلام بشر قال: «رضيت بهذا رضي الله عنك».

روي أن أحداً استشاره قائلاً: «عندي من المال الحلال ألفان درهم وأريد أن أحج». فقال له بشر: «تريد أن تذهب للتنزه! أما إذا كنت تريد رضا الله فأقرضه على بعض الفقراء المحتاجين، أو أنفقه على بعض اليتامى أو أصحاب عيال ذوي الحاجة. فإيصال الراحة إلى قلوبهم أحسن من مائة حجة». فقال: «ولكني راغب في الحج». فقال بشر: «ما لم تكسبه من الحلال لا يقرّ لك قرار حتى تصرفه في غير محله».

سألوه: كيف وصلت إلى هذا المقام المنيع؟ فقال: «لأني طوال عمري كتمت حالي عن غير الله ﷻ». سألوه: «لماذا لا تعظ السلطان وظلمه مسلط على رقابنا؟ فقال: «الله ﷻ يرى ويعلم وصبره عظيم[1]. وهو أكبر من أن أذكره عند من يعرفه فكيف عند من لا يعرفه».



(١) يقول الله ﷻ في سورة النحل الآية ٦١: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

مقامه العظيم
وعلمه وكرمه وتوكله

يروى أن أحمد بن حنبل كان يزوره كثيراً ويعظمه ويبجله أكمل تبجيل. فكان تلامذته يقولون له: «أنت عالم كبير ومجتهد فذّ في الأحاديث والفقه والتاريخ وسائر العلوم، ولا يليق بك أن تذهب إلى هذا المجذوب». فقال أحمد: «كل هذه العلوم التي عددتموها أنا أعلم بها منه، ولكنه يعرف الله جل جلاله أكثر مني». كان يذهب إلى بشر ويقول: «حدثني عن ربي».

قال: «رأيت المصطفى ﷺ في المنام فقال لي: يا بشر أتعرف لماذا اجتباك ربك من بين الأقران ورفع درجتك؟ قلت: لا يا رسول الله. فقال ﷺ: لاتباعك السنة، وتعظيمك عباد الله الصالحين، وإسداء النصيحة للإخوان، ومودتك أهل بيتي والميامين من صحابتي، لأجل هذا وهبتك مقام الأبرار».

وقال: «رأيت علي المرتضى عليه السلام في المنام فقلت له: يا أمير المؤمنين عظني. فقال عليه السلام: ما أطيب شفقة الأثرياء على الفقراء طلباً في ثواب الرحمن، وأطيب من ذلك تكبر الفقراء على الأثرياء واعتمادهم على كرم خالق الأكوان».

روى أحد العرفاء: «كنت عند بشر وكان الجو شتاءً قارساً ووجدته

عارياً ترتعد فرائصه من شدة البرد. فقلت له: يا أبا نصر ما هذه الحالة! فقال: «تذكرت الفقراء ولم يكن عندي مال أواسيهم به فواسيتهم ببدني».

يقول بشر الحافي: «التقيت يوماً بالعارف الكبير علي الجرجاني على عين ماء. وعندما رآني هرب مني مسرعاً قائلاً: ماذا أذنبت حتى أرى اليوم آدميًّا؟ فعدوت ورائه وسألته أن يوصيني فقال: الزم الفقر، وعش بالصبر، وعاد هوى النفس، وخالف الشهوات، واجعل اليوم بيتك أفرغ من اللحد، حتى إذا ما مت ودخلت لحدك لقيت الله ﷻ مرتاحاً طرياً».

وروي أن جماعة أتوا من الشام إلى بشر وقالوا له: عزمنا على الحج فهل ترغب في الحج معنا؟ فقال بشر: «بثلاثة شروط: أن لا نحمل معنا شيئاً، وأن لا نطلب من أحد شيئاً، وإذا أعطونا لم نقبل منهم شيئاً». فقالوا: «نقدر على الشرطين، أما إذا أعطونا ولا نقبل فلا نقدر عليه». فقال بشر: «إذن أنتم تتوكلون على زاد الحجاج». وهذا هو نفس المعنى الذي رد به على ذلك الصوفي قائلاً: «إذا نويت أن لا تقبل من أحد شيئاً فذاك هو التوكل على الله».



ما هو التوكل
والصبر

يقول بشر الحافي (قدس سره): «فلو كنت تتوكل عليه لرضيت بما قضى ويقضي».

التوكل على الله هو تفويض أمورك كلها إلى الله ثم ترضى بما يقضي ويقدر جل شأنه ولا تجد في نفسك حرجاً مما قضى وقدر، من دون أي اعتراض أو عدم ارتياح. يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «إلهي خر لي في قضائك وبارك لي في قدرك». ويقول عليه السلام: «إلهي أغنني بتدبيرك عن تدبيري وباختيارك عن اختياري». فالمتوكل على الله لا يختار لنفسه شيئاً ولكنه يطلب من الله تعالى أن يختار له ما يشاء. فالرجل العادي لا يمكنه أن يتحمل هذا لأنه دنيوي في تفكيره وأسير رغباته وشهواته. أما من كان يسمو كان يسمو على رغباته، كان يسمو على رغباته وشهواته فحاجاته خفيفة. ثم إنه يريد من كل قلبه أن لا يدبر لنفسه شيئاً بل يطلب من الله حثيثاً أن يغنيه بتدبيره عن تدبيره وباختياره عن اختياره.

يقول الإمام الحسين عليه السلام في خطبته الوداعية في مكة: «رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه فيوفينا أجور الصابرين». فإذا تطابق رضا الله مع رضاك وتناغم فذاك نِعم المقام. يقول بايزيد البسطامي: «أنا

في درجة من الكمال في الرضا بحيث لو خلدوا عبداً في أعلى عليين وخلدوني في أسفل سافلين لكنت أرضى من ذلك العبد»[1].

فإذا كان السالك جاداً في طموحه إلى كمال الرضا ثم وطد نفسه على حصول ذلك المقام الشامخ بدعائه وتضرعه إلى الله، وأكثر من ذكر الله وعزم على الجهاد الأكبر بحيث إذا واجه امتحاناً ما في حياته ـ وما أكثر الإمتحانات ـ فوض أموره إلى الله ورضي بما يقضي ويقدر جل شأنه. فالإرادة العملاقة الصادقة بتوطيد النفس على حصول كمال الرضا بالإكثار من الدعاء إلى الله تعالى والاستدامة فيه تؤتي ثمارها إن عاجلاً أو آجلاً. فينفذ هذا الذكر من اللسان والجوارح الظاهرية شيئاً فشيئاً إلى الجوارح الباطنية، ثم ينفذ عميقاً في شكل ذكر خفي إلى الدم واللحم والعظم والشحم وغيره، ثم نفوذاً أعمق وأعمق في ملايين ملايين الخلايا في كل وجوده، حتى تكون السمة الغالبة عليه هي الرضا. ثم ينفذ الذكر الخفي في تداعيات الخواطر حتى يترسخ عميقاً في باطن السالك.

والتوكل على الله يقتضي الصبر، وهو قبول دورة زمنية معينة لتحقيق أي شيء. أو كما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[2]. والصبر هو

---

(١) هذه الحقيقة الصادقة الناصعة بالإضافة إلى حقائق صادقة ناصعة أخرى ودرر من الحكمة لا يبلغ مداها تؤهله بأن يسمى «سلطان العارفين». وعندما كنت في حرم الإمام الرضا عليه السلام في يوليو ٢٠٠٨ قريباً جداً من ضريحه المبارك تيقنت بأن الحوائج مستجابة في هذا المقام المقدس، فاستحييت أن أسأل الله تعالى حوائج الدنيا فسألته ما هو أعلى وأسمى من ذلك بكثير وهو مقام كمال الرضا الذي كان يحظى به الإمام الرضا عليه السلام وبايزيد البسطامي فسألته سبحانه وتعالى شعراً:
أطالب ربي كمال الرضا بحق علي بن موسى الرضا بحق الإمام التقي النقي ومن اسمه في العالمين الرضا.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٣

هذا الإنتظار في كمال الرضا والتسليم حتى يبلغ الله أمره، تيقناً واعتقاداً جازماً من الصابر بأن الله قد جعل لكل شيء قدراً - أي دورة زمنية معينة لتحقيق أي شيء. والصبرإذا كان مقروناً بالجزع والاعتراض على قضاء الله وقدره فهو ليس بالصبر الذي يوفي الله أجور أصحابه. إنما الصبر هو الذي كان مقروناً بالتسليم والرضا المطلق لقضاء الله وقدره والارتياح الكامل إليه خنوعاً لإرادة الله ﷻ. وفي الحقيقة كل ما في مشيئة الله حاصل لا محالة رضيت بذلك أم أبيت. فرضاؤك أو اعتراضك لا يغير من وجه الحقيقة شيئاً. إنما هو محض امتحان وابتلاء لما تكون أنت عليه في الحقيقة، **فموقفك من واقعيات القضاء والقدر يؤدي بك إما إلى الجنة أو النار.**

فإن رضيت بقضاء الله وقدره، والذي هو حاصل فعلاً، دخلت السعادة الأبدية، والتي هي عبارة عن رضاك. والرضا هو أحسن حالات النفس. وإن اعترضت على الله جل وعلا، أي عاندت وكابرت قضاء الله وقدره، الذي هو حاصل فعلاً، دخلت الشقاوة الأبدية، والتي هي عبارة عن الحالات النفسية للاعتراض والمعاندة والمكابرة، وهي أسوء حالات النفس. وهذا هو اختيارك فانظر ماذا تريد: السعادة أو الشقاوة. فإن اخترت أن يختار الله لك في قضائه ويبارك لك في قدره فأنت في مستوى سام رفيع ومقام شامخ منيع، قد خففت عن ظهرك السلاسل والأغلال والأصفاد والأثقال وشكرت الله على قضائه. وإذا أردت قدراً مباركاً عرضت على الله وحده ضعفك غير مكابر ولا معاند، وأكثرت من الدعاء والخضوع والخشوع له، وتضرعت إليه باكياً منتحباً عائذاً به وملتجئاً إليه من كثرة ضعفك وقلة حيلتك.

وإذا أراد الله تعالى أن يبارك لك في قدرك فهو هذا الدعاء بعينه الذي يعبؤا الله بكم من أجله والذي يقول الله جل شأنه في حقه: ﴿قُلْ مَا

يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾[1]. فالقضاء هو الخريطة الإجمالية لمشيئة الله والقدر هو التفاصيل. فهذه الخريطة الكلية هي في علم الله وهي واقعة لا محالة. وأما تفاصيل الخريطة فيمكن أن يبارك الله لك فيها أو يذيقك مرارتها ـ كل حسب اختيارك وتصرفك ومقامك في التربية الروحية. والمهم هنا هو هل أنت تقبلها كما هي أو أنت معترض عليها وغير مرتاح إليها. فإن قبلتها في كمال الرضا كما هي، وتحملت المصائب في سبيل الله من دون شكوى إلا إليه، كنت ممن يوفيهم الله أجور الصابرين. وإن كنت معترضاً عليها فأنت على نهج إبليس رجيم وبعيد عن رحمة الله. ولا تنس أنك اخترت ذلك بنفسك بمحض إرادتك.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الطلاق: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾. أتعجب من هذا الإنسان الجهول كيف يحب حمل السلاسل والأغلال والأصفاد والأثقال في عنقه وفوق ظهره! وكيف لا يكل كل أعبائه إلى ربه! فما أحلى الحياة أن يكون الله فيها حسبك ونعم الوكيل! يظن الإنسان جهلاً أنه إذا حمل الهمّ والغمّ فإن الأمور ستكون حسب هواه. كلا إن الله يفعل ما يشاء رضيه المرء أو أباه. أما إذا خفف العاقل عن نفسه كل هذه الأعباء وفوض أموره إلى الله يكون الله هو حسبه ووكيله، فهو بالغ أمره متى ما شاء وقدر في دورة زمنية معينة. وإذا وعى الإنسان أن لكل شيء قدراً، وقبله وارتضاه طوعاً لا كرهاً، فذلك هو العقل الكبير الذي يسمى الصبر والتوكل على الله.



(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.

ما هي المعاصي والذنوب

يقول بشر الحافي: «إذا لم تكن في طاعة الله فلا تكن في معصيته».

من كبائر المعاصي والذنوب هي ما اتصف بها إبليس وهو الكبر والتكبر والتجبر والعجب والاعتراض على الله وعدم التسليم له وعدم الرضا بما يقضي ويقدر. وهي الذنوب التي يتصف بها الناس في إيابهم وذهابهم وحلهم وترحالهم، يقترفونها بكل سهولة في أيام حياتهم، ولا رادع لهم من ضميرهم. بل يبررونها بكثير من ظنونهم، وكأنما إبليس قابع فيهم وهو بالفعل كذلك. يقول الرسول ﷺ: «**إن الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم**».

ويقول الرسول ﷺ: «**لو لم تذنبوا لخشيت عليكم بأشد من ذلك العجب العجب**». أما التكبر والتجبر فيقول الإمام الصادق عليه السلام «من كان في قلبه نقطة من كبر لا يدخل الجنة».

فالسالك يراقب قلبه باستمرار في تفاصيل وارداته وخواطره، لئلا يدخل العجب والكبر في صفحات قلبه. فإذا دخل تنبه واستغفر الله من هذه الكبائر من المعاصي والذنوب. وكيف لا يتنبه لها وهو الذي قطع أشواطاً من معرفة النفس! يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا

ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[1].

وبالإضافة إلى صفات إبليس لعنه الله هناك ذنوب ومعاصي أخرى كثيرة: منها حب الدنيا وهو رأس كل خطيئة، كما ذكر الإمام زين العابدين عليه السلام. ومن فروع حب الدنيا الحسد والظلم والانتقام وهي معاصي قابيل الذي قتل أخاه هابيل. ومن فروعها أيضاً اهتمامك بترهاتها، ووضع أولوياتك فيها، وإخلادك واطمئنانك إليها، والغفلة والاغترار بمغرياتها، وطول الأمل في تمنياتها، والتسويف في التوبة منها، والحرص عليها وعلى رغباتها وشهواتها، وفضول النظر، وفضول اللغو والكلام والشبق، وشهوة الغيبة وشهوة سماع اللغو والغيبة، والتنافسات الدنيوية وحب المال والنفس وغيرها.

ومن فروع الكبر الذي هو صفة إبليس العجب والغرور والطغيان، والاستهزاء والتهكم بالناس، والجهل والعداوة والبغضاء والأحقاد، وحب الجاه والمقام والرئاسة والعلو، وجمع الاكتسابيات والمعلومات طلباً في العلو في الأرض، ولإظهار الفضل في الدنيا وغيرها. والذين هم مرضى بحب العلو والفساد في الأرض لا يمتون إلى دار الآخرة بشي. يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

وفي هذا المقام نذكر جدولا، مما تيسر لنا في الوقت الحاضر، يتضمن المعاصي والذنوب والرذائل في طرف، وفي الطرف الآخر مقابله

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) سورة القصص، الآية ٨٣.

من الفضائل ومكارم الأخلاق، وذكرنا ذلك على سبيل المثال لا الحصر، وحاولنا التطرق إلى أمهات المعاصي لا إلى الفروع:

المعاصي والذنوب والرذائل	الفضائل ومكارم الأخلاق
١ ـ الكبر والغرور والتجبر والعجب	التواضع
٢ ـ حب الجاه والمقام والرئاسة والعلو	التقوى
٣ ـ الاكتسابيات والإضافات على الفطرة	إسقاط الإضافات
٤ ـ الاعتماد على المعلومات	الفناء في المعلوم
٥ ـ الجهل	العلم والمعرفة
٦ ـ الطغيان	الخشوع والخضوع وطمأنينة النفس
٧ ـ الاستهزاء والتهكم بالبشر	الإحترام الكامل للآخرين
٨ ـ العداوة والبغضاء والأحقاد	الحب والنصيحة
٩ ـ الحسد	الإيثار
١٠ ـ الانتقام	العفو
١١ ـ الظلم	العدل
١٢ ـ حب الدنيا	الزهد
١٣ ـ الحرص	التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود
١٤ ـ اهتمامات الدنيا	الاهتمام بالآخرة
١٥ ـ رغبات الدنيا	الرغبة في الله وفي دار الآخرة
١٦ ـ التنافسات الدنيوية	التنافس على الآخرة
١٧ ـ الغفلة	التنبه
١٨ ـ طول الأمل	قصر الأمل وعدم التعويل على الدنيا
١٩ ـ التسويف في التوبة	الجدية في السير والسلوك

٢٠ ـ الشبق	الاعتدال
٢١ ـ شهوة النظر وفضوله	غض البصر والتركيز على القلب
٢٢ ـ شهوة الغيبة وسماعها	الاهتمام بعيوب النفس والاشتغال بها وغض السمع
٢٣ ـ شهوة اللغو وفضوله	الإعراض عن اللغو
٢٤ ـ شهوة سماع اللغو	غض السمع وسماع ذكر الله
٢٥ ـ حب المال	حب الخير والإحسان
٢٦ ـ حب النفس	حب الله
٢٧ ـ الشك	اليقين
٢٨ ـ الرياء	الإخلاص
٢٩ ـ الكفر	الإيمان
٣٠ ـ الغضب	الحلم

ورب قائل يقول: «لم تذكر الزنى والسرقة والقتل وغيرها». نقول إن بالإضافة إلى ما ذكرنا هناك ذنوب أخرى لا يسع لها المجال هنا. فعلى كل حال من غض البصر وركز على القلب واعتدل في اهتماماته الجنسية في إطار الأحكام الشرعية تخلص من الزنى. ومن انتزع انتزاعاً عن حب المال وانهمك في كسبه الحلال أفلح ونجى من السرقة. ومن تبرأ من العداوة والبغضاء والأحقاد والانتقام والظلم لم يرتكب قتلاً.

ومن تسامى لا على الرذائل فقط بل على الفضائل أيضاً، وارتفع إلى مكارم الأخلاق، لم ينتقم حتى من عدوه. ثم عفا عمن ظلمه ووصل من قطعه وأحسن إلى من أساء إليه. فإذا عرف عدوك ذلك أمنك وارتاح إليك، كما قال الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ

﴿لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[1]. وكما في قول بشر الحافي: «لا تصل كمال الإيمان ما لم يأمن جانبك عدوك». ومن تسامى على الرذائل والفضائل، وتخلص من الدنيا والآخرة، وتخطى الكفر والإيمان معاً، وجعل قلبه خالياً من غير الله، وانقطع إلى الله كمال الانقطاع، رفعه الله مكاناً علياً. يقول الله جل وعلا في حديثه القدسي: «من انقطع إلينا رفعناه مكاناً علياً».

فأنت هو ما تطمح إليه وأنت ما هو منتهى أملك. يقول الرسول الأعظم ﷺ: «الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا، والدنيا والآخرة حرام على أهل الله».

وفي ذكر أساسيات الفضائل ومكارم الأخلاق نذكر قصة يحيى عليه السلام كالتالي:

جمع يحيى عليه السلام بني إسرائيل يوماً في بيت المقدس وبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم قال: «إن الله ﷻ أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن»:

١ - وأولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده. فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك. وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

٢ - وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

٣ - وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة. كلهم يجد ريح المسك. وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

٤ - وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال: «هل لكم أن أفتدي نفسي؟». فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه.

٥ - وأمركم بذكر الله ﷻ كثيراً فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في إثره فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه. وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله.



وفاة بشر الحافي (قدس سره)

ويقول السيد حسين الموسوي العالم في المجلس العشرين من كتابه المجالس[1]:

«فيا أيها الناس إن السالكين إلى الله غيري وغيرك، قلوبهم منصهرة بالعشق الإلهي. يقال إن بشر الحافي حينما مرض مرض الموت، اجتمع عنده على فراشه بعض مريديه، وقالوا له: نريد أن نحمل قارورتك إلى الطبيب. قال: أنا بعين طبيبي (يريد به الله) يفعل معي كما يشاء. قالوا: هناك طبيب نصراني حاذق جداً، نريد أن نحمل إليه قارورتك. فقال بشر الحافي: اتركوني فإن الطبيب قد أمرضني. فألحوا عليه كثيراً، فقبل بشر وقال لأخته: غداً سلميهم قارورتي.

وعندما أصبح الصباح، وحملوا القارورة إلى الطبيب النصراني، تفحص فيها الطبيب وقال لهم: حركوها فحركوها، ثم قال لهم: ضعوها فوضعوها ـ فعلوا ذلك ثلاث مرات. فقال أحدهم للطبيب: كنا نظنك حاذقاً، وصاحب دقة وسرعة إدراك وحدس صائب، في حين نراك الآن تكرر التفحص والتمعن في هذه القارورة، مما يدل على قلة المعرفة. فأجاب الطبيب: والله لقد شخصت المرض من أول نظرة، ولكنني في

(١) كتاب قدوة الفقهاء والعارفين للمؤلف صفحات ٢٢٠ ـ ٢٢١.

عجب، ولذلك كررت التفحص، فإن كان صاحب هذه القارورة نصرانياً، فإن خوف الله قد مزق كبده، وإن كان مسلماً فإنه بشر الحافي، وليس عندي دواء لهذا المرض، أسرعوا إليه فإنه سيموت. قالوا: والله هذا الماء لبشر الحافي، وعندما سمع الطبيب النصراني ذلك، أخذ المقراض وقطع الزنار، ونطق بالشهادتين، وأجهر إسلامه.

وينقل عن هذه الجماعة أنه لما أسلم الطبيب النصراني، أسرعنا خطانا إلى بشر الحافي، لكي نحمل إليه هذه البشارة السارة. وحين وقع نظره علينا، قال: لقد أسلم الطبيب النصراني، فقلنا: بلى، ولكن بالله عليك من أخبرك بذلك. فقال: حينما ودعتموني حصلت لي حالة بين اليقظة والمنام، فسمعت هاتفاً يقول: أيا بشر طوبى لك! فلقد أسلم الطبيب النصراني ببركة مائك. وبعد هذا الكلام بساعة، انتقل بشر الحافي إلى دار الوصال».

روي أنه عندما حان وقت وفاته وجدوه في اضطرب عظيم. فقالوا له: أتحب الحياة؟ فقال: «لا والله! ولكن زيارة ملك الملوك شيء صعب». وروي أنه كان في مرض الموت فجاءه أحد يشكو إليه ضيق اليد. فوهبه بشر الثوب الذي كان يلبسه ثم استعار ثوباً ومات في ثوبه المستعار.

وبعد وفاته رأوه في المنام فسألوه: ماذا فعل الله ﷻ بك؟ فقال: «عاتبني وقال لي لماذا كنت أخشاه في الدنيا؟ أما علمت أن الكرم صفتي؟». ورآه أحد في المنام وسأله: ماذا فعل الله ﷻ بك؟ فقال: «لقد غفر لي وقال: كل يا من لم يأكل لأجلي، واشرب يا من لم يشرب لأجلي». ورآه آخر في المنام وسأله: ماذا فعل الله ﷻ بك؟ فقال: «لقد غفر لي ووهب لي نصف الجنة وقال لي: يا بشر! لو سجدت لي في

حرارة النار لم تؤد واجب شكري أن عظمتك في قلوب عبادي». ورآه آخر في المنام وسأله: ماذا فعل الله ﷻ بك؟ فقال: «قال لي مرحباً يا بشر! في الساعة التي خرجت روحك لم يكن على الأرض من أحبني أكثر منك».

روي أن امرأة أتت إلى أحمد بن حنبل وقالت: «أغزل القطن في الليل على سطح منزلي على ضوء مشاعل حرس السلطان. هل يجوز ذلك أم لا؟ فسألها متعجباً من عظمة تقواها: من أنت؟ فقالت: «أنا أخت بشر بن الحارث». فأجهش أحمد بالبكاء وقال: «هذا التقوى لا ينبع إلا من داره». ثم قال: «لا يجوز! فاحذري أن لا يتعكر ماؤك الصافي، واقتدي بأخيك ذاك المقتدى الطاهر الزكي، حتى إذا أردت الغزل على ضوء مشاعلهم لم تطعك يداك. كان أخوك كذلك إذا مد يده إلى طعام الشبهة لم تطعه يداه. وكان يقول: «يحكمني سلطان اسمه القلب ورغبته في التقوى، لا أستطيع مخالفته».



السير والسلوك
من القلب إلى الرأس

يقول الله جل وعلا: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾[1]. ويقول بشر الحافي (قدس سره): «الزهد ملكة يختص بها القلب الخالي» ـ أي القلب الخالي من غير الله.

فما هو القلب السليم وما هو القلب الخالي من غير الله؟

القلب السليم هو القلب الذي لا يوجد فيه غير الله، كما أن القلب الخالي هو القلب الخالي من غير الله. لأنك إذا حملت معك بعد الموت قلباً يوجد فيه تعلق بمتاع الدنيا، فأنت في حالة تعلق قلبي بذلك المتاع، ولا يوجد في تلك النشأة ذلك المتاع. فأنت في النشأة الأخرى في حالة تعلق قلبي بشيء لا يوجد فيها، وتلك هي المصيبة الكبرى! ذلك هو البرزخ الذي يذكره الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2].

ترى ما هو البرزخ؟ البرزخ هو دار التعلقات القلبية. هي الحالة البائسة المعذبة التي يوجد فيها تعلق قلبي بشيء أو متاع من هذه النشأة الدنيا، والذي من المستحيل أن تجده أو تدركه في تلك النشأة الآخرة. تصور أنك تريد الماء ولا تحصل عليه. كيف تكون حالتك؟ من المحقق

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.

أنك تتعذب في هذه الحالة عذاباً شديداً. كذلك الحال في البرزخ، هناك العذاب على قدر تعلقاتك بالدنيا لا غير. فإذا كنت لا تحمل معك غير التعلق القلبي بالله فأنت صاحب القلب السليم والقلب الخالي.

وهذا الخلو من غير الله يتحقق بعد عملية نفي الخواطر ـ وهو المصطلح المعروف في العرفان. وأحاول في هذا الفصل تبيين الأمور بالطريقة العرفانية التقليدية. وسأبينها بلغة اليوم وبالطريقة العلمية الحديثة في الفصول اللاحقة، وهي فصول نظم السلوك بشعبها الثلاث: فرن الرياضة، ومرآة النفس، والعقبة الكأداء في باب معروف الكرخي.

إذن إذا لم تتم وتنجز عملية نفي الخواطر لا يمكن للقلب أن يخلو لله وحده. وتكون هذه العملية قد تمت وأنجزت حين تتوقف الخواطر. ولا تتوقف الخواطر إلا بعد التزكية عن هوى النفس[١]، وإلا إذا استسلم الرأس أو الدماغ أو المخ المستقر في الرأس، وخضع برمته للعارف وأسلم على يديه. ويكون مخ الرأس قد توقف عن تلقي الإشارات الفاسدة من الطبيعة ومن المحيط الفاسد عن طريق الحواس الخمس، أو بالأحرى توقف عن التأثر بها بأي شكل من الأشكال. وبدأ بتلقي

(١) وهوى النفس عبارة عن اعوجاجات النفس الذاتية، الناتجة عن عوامل الوراثة والجينات، بالإضافة إلى عوامل التربية والمحيط والاكتسابيات، التي تنتقل إليها عن طريق الحواس الخمس. نعم إن الطيور على أشكالها تقع، ولولا السنخية بين النفس المعوجة وفساد التربية والمحيط والطبيعة، لما حصل هذا التناغم ولما كان هذا الانتقال ممكناً. ولكن الفساد الخارجي يزيد الفساد الذاتي فساداً ويفاقمه ويزيد الطين بلة. وكل هذه العوامل ـ الذاتية والمكتسبة ـ تتمركز في الدماغ وتتسبب في فساده. والدماغ هو المحطة الكبرى في شبكة النظام العصبي العنكبوتية الواسعة. ولذا يأتمر النظام العصبي بأمره وينتهي بنهيه، ويكون واقعاً تحت استبداد الدماغ الفاسد. ويصبح الإنسان بدوره واقعاً تحت سيطرة النظام العصبي وسطوه وجبروته.

الإشارات الإشراقية السامية من إرادة العارف نفسه، وبدأ في امتصاص التأثيرات الإيجابية النورانية والتلقينات الإلهية الربانية والإلهامات من جانب الملأ الأعلى.

ويكون النظام العصبي المرتبط بالدماغ أو بمخ الرأس يتلقى التعليمات والإشارات الإلهية من هذا الدماغ الجديد الذي ولد للتو في عالم الملكوت. يقول الرسول الأعظم ﷺ: «**أسلم شيطاني على يدي وأعانني الله عليه**». ويقول الإمام علي عليه السلام: «خضع لي شيطاني». ومن المحال أن يستطيع أي إنسان أن يفعل ذلك. ولكن تنهار قلاع المستحيلات أمام العارف، وذلك بفضل الله وتوليه العارف كما يتولى الصالحين من عباده. وفي الحقيقة تكون الولاية الإلهية هي التي تدير دفة الدماغ في هذا العهد النوراني.

في الظروف العادية يتعامل الدماغ مع الطبيعة ومع المحيط الفاسد ويتأثر بها سلبياً أيما تأثير، ومن ثم ينقل الدماغ هذه التأثيرات السلبية السوداء السوداوية إلى النظام العصبي ويؤثر في هذه الشبكة الواسعة. وتبعاً لذلك يكون الشيطان هو الذي يدير دفة الدماغ ويقود أزمة النظام العصبي في الإنسان العادي. ويكون الرجس هو سيد الموقف يدير عمليات الدماغ إدارة غير عقلائية. وغني عن القول إن المخ القابع في الرأس قد خلقه الله تعالى لتسيير أمور الجسم وحفظ وتأمين بقاء الذات وبقاء النوع البشري واستمراريته.

أما إذا بدأ السالك في السير والسلوك، ودخل في عالم الملكوت، وواصل سيره نحو الجبروت واللاهوت، موطداً عزمه في جد وعزيمة واجتهاد في التربية الذاتية أو الروحية، يكون الرجس أو الشيطان مرافقاً له، رغم التدهور التدريجي في قوته وجبروته. ويكون العارف قد تعامل

في طريقه مع حجب الرجس أو أولاد الشيطان وجنده، متحاشيًا الرجس أو الشيطان نفسه. وتكون قوى الحجب الجبارة وقوى أولاد الشيطان وأحفاده وجنده قد انهارت وتدهورت وضعفت حدتها وجبروتها، ومالت بالتدريج إلى الضعف والوهن. إلى أن يصل العارف إلى الحد الذي يواجه فيه الرجس أو الشيطان وجهاً لوجه.

ويكل العارف أموره دائماً إلى الله العلي القدير، وهو الذي يسهل عليه هذا النضال والحرب الشرسة، ويوصله إلى الانتصار عليها. ويستعمل العارف أنواع الذكر الخفي وعلى الأخص هذا الدعاء: «إلهي تولني كما تتولى الصالحين من عبادك»، طالباً بكل وجوده ولايته سبحانه وتعالى. ويرى العارف المعجزات وقد تحققت أمامه، وبرزت التغييرات جلية فيه، لا لبس فيها ولا غموض. ولو أنه لم يسع بنفسه ولم يجاهد في باطنه لما حصلت تلك المعاجز ولما تحقق فضل الله عليه.

أما عندما يكون العارف وجهاً لوجه أمام الرجس أو الشيطان فإنه يلتجئ إلى الله بهذا الدعاء: «إلهي تولني بسكينتك وصبغتك»، طالباً بكل وجوده من العزيز القدير أن يغدق عليه سكينته ويصبغ مزاجه بصبغته المقدسة. فتنتشر فيه سكينة الله وصبغة الله وحالته المقدسة السامية، إلى أن تنهار أمامه قوى الرجس أو قوة الشيطان العظمى، ويسلم الشيطان نهائياً على يديه بمعونة الله وولايته سبحانه وتعالى.

لقد سمعت شيخي ومعلمي الرباني صادق العنقا (قدس سره) يقول يوماً: «**هذا الرأس يمثل الشيطان في علوه واستعلائه، وهذا القلب يمثل الملكوت في منخفضه وخفائه**»، مشيراً إلى رأسه ثم إلى قلبه. وما نحن الآن بصدده يظهر مصداقية هذا القول.

نعم يبدأ السالك بالتركيز على قلبه، فهو نافذته على الملأ الأعلى، ويدخل عالم الملكوت من خلال النقطة النورانية في قلبه. ثم يسير أشواطاً بعيدة في عوالم الملكوت والجبروت واللاهوت. ويتعرف في الطريق على نفسه وعلى الله ويصبح عارفاً بالله[1].

ولكي يصل إلى التجريد الكامل في عالم اللاهوت يواجه العارف عقبة كأداء يتحتم عليه تجاوزها، حتى يتحقق عنده القلب السليم أو القلب الخالي كما ذكره بشر الحافي (قدس سره). ولا يتحقق ذلك إلا إذا استسلم الرأس أخيراً وآخراً للعارف بكل ما فيه من الدماغ وشبكة الأعصاب التي تتصل بالنظام العصبي. حتى يدخل الرأس في نهاية المطاف في عالم الملكوت ويولد فيه من جديد. ومن ثم يدخل النظام العصبي برمته في عالم الملكوت ويولد فيه من جديد، تبعاً لسيده المخ القابع في الرأس.

وبذلك تكون النهاية السعيدة في تحقيق النفس المطمئنة الخالدة في قصة العارف الذي يطمح إلى أن يتوّج سيره وسلوكه إلى الله باستسلام رأسه له وإسلامه على يديه. نعم تلك هي العقبة الكأداء التي تحدث عنها أبو ذر الغفاري إلى الغلام الذي عيره قائلاً: «لو كنت طيباً لما طردك عثمان من المدينة». فأجابه أبو ذر: «**إن أمامي عقبة كأداء إذا اجتزتها لم أبال بما تقول، وإذا لم أجتزها فأنت صادق فيما تقول**». وهي نهاية غير سهلة التحقيق إلا لمن رحم ربي.

---

(١) يقال إن بايزيد سمع يوماً الخطيب على المنبر وهو يقرأ هذه الآية الشريفة: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾. وكان بايزيد جالساً بمحاذاة المنبر فضرب برأسه على المنبر حتى أغمي عليه. وعندما أفاق قال: «يا رب إذا كنت تعرف ذلك فمن أين أتيت بهذا الكذاب الذي يدعي معرفتك؟».

نعم هي سهلة التحقيق بالنسبة لمن أراد الله أن يذهب عنهم الرجس أهل البيت ويطهرهم تطهيراً. فعلى سبيل المثال الإمام علي عليه السلام الذي تربى منذ نعومة أظفاره في أحضان التربية المقدسة، لم تخالطه وساوس الشيطان منذ طفولته، ولم تستقر في عقله الباطني إلا همسات الملائكة وزمزماتهم.

وكذلك أهل بيته المعصومون الذين ترعرعوا في الأحضان المقدسة، التي لم تسمح للشياطين أن تستقر في منطقة اللاوعي عندهم، والذين لم يتعاملوا قطّ مع الطبيعة والمحيط الفاسد بتأثيراتهما الفاسدة، منذ نعومة أظفارهم، حتى طهر الرأس وطهر الدماغ، وتبعاً لذلك طهر النظام العصبي وحلت العصمة عندهم. لم يعط المجال قطّ للشيطان أن يدير دفة الدماغ عندهم ومن ثم النظام العصبي. فترعرعوا والقدس يزمزم في آذانهم نغمات النفس المطمئنة والسكينة الخالدة، لم يحيدوا عنها قيد أنملة. فالتربية المقدسة لعبت دورها المقدس في حياتهم، ومن قبل كانت عندهم البذرة المقدسة التي وضعها الله فيهم، فهم ممن سبقت لهم من الله الحسنى، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

أما في غيرهم فيبقى الرأس العقبة الكأداء في طريقهم المقدس. ولكن ليس هذا حافزاً على اليأس عندهم البتة. أليس الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يقول: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»؟ ألم يكونوا الأنبياء البذرة المقدسة والنور الساطع؟ على الرغم من تربيتهم في عهود الظلام!

فلنرجع إلى الظروف العادية والناس العاديين مثلنا الذين يريدون السير على منهاج أئمتهم. نعم يبقى الرأس والدماغ والنظام العصبي هو العقبة الكأداء عند العرفاء وأولياء الله الصالحين في نهاية طريقهم الشاق

الشائق. نعم يمثل حالتهم خير تمثيل ويجسدها خير تجسيد مناجاة الإمام علي عليه السلام حين يقول:

إلهي ترى حالي وفقري وفاقتي   وأنت مناجاتي الخفية تسمع



نعم تلك هي لسان حالهم أمام الله. يقولون: «يا رب إنك ترى حالنا وفقرنا وكيف أننا حبيسون في قفص الدنيا والعالم الضيق رغم استشرافنا وإطلالنا على العالم الأكبر فينا». وهذه هي مناجاتهم الخفية في بواطن ضميرهم. يرون أنفسهم أسرى النظام العصبي الفاسد، رغم تقدمهم وعروجهم، يعمل عندهم بطريقة غير عقلائية، لما ينفلتوا منه إلى الحرية. **فالعرفاء في واد ونظامهم العصبي في واد آخر!** النظام العصبي، على الرغم من عروج القلب إلى عالم الملكوت، لا يزال أسير ردود أفعاله، والرأس لا يزال في إسارة الشيطان وأولاده وجنده وأحفاده، رغم الضعف والوهن الذي دب فيهم.

نعم النظام العصبي غير عقلائي، ولكنه يؤدي وظيفته الكبرى في هذه الحياة لتأمين بقاء الذات وبقاء النوع البشري. وهذه العملية أتوماتيكية لا تحتاج إلى العقلانية. ولكن العارف في مواصلته السير نحو خلو القلب[١] وسلامته[٢]، وخلال تربيته الذاتية الروحية العليا يواجه الرأس والدماغ والنظام العصبي، ويعيش في تصادم تناقضي مع إفرازات هذا النظام. ولكن التربية الذاتية الروحية إذا توسعت يمكنها في نهاية أشواط السير والسلوك الانتصار في نهاية المطاف على المخ القابع في الرأس، بحيث تخلص العارف من عذابه الداخلي أو النار التي تشتعل

(١) القلب الخالي كما يشير إليه بشر الحافي (قدس سره).

(٢) القلب السليم كما يشير إليه القرآن الكريم.

في النفس - والتي هي ظاهرة جلية للعارف وغائبة مختفية عن الإنسان العادي - وفي الوقت نفسه تبقي على وظيفة الدماغ الطبيعية لحفظ البقاء المادي في هذه الدنيا. هي ظاهرة جلية كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾[1].

والحصيلة هي تخلص الروح من شوائب المادة، ومن عملية ردود الأفعال العصبية إزاء الإشارات السلبية، التي يتلقاها النظام العصبي من الدماغ، ومن ثم إلى اكتمال الروح أو ولادتها من جديد في عالم اللاهوت. فتولد الروح في ذلك العالم الإلهي مكتملة كما يولد الجنين السوي مكتملاً. والفرق الكبير بين الروح السوية والجنين السوي هو أن الروح السوية هي النفس المطمئنة الخالدة التي وصلت إلى السعادة المطلقة وإلى الخلود في هذه السعادة والسكينة، والتي تعيش في الخلود لملايين الملايين من السنين، بل لترليونات الترليونات التي لا تعد ولا تحصى من السنين. في حين أن الجنين السوي يخلق لبضع سنوات لا تكاد تتعدى المائة سنة.

فمن الأهمية بمكان ولادة الروح في عالم اللاهوت في اكتمالها التام واستوائها الكامل في عالم الخلود، مقارنة بأهمية ولادة الجنين في اكتماله التام واستوائه الكامل لستين أو سبعين سنة من عمر هذه الدنيا القصير. علماً بأن فرصتك قصيرة الأمد في هذه الدنيا، فإن فوتها كنت كمن نام على كنز مدة طويلة من الزمن ثم انتبه إليه وإلى أهميته في وقت الموت، ولات حين مناص! لا ينفع الندم حينذاك! ويقول ذاك الإنسان الذي ضيع هذه الفرصة الذهبية: «ارجعوني» في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾[2].

---

(١) سورة التكاثر، الآية: ٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩٩.

أي أعمل في إصلاح وجودي[1] لتلقي الفيوضات الوجودية والإشراقات الملكوتية، وانفتح على عالم اللاهوت أو الوجود الأصيل في هذا الكون الشاسع، ألا هو عالم الله.

ويقول ذاك الإنسان الذي ضيع هذه الفرصة الذهبية: لقد عشت طوال حياتي في قفص ضيق لا أخرج منه إلى الفضاء اللانهائي. وعشت في العالم الصغير المحدود لا أخرج منه إلى العالم الكبير[2] اللامتناهي، الذي هو موجود فعلاً في قابلياتي التي خلقت معها.

ويقول ذاك الإنسان: واحسرتاه! ضيعت فرصتي الذهبية ووجهت كل وجهي إلى عالمي البهيمي ونسيت عالمي الإلهي العظيم. ولقد ذكرنا القفص المحدود بتفاصيله بلغة علمية حديثة في الفصول اللاحقة باسم نظم السلوك بشعبها الثلاث: فرن الرياضة، ومرآة النفس، والعقبة الكأداء.

فالإنسان الجاهل على الرغم من دخوله الإسلام وأدائه الأحكام والفرائض الدينية إلا أنه يضيع أمداً طويلاً من عمره في الشك حتى لا تنفع معه موعظة، في قول أويس القرني: «قد خالط الشك هذه القلوب فما تنفع معها موعظة».

---

(١) هل وجود الإنسان أقل من جهاز الراديو أو التلفزيون؟ فكما أن جهاز الراديو أو التلفزيون الذي لا يعمل يحتاج إلى تصليح حتى يتلقى الأمواج الكهرومغناطيسية في شكل أصوات أو صور حية، كذلك الإنسان هو جهاز ويحتاج إلى إصلاح كي يتلقى الفيوضات والإشراقات من الوجود.

(٢) ألم يتكلم الإمام علي عليه السلام عن هذا العالم الكبير الموجود فعلاً في قابلياتك مخاطباً الإنسان قائلاً؟

أتحسب أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

أو كالكثير ممن تورطوا في الشريعة فأدوا فرائضها وأحكامها، ثم إذا حضرت بلية ونزلت نازلة جعلوا دينهم دون أنفسهم، وذلك هو الخسران المبين!

أو كالكثير من أمة محمد ﷺ الذين يدعون دين الإسلام ويصلون ويصومون، ولكن طلبوا الجاه والرفعة والعلو والرئاسة وملك الري، أوطلبوا الأموال والجائزة من عند أهل الجور من حكامهم، فانحرفوا عن الدين. ولأجل الرئاسة والأموال رفعوا سيوفهم على العترة الطاهرة وأوقعوا فيهم مذبحة عظيمة في يوم عاشوراء، حتى قال عنهم الإمام الحسين عليه السلام: «والدين لعق على ألسنتهم».

أو كالكثير ممن تورطوا في الشريعة، وبالإضافة إلى أداء الفرائض والأحكام الدينية، أدوا النوافل وقاموا الليل وصلوا صلاة الليل وسهروا وتهجدوا حتى اسودت جباههم من كثرة السجود. ثم إنهم خاصموا ولي أمرهم الإمام علي عليه السلام وقاتلوه في حرب النهروان. واختلط عليهم الأمر وظنوا أنهم على حق وأن عليًّا على باطل لمجرد أدائهم النوافل وقيام الليل وسواد جباههم. فخاصموا عليًّا في حرب صفين حينما مكر عمرو بن العاص مكراً كبيراً ورفع الصحائف فوق الرؤوس داعياً جيش علي عليه السلام إلى تحكيم القرآن الكريم.

فتوقفوا عن قتال معاوية وأجبروا عليًّا عليه السلام على تحكيم القرآن. وكلما قال لهم الإمام عليه السلام: «أنا القرآن الناطق» الذي تجسد علم القرآن وأحكامه، لم يصدقوه. بل صدقوا مكر عمرو بن العاص في ظنهم أن القرآن هو محض أوراق وصحائف. وما أكثر ما قرأوا القرآن ورتلوه بصوت حزين، ولكن القرآن لا يزيد الظالمين إلا خساراً، في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا

خَسَارًا﴾[1]. وفي قول أويس القرني: «لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان. هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً». فكانوا من الظالمين الخاسرين رغم أدائهم الفرائض والأحكام الدينية، بل رغم أدائهم النوافل وقيام الليل وصيام النهار. وكان علي عليه السلام على وشك الانتصار على معاوية، وكان قائده مالك الأشتر النخعي مع الأوفياء من جيش علي عليه السلام قريبين جداً من خيمة معاوية، فما برحوا حتى جاءهم أمر علي عليه السلام فرأوا إن لم ينسحبوا قتلوا أولئك عليًّا عليه السلام وأهدروا دمه. يقول الشاعر:

فـمـا بـرحـوا حـتـى رأى الله صـبـرهـم
وحـتـى أشـرت[2] بـالأكـف الـمـصـاحـف



وما أكثر ما كان أويس القرني يعظ أهل الكوفة، فلم يأتمروا بأمره ولم ينتهوا بنهيه بل رموه بالعظائم، حتى قال رضي الله عنه: «والله إنا لنأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر فيتخذونا أعداء ويجدون على ذلك من الفساق أعواناً، حتى والله لقد رموني بالعظائم. وأيم الله لا يمنعني ذلك أن أقوم لله بالحق». وحتى أن صبيانهم في الكوفة كانوا يرمونه بالحجارة فيقول لهم: «إن كان لا بدّ أن ترموني بالحجارة فارموني بالصغار كي لا تدقوا ساقي فتمنعوني عن الصلاة». وحتى أنه كان يغتم كثيراً ما دام مع هؤلاء الناس، فقال لهرم بن حيان: «إني أكره الشهرة والوحدة أحب إليّ لأني كثير الغمّ ما دمت مع هؤلاء الناس».

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٢) أشر فلاناً = نسبه إلى الشر.

ثم إنهم بعد عمر طويل إذا خرج الشك منهم وتيقنوا بوجود الملكوت أو العالم الأكبر في القلب، عاشوا لا يعيرون القلب انتباههم وتوجههم، ويسوفون ويسوفون إلى أن يباغتهم الموت.

يقول أويس القرني: «عليك بقلبك»[1]. وما أعظمها من موعظة! لو طبقوها لانهمرت عليهم الفيوضات من خلال النقطة النورانية في القلب انهمار المطر الغزير، وفتحت السماء عليهم فكانت أبواباً، ولخشعت لهم السماوات والأرض وما فيها من بركات وفيوضات.

ثم إن بعض الناس الذين وجهوا وجوههم للقلب ولعالم الملكوت يتورطون في حجاب من حجبه، ويصبحون من الضالين الذين ذكرهم الله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[2]. كالكثير من النصارى الذين انحرفوا عن عبادة الله إلى عبادة المسيح ﷺ وأمه ورهبانهم وأحبارهم والقديسين منهم. وكالكثير من المجوس الذين انحرفوا عن عبادة الله، الذي دعا إليه زرادشت، إلى عبادة شخص زرادشت.

أو كالسالك الذي سلك الطريقة، وسمع الموعظة النبوية: «موتوا قبل أن تموتوا»، أو ربما الموعظة الأويسية حين أوصى بها هرم بن حيان قائلاً: «يا هرم توسد الموت إذا نمت واجعله أمامك إذا قمت ... واحذر ليلة صبيحتها القيامة»، أو قوله: «إن الموت وذكره لم يدع لمؤمن فرحاً». فتورط في سوء فهم عظيم، ولبس كفنه وبقي في قبر حفره بنفسه، وأمضى فيه ثلاثين سنة باكياً ليله ونهاره. إلى أن أخبروا أويساً عنه. فقال: «رافقوني حتى أراه». فلما رآه قال له: «ابتعدت عن الله ثلاثين

(١) وهذه الموعظة العظيمة هي شعار الطريقة الأويسية.
(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٧.

سنة بالقبر والكفن وهما صنمان يبعدانك عن الله». فانتبه ذلك الشخص بفضل نور كلامه وعرف صنمه والتحق بالملأ الأعلى.

أو كالكثير من أولئك الرهبان المسيحيين الذين ابتدعوا الرهبانية وقضوا حياتهم في الجبال والكهوف في عزلة تامة، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾(١).

أما إذا تخلص المريد من الحجب واجتازها وأفلح ودخل في أمر الله طلب الله وحده في كل شيء. وكان آمناً بما تكفل الله له من أمر رزقه ورأى جسده فارغاً لعبادة الله كما قال أويس القرني رضي الله عنه.

نعم فراغ الجسد يتطلب هيمنة الله على الجسد كله، وتخلص كل زاوية من زواياه من هيمنة الشيطان. أو وصول هذا الجسد إلى السكينة والراحة والهدوء المطلق. **وهذا القول سهل في ظاهره وصعب شديد الصعوبة في تحققه**، ويتطلب التخلص النهائي من العقبة الكأداء، ألا هو هيمنة هذا الرأس الذي يمثل الشيطان في استعلائه وعجبه وغروره وصلفه، وفي فخره وتفاخره ومباهاته. ويتطلب التخلص من هيمنة الدماغ الذي تشبع طوال حياته بواردات الطبيعة والمحيط والمجتمع الفاسد الغير العقلائية ورفقاء السوء وما أكثرهم! ويتطلب التخلص من هيمنة النظام العصبي وشبكاته العريضة الطويلة، وتوجد محطتها الكبرى في الدماغ.

حتى يسلم الشيطان في نهاية المطاف على يديه ويعينه الله عليه.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

وتصبح هذه الشبكة الواسعة من الأعصاب والعضلات والألياف، وأيضاً الدماغ الذي يديرها، مطيعة طيعة مسلمة مستسلمة بيد العارف. وتتحقق في نهاية المطاف النفس المطمئنة التي يستتب فيها الأمن والأمان في النفس البشرية.

يقول السيد حسين العالم (قدس سره)[1]: «هنالك تبدأ القوى الحيوانية تدريجياً بالتمرن على طاعة العاقلة، وتسخر دائماً في خدمتها، وتأتمر بأمرها وتنتهي بنهيها. **وهنالك يستتب النظام في مملكة النفس، وتتحول نفس الإنسان إلى نفس مطمئنة**».

ويقول في مكان آخر من نفس الكتاب: «**وتكون مطمئنة حين تقبل كليًّا على الحق تعالى**».

ويقول في مكان آخر: «والرياضة التي هي أعلى وأشمخ من كل الرياضات هي رياضة العارفين، لأنهم ينشدون المرتبة الشامخة والمقام المنيع، ألا هو وجه الله تعالى».

ويقول في مكان آخر: «فالذي يطلب المحبوب الحقيقي، لا مجال له بأن يتعلق قلبياً بغير الله. فكيف يمكن له أن يتعلق بغير الله تعالى، في حين أنه يتحتم عليه أن يكون قلبه بيت الله تعالى - لا يسعني أرضي ولا سمائي بل يسعني قلب عبدي المؤمن[2]. فالعارف الحقيقي هو الذي قال عنه بايزيد البسطامي: لو أنهم وضعوا العرش إلى الفرش في زاوية من قلبي، لما ظهر لها أي أثر، تماماً كالحصا الصغير في وسط الصحراء الواسعة. وكيف لا يكون قلب العارف بهذه السعة، وهو محل تجلي النور الإلهي، والوصول إلى مرتبة حق اليقين».

---

(١) في كتابه «المجالس» انظر كتاب قدوة الفقهاء والعارفين للمؤلف صفحات ٢١٧ إلى ٢٢٠.

(٢) الحديث القدسي.

ويقول في مكان آخر: «فلا بد لطالب مرتبة حق اليقين أن يتنحى بقلبه عما سوى الحق، بمعنى أن يضع قدمه على كل ما هو سوى الله تعالى، وأن لا يرى غير الله في كل أفعاله وحركاته وسكناته».

ويقول في مكان آخر: «وكلما توغل في هذه الرياضات، حصلت له هذه التجليات، حتى يصل إلى مقام يكون قلبه فيه محاطاً بالنور الإلهي، ويتخلق فيه بالأخلاق الإلهية، ويصل إلى آخر نقطة من الكمال الذي هو مقام حق اليقين. وهنالك لا يرى إلا الواحد الحقيقي، ولا يبقى هناك واصف ولا موصوف، ولا سالك ولا مسلوك، ولا عارف ولا معروف. يعني تضمحل هنالك الإثنينية، ويتحقق الفناء التام، وهو منتهى آمال العارفين، وغاية كمال المرتاضين. فيا أيها الناس إن السالكين إلى الله غيري وغيرك، قلوبهم منصهرة بالعشق الإلهي».

نعم تتحقق في النهاية النفس المطمئنة التي يستتب فيها الأمن والأمان، ويدخلون في سلك خواص الله وفي سلك العارفين، كما في قول بشر الحافي (قدس سره): «إذا كان لدى الله خواص فهم العارفون»، الذين فنوا عن غير الله وبقوا مع الله وحده لا شريك له. حتى أن طاعاتهم لله حجبت عنهم كما دعا خضر عليه السلام لبشر الحافي: «وأن يحجب عنك طاعتك». وصانعوا وجهاً واحداً يكفيهم الوجوه كلها كما قال أويس القرني رضي الله عنه.



كل شيء من الله وإليه

يقول الإمام الحسين ﷺ في دعاء عرفة مناجياً ربه: «**أم كيف أترجم بمقالي وهو منك برز إليك**». نعم كل كائن بل كل شيء هو من الله وإليه ـ وجوده وحياته ومماته، وسكناته وحركاته ونظراته، وسماعه وكلامه وشامته وغيرها، كلها من الله وإليه. يقول بايزيد البسطامي: «**المعرفة تتلخص في أن تعرف أن كل حركات الخلق وسكناتهم من الله سبحانه وتعالى**».

إن الإنسان لا يدرك ذلك إلا إذا خرج من الجهل والطيش والغفلة والطغيان إلى العلم والوعي والمعرفة والعرفان. وإلا إذا خرج من طغيان الغرائز والشهوات والبطر والشبق والانحرافات إلى النفس المطمئنة والنضج والهدوء والسكينة. وإلا إذا خرج عن هوى النفس وشرنقتها وأتون دوامتها وعقبتها الكأداء إلى هيمنة الله العزيز العلام.

وهوى النفس عبارة عن اعوجاجات النفس الذاتية، الناتجة عن عوامل الوراثة والجينات، بالإضافة إلى عوامل التربية والمحيط والاكتسابيات، التي تنتقل إليها عن طريق الحواس الخمس. نعم إن الطيور على أشكالها تقع، ولولا السنخية بين النفس المعوجة وفساد التربية والمحيط والطبيعة، لما حصل هذا التناغم ولما كان هذا الانتقال ممكناً. ولكن الفساد الخارجي يزيد الفساد الذاتي فساداً ويفاقمه ويزيد

الطين بلة. وكل هذه العوامل ـ الذاتية والمكتسبة ـ تتمركز في الدماغ وتتسبب في فساده. والدماغ هو المحطة الكبرى في شبكة النظام العصبي العنكبوتية الواسعة.

ولذا يأتمر النظام العصبي بأمره وينتهي بنهيه، ويكون واقعاً تحت استبداد الدماغ الفاسد. ويصبح الإنسان بدوره واقعاً تحت سيطرة النظام العصبي وسطوه وجبروته. وعلاجه السير والسلوك إلى الله، والتعرض للنفحات الرحمانية من جانب ولي مرشد ومعلم رباني، والتزكية ونيل الكنوز من الكتاب والحكمة. يقول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[١]. ويقول جل وعلا: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[٢].

كيف يتم ذلك؟ هل نجلس وننتظر ولا نعمل شيئاً؟ أم ننصب ونجد ونجتهد ونرغب إلى الله رغبة شديدة. يقول الله جل وعلا: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾[٣]. نعم يمكن ذلك بعمل بسيط بالظاهر، خفيف على الأبدان، ثقيل على هيمنة الشيطان، ولكن بجهد جبار في الباطن، وإرادة وعزيمة وهمة، وتحت أنوار العلم والفهم والمعرفة ـ ألا هو تسبيحة فاطمة الزهراء عليها السلام.

ولكن كيف؟ كل الناس يسبحون بتسبيحتها، ولكنهم لا زالوا تحت هيمنة الشيطان؟ نعم لأنهم لا يعرفون معنى «الله أكبر والحمد لله وسبحان الله»، ويكررون التسبيحة المقدسة بلقلقة اللسان، لا بفهم ومعرفة باطنية، ولا بإرادتهم وعزيمتهم الوجودية. وإذا أرادوا فهم هذا المعنى وامتصاصه

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١٧.
(٣) سورة الإنشراح، الآيتان: ٧ ـ ٨.

وتجسده في وجودهم، فليذكروا هكذا بكل وجودهم، متعرضين لهيمنته جل وعلا، طالبين منه تعالى أن يهيمن عليهم: «إلهي هيمن علي بأكبريتك» ٣٤ مرة، ثم «إلهي هيمن علي بمحامدك» ٣٣ مرة، ثم «إلهي هيمن علي بقدوسيتك» ٣٣ مرة.

وإذا استمروا وواظبوا عليها بكل عزيمة تحققت عليهم هيمنة الله ﷻ. كيف؟

أ ـ أن يطلبوا هيمنة من هو أكبر من كل شيء. فأي شيء أكبر من الله يستحق اهتمامهم؟ فآنذاك تذوب اهتماماتهم كلها إلا هماً واحداً هو الله.

ب ـ وأن يطلبوا هيمنة محامده كلها عليهم. حينذاك تستقيم توجهاتهم الباطنية إيجابياً نحو الشكر على محامده ونعمه التي هي نصب أعينهم، والحمد والتمجيد والتقدير والتعظيم لآياته وآلائه سبحانه وتعالى، وتذوب توجهاتهم السلبية من حالات الاعتراض على الله وعدم الرضا بمشيئته وكفران نعمه.

ج ـ وأن يطلبوا هيمنة قدوسيته ﷻ عليهم. وتلك هي نعمة عظمى إذا أعطوها تناغموا مع الملائكة والقديسين في ذكرهم الباطني: «سبوح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح».

وإذا هيمن الله سبحانه وتعالى عليهم، وانسلخ الشيطان عنهم بهيمنته وسطوه وجبروته، صغرت في عيونهم اهتماماتهم وتوجهاتهم السلبية ورغباتهم وشهواتهم، وذاقوا حلاوة العبادة وعبودية الله جل وعلا. وأصبحت هيمنة المهيمن جداراً من حديد بينهم وبين شهواتهم ورغباتهم. كما في قول بشر الحافي: «لا تذوق حلاوة العبادة ما لم تجعل بينك وبين الشهوات جداراً من حديد».

نعم كل شيء من الله وإليه. وإذا قلنا إن أكثر أعمال البشر من الشيطان فلا تناقض في الحقيقة. لأن ذلك لا يعني أنها ليست من الله. فأكثر أعمالهم تنبثق من الجهل والغفلة وهي الشيطان بنفسه. فجهلك بهذه الحقيقة الساطعة هو الشيطان بعينه. فلذلك فالمخاطب هو البشر وحده لجهله وركوب هذا الجهل وهذا الشيطان عليه. وإذا كان مخاطبك هو غير البشر فلا جهل ولا شيطان، ولا علم ولا عرفان، ولا الجنة ولا النعيم، ولا النار ولا الجحيم! فسائر الأحياء والكائنات تسبح لله ليل نهار في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ﴾(1).

فالعيب كل العيب فينا البشر وحدنا. وإذا بقي الجهل والغفلة فينا، فانظر ماذا تحتقر من المخلوقات! الديدان والحشرات مثلاً! فاعلم أنك مثلهم بل أضل في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾(2). فالغفلة تدفعنا إلى هذا المنزلق الخطير وتنزلنا هذا المنحدر الرهيب إلى الحضيض من الحياة. إنك إنسان كرم الله مكانتك، رغم أنك لا تعرف مكانتك ولا تقدرها. وإنك باحتقارك الديدان والحشرات والأنعام إنما تحتقر الجانب البهيمي فيك! فإن بقيت في جهل وغفلة، فأنت أسوء وأضل من كل من تحتقر من الأنعام. أما إذا تغلبت على هذا العيب الخطير، وعرفت أن كل شيء منه وإليه، فهذا هو الانفتاح على سماوات المعرفة والعرفان.

هذه هي غفلة الجاهلين، وأما غفلة العارفين فهي أشق وأقسى. فيا ترى! أي شيء أشق وأقسى؟ أن تهجرك من لا تحبها، أم أن تهجر ليلى وتجفو مجنون ليلى!!! الذي يقول:

---

(1) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(2) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

والذي يقول:

أليس وعدتني يا قلب أني إذا ما تبت عن ليلى تتوب
فها أنا تائب عن حب ليلى فما لك كلما ذكرت تذوب



يقول بايزيد البسطامي (قدس سره): «ما وجدت عقوبة أشدّ على بدني من الغفلة، وإن نار جهنم لا تفعل بالرجال ما تفعله ذرة من الغفلة».

نعم من المحقق أن الأنعام لا تفهم، ولكن الله جعل فينا البشر قابلية الفهم. ولذا يطالبنا الله بالفهم والمعرفة ولا يطالب الأنعام بذلك. إن في الوجود حقائق يحتاج إلى من يفهمها. هذه الحقائق لا تنحصر فقط في وجود المجرات والنجوم والكواكب، التي ترى إما بالعين المجردة أو بالأجهزة المتقدمة الحديثة، ولا في وجود المواد والطاقات التي حولها وفيها، والتي لا ترى لا بالعين المجردة ولا بأحدث الأجهزة العلمية، كالمادة السوداء والطاقة السوداء.

ولكن هناك حقائق أعمق من ذلك بكثير، لا يتطرق إليها العلم الحديث، ولكنها من اختصاص الدين. فما نذكره من آيات القرآن الكريم حرية بتبيين هذه الحقائق، ولكن يحتاج فهمها إلى المتلقي الحر الذي يحظى بشيء من الإيمان والمعرفة ونبذ العصبية. فالذي ننظر إليه من منظار العلم والمراقبة العلمية ـ كأحدث التلسكوبات مثل الهابل التي تكلف المليارات من الدولارات، والتي تدور حول الأرض على بعد حوالي خمسمائة كيلومتراً ـ فالذي ننظر إليه هو عالم التكاثر، وهو عالم نشبهه بأمواج البحر ـ التي هي ظاهرة من ظواهر الماء وليست شيئاً

أصيلاً ـ يولد كل موج ثم يرتفع إلى ذروته، ثم ينحدر شيئاً فشيئاً إلى الصفر كما بدأ أول مرة، ثم يبدأ الله ويعيد من أمثالها ما لا يعد ولا يحصى.

بمعنى أننا ننظر إلى دورات حياتية لظواهر طبيعية لا إصالة لها. فنحن لا ننظر بمنظار العلم الحديث إلى الوجود الأصيل الذي هو وراء كل هذه الظواهر! إلى الوجود الأصيل الذي لا يتغير بشكل من الأشكال بين مقطعين من الزمن! إلى الوجود الأصيل الذي ليس له دورة حياتية، ولكنه أزلي أبدي ليس له بداية ولا نهاية، أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. أحد لا يصدق عليه التكاثر، صمد غني عن العالمين والكل إليه محتاج فقير. لا يعتريه نقصان ولا زيادة ولا يمكن لشيء أن يكون له كفواً.

أما العالم الأصيل الحقيقي الذي لا نراه بالعين فهو عالم التوحيد الذي نعيش فيه ونراه ولكننا لا نراه! كيف يكون ذلك أن نراه ولكننا لا نراه؟

فلنضرب مثلاً بالأسماك التي تعيش في جوف البحار والمحيطات. إنها تعيش طوال حياتها في جوف الماء من يوم ولادتها إلى يوم وفاتها. إنها ترى الماء طبعاً في ليلها ونهارها، ولكن لا يوجد للماء ضدّ كالبر مثلاً يوضع في السياق، حتى تستطيع الأسماك بأن تعرف الماء في مقابل ضده أو تميزه عن ضده وسياقه. فإذا سألتها عن الماء فإنها لا ترى الماء لأنها عاشت فيه طوال حياتها ولم تر غيره. فلذلك فإنها لا ترى الماء ـ أو هكذا يتراءى لها ـ لأنها رأت الماء من الأزل إلى الأبد ولم تر غيره.

وأنّى لي أن أعرف النور نوراً إن لم يكن هناك ظلام! فإذا سألوني ما هو النور فأقول إنني لا أرى النور ولا أعرفه! وأنّى لي أن أعرف

الظلام ظلاماً إن لم يكن هناك نور! وإذا سألوني ما هو الظلام فإنني أقول لا أرى الظلام ولا أعرفه! فالأشياء تعرف وتميز وترى بأضدادها وإلا فلا. وأنت تعرف جيداً أن الله لا ضدّ له. فأنّى لنا أن نرى الله ونحن نعيش فيه سبحانه وتعالى! وأنّى لنا أن نرى الله ولا وجود لضدّ أو شريك نميزه عنه! وأنّى لنا أن نرى الله ولا وجود لخلفية أو أرضية وضعت في السياق نقارنه بها! وأنى لنا أن نشير إليه وهو حاضر فينا ومعنا ومن بين أيدينا ومن خلفنا! وأنّى لنا أن نرى الله وما نحن إلا تجلياته! وهل يرى الشيء ذاته؟ أو بعبارة أخرى إننا لا نرى الله لشدة وضوحه وبروزه وسطوعه[1]!!!

يقول بايزيد البسطامي: «أبعد الخلائق عن الله من أشار إلى الله». أليس الله هو القائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2]؟ أليس هو القائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[3]؟

وحتى ذكره ليس كذكر شيء لشيء! وحتى معرفته ليست كمعرفة شيء لشيء! وسبحان الله أن يكون شيئاً ويذكره أو يعرفه شيء آخر! كما في قول بايزيد: «ذكر الله نسيان النفس، والحي من عرف الله بالله، والميت من عرف الله بنفسه».

وحتى الوصول إلى الله ليس كوصول شيء إلى شيء! أما سمعت

---

(١) يقول الشاعر:

خفي لإفراط الظهور تعرضت ... لإدراكه أبصار قوم أخافش.

وحظ عيون الزرق من نور وجهه ... لشدته حظ العيون العوامش.

(٢) اسورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٣) سورة ق، الآية: ١٦.

أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام يقول في آخر حديث الشراب[1] عن أولياء الله الصالحين: «وإذا وصلوا اتصلوا وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم». والوصول إلى الله معناه اختفاء نفسك عن الطريق. سألوا بايزيد كيف هو الطريق إلى الله؟ قال: «إن اختفت نفسك عن الطريق وصلت إلى الله». وقال: «من غاب عن الطريق وصل حالاً إلى الله ﷻ». يعني الوصول إلى الله ﷻ ليس هو كوصول شيء إلى شيء، بل هو الاتصال بالله ـ اتصال الظاهرة بالوجود الأصيل أو تجلي الوجود الأصيل في الظاهرة ـ كاتصال الموج (على سبيل المثال فقط وللتفهيم والتفاهم لا غير ولمجرد تقريب الأذهان إلى فهم المجردات) ـ الذي هو محض ظاهرة لا إصالة فيها ـ بماء البحر، أو تجلي ماء البحر في ظواهره من الأمواج وغيرها.

وحتى عملك في الباطن ليس هو عملك. وإذا رأيت عملك لا ترى فضل الله عليك ـ فضل الله الذي وسع الكون والكائنات ـ ومن لم يره وقع في الجهل، ومن وقع في الجهل وقع في حبائل الشيطان وابتعد عن الله جل وعلا. كما في قول بايزيد: «اعمل في باطنك بنية المجاهدة، حتى ترى فضل الله عليك، ولا ترى عملك».

وهل يوجد فضل إلا فضله! وهل يوجد شيء إلا هو! أو هل يوجد إله إلا هو! فطر الخلائق بفطرته. وهل يوجد في الوجود إلا فطرته؟ أم هل يوجد في الوجود إلا تجلياته؟ هو الوجود وغيره العدم إن كان للعدم معنى!

والعلم بالله هو الفناء في الله، وإلا زاد العبد بعداً عن الله. يقول

---

(١) يقول الإمام علي عليه السلام: «إن لله شراباً لأوليائه إذا شربوا سكروا وإذا سكروا طابوا وإذا طابوا ذابوا وإذا ذابوا طلبوا وإذا طلبوا وجدوا وإذا وجدوا وصلوا وإذا وصلوا اتصلوا وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم».

بايزيد: «الأجدر بالعلم أن يفنى في المعلوم. أما إن كان العلم مادة لفخر العالم ومباهاته، وإظهاراً لفضله ومقامه، في سبيل إرضاء المخلوق، فهو يبتعد عن الله يوماً بعد يوم».

والسعادة كل السعادة هو رضاك برضا الله. سأل بايزيد يوماً أصحابه: «ألا يدخل الله برضاه العباد جنته؟». قالوا: بلى. فقال: «إذا أعطى رضاه لعبد فماذا يفعل العبد بالجنة؟». وقال: «ذرة من حلاوته في القلب خير من ألف قصر في الفردوس». وقال: «**أنا في درجة من الكمال في الرضا بحيث لو خلدوا عبداً في أعلى عليين وخلدوني في أسفل سافلين لكنت أرضى من ذلك العبد**» .فالسعادة في حالة الرضا والنفس المطمئنة لا في كيت وكيت! والشقاوة في حالة الطغيان وعدم الرضا لا في كيت وكيت! والجنة والنار حالات لا محلات! بل الجنة والنار مقامات لا سرادقات! والجنة هو جوار الله والنار هو البعد عن الله كما قال السيد حسن المسقطي في ممبي بالهند لأحد الصحفيين الأوربيين الذي سأله عن ذلك[1]. فمن كان له مقام أعلى عليين حمل

(١) كان جابر بن حيان تلميذ الإمام الصادق عليه السلام وتعلم الكيمياء عنده. ولقبوه بأبي الكيمياء لأنه من وجهة نظر الغربيين واضع علم الكيمياء ومؤسسه، في حين أن الإمام هو الواضع المؤسس لهذا العلم ولكثير من العلوم الأخرى .**وقد قال جابر بأن الإكسير هو الإمام**. والإكسير شيء حياتي هام جداً في علم الكيمياء، لأنه بنظر علماء الكيمياء المخلوط السحري الذي بواسطته يستطيعون تحويل المعادن إلى ذهب. وكان الإكسير ضالة العلماء الذي كانوا يفتشون عنه في كل مكان، حتى إلى أوائل الحضارة الغربية وخصوصاً في عهد أليزابيت الأول في إنكلترا. وكان جابر بن حيان قد أعلن صراحة **بأن الإكسير هو الإمام**، ولكن العلماء لم يفقهوا معنى الإمامة، وعميت عليهم هذه الأسرار.
وفي محاورة للإمام الصادق عليه السلام مع جابر بن حيان اقتبست الدرر التالية من الكتاب الفارسي باسم «عبقرية الإمام الصادق عليه السلام» صفحات ٤٠٣ إلى ٤٠٧ بترجمة ذبيح الله منصوري للأصل الفرنسي الصادر من مركز الدراسات الإسلامية في استراسبورك عن عبقرية الإمام الصادق عليه السلام، وهي عبارة عن مجموعة رسائل=

= كتبها الأساتذة الأوروبيون وبعض الأعلام الشرقيين، أمثال آرمان بل أستاذ جامعات بروكسل وكان في بلجيكا، جان أوبن أستاذ جامعة كان، روبرت برونشويك أستاذ جامعة باريس، كلود كاهن أستاذ جامعة باريس، أنريكو جردلي أستاذ جامعة في إيطاليا، هانري كوربن أستاذ جامعة ورئيس مركز دراسات علوم الأديان، توفيق فحل أستاذ جامعة استراسبورك، فرانسيسكو كابريلي أستاذ جامعة روما، بروفسور ريجارد كرام ليخ أستاذ جامعة في ألمانيا، آن لمبتون أستاذة جامعة لندن، جرار لوكنت أستاذ جامعة اللغات الشرقية في باريس، ايوون لينان . دويل فوند مدير مركز الدراسات العلمية في باريس، ويلفريد مدلونك أستاذ جامعة شيكاكو في أمريكا، هانري ماسه أستاذ جامعة في فرنسا، حسين نصر رئيس جامعة الصناعة في طهران، شارل بلا أستاذ جامعة في باريس، الإمام موسى الصدر، جورج وازدا أستاذ جامعة ليون في فرنسا، آرنالدز أستاذ جامعة ليون في فرنسا، الياش أستاذ جامعة كاليفورنيا، دورن هينج كليف أستاذة جامعة لندن، فريتزمه ير أستاذ جامعة بال في سويسرا، جوزف مانوز أستاذ جامعة فري بورك في ألمانيا، هانس مولر أستاذ جامعة فري بورك وهانس رومر أستاذ جامعة في ألمانيا.

من جملة محاورته الطويلة ﷺ مع جابر بن حيان يقول ﷺ: «كما جاء في الحكمة من زمان اليونانيين إلى يومنا هذا فالأصل هو **أن لا شيء يبيد عن الوجود وإنما الشكل يتغير .فالإنسان لا يبيد ولكنه بعد الموت يتخذ شكلاً آخر ويتغير فكره. ولا شك أنه يبقى في شكله الجديد. وكل عناصر صفاته المعنوية التي تبقى بعد الموت تسمى الروح**. يا جابر! عندما يفهم المؤمن بأن أصول دينه صادقة وواقعية وعلى حق يسعد من ذلك وينتشي .**وهذه النشوة تنبع من فطرة الإنسان. والإنسان يسعده أن يرى النظام والكمال في الأشياء**. يا جابر! أو ما ترى هذا الرسم على الجدار والذي هو شكل هندسي منظم؟ ما أسعدك بمشاهدة هذا الرسم! لا لأنك تعرف الهندسة وتعرف أي شكل من الأشكال الهندسية هو هذا الرسم، ولكنك تنتشي بهذا الرسم لأنه منظم، ولانك تشاهد شكلاً كاملاً لأنه منظم. والذين لا يعرفون شيئاً عن الهندسة يسعدون أيضاً من مشاهدة هذا الرسم لأنهم يرونه منظماً وكاملاً. والأطفال أيضاً يشعرون بالرضا لأن هذا الشكل المنظم الكامل يبعث نوعاً من الهدوء والسكينة في أرواحهم». إلى أن يقول ﷺ:

«ليس فقط أن مشاهدة رسم غير منظم لا يسعدنا البتة، بل إن مثل ذلك الرسم يزعجنا، وعيوبه تقرفنا تماماً كالذي يأكل طعاماً سيئ المذاق. كذلك الحقائق الدينية تسعدنا عندما نكتشفها لأننا نرى أنها كاملة من دون عيب أو نقص. وحينما يكون الشيء كاملاً من دون نقص أو عيب (سواء كان مادياً أو معنوياً) يكون=

. . . .

= جميلاً. لذلك نحظى ببسط روحي بفهم الحقائق الدينية ورؤية جمالها».

ويعلق جابر بن حيان على كلام الإمام قائلاً: ولكن هذه الحقائق الدينية لا يفقهها العامة ولذلك لا تتاح لهم تلك النشوة من فهمها وتذوقها. فقال الإمام جعفر الصادق ﷺ: «لأن العامة لا يملكون العلم والمعرفة، ولذا أنتهز أية فرصة لأشجع الناس على أن يتعلموا». فسأل جابر: لماذا لم تنزل حقائق الدين الإسلامي بحيث يفهمها كل الناس؟ فأجاب الإمام جعفر الصادق ﷺ: «ليس فقط حقائق الدين الإسلامي، بل حقائق جميع الأديان الإلهية قبل الإسلام لم تنزل بحيث يفهمها الناس جميعاً ويلتذون بفهمهم لها. يا جابر! **اعلم بأن الدين غير الحكمة**. ففي الحكمة كل شيء يجب الاستدلال فيه وإثباته بالدليل القاطع، حتى يتقبله عقل السامع. والسامع الذي يصغي إلى قضية فلسفية لا يمكن أن يقبلها إلا إذا أثبتها المتكلم بالدليل. لأن السامع حكيم مثل المتكلم، ولو لم يكن حكيماً لم يظهر ولعه للحكمة، ولم يرغب في الاستماع إلى قضية فلسفية وفهمها. كل مسألة تتعلق بالحكمة يجب إثباتها بالدليل إذا كان مخاطبك حكيماً أو ذا ذوق فلسفي حتى يتقبلها. لذا فإن كل قضية فلسفية تخاطب عقل الإنسان يجب في إثباتها الاستناد إلى الدلائل والبراهين حتى يتقبله العقل. فإن الحكيم إذا أبرز نظرية فلسفية ما لا يخاطب بها العامة، ولا يريد من عامة الناس أن يفهموها. لأنه يعلم أن عامة الناس لا يستطيعون فهم نظرية فلسفية. لذلك هو يخاطب الحكماء أو أصحاب ذوق فلسفي ويخاطب عقولهم.

أما الدين فليس كذلك. فإن نبينا محمداً ﷺ بعثه الله لنشر دين الإسلام لكل أفراد البشر لا لشريحة معينة تملك عقلاً وفهماً أكثر من غيرهم وتنشد دليلاً عقلياً لكل شيء. كذلك سائر الأنبياء الذين بعثوا قبل نبينا محمد ﷺ نشروا أديانهم لكل أفراد البشر لا لشريحة معينة تملك عقلاً أكبر من غيرهم. لذلك فإن النبي ﷺ نشر حقائق الدين بأبسط شكل يفهمها عوام الناس، بحيث لا يحتاج إلى إثبات الحقائق بالدليل. ولذا لم يكن بمقدور عامة الناس أن يفهموا حقائق دينهم، بل وحتى في يومنا هذا لا يستطيعون فهم كل الحقائق الدينية. وإذا أراد أحد أن يثبت لهم الحقائق الدينية بالدليل بأبسط صوره لا يستطيع بعضهم فهمها. فخلاصة القول **إن أحكام الدين نزلت لتخاطب عقيدة الناس لا عقولهم**، إلا أولئك الذي يملكون عقولاً قوية وبمقدورهم فهم أحكام الدين بعقولهم .**فقضايا الحكمة تخاطب العقل ومسائل الدين تخاطب الإيمان** .وإذا تيسر للمؤمن أن يتعلم ويبلغ النضج العقلي فبإمكانه أن يدرك حقائق الدين الإسلامي .**والذي لا يستطيع أن يتعلم ويقوي عقله ويدرك حقائق الدين بعقله فيكفيه الإيمان وحده**. فأنت كلما شرحت حقائق دين=

. . . .

= الإسلام للعوام لا يجدي نفعاً. فلكي يفهم العوام حقائق الدين يجب عليهم أن يتعلموا مقدمات العلم وإلا لم يتيسر لهم فهمها. وإثبات حقائق الدين الإسلامي للعوام بالدليل والبرهان معناه الشرح العلمي والتوضيح العلمي لهم. وكيف يستطيع فهم ذلك إذا كان مخاطبك غير عالم ولم يتعلم مقدمات العلم ومبادئه؟ وتعلم العلم يستلزم الإرادة، وإذا لم تتيسر الإرادة لا يجدي إقناع العوام بتعلم العلم نفعاً. ومع الأسف هذه الإرادة معدومة في العوام. فهم يفضلون الفلاحة ورعي الأغنام والجمال وتنميتها على تعلم العلم. لأن ذلك يدر الربح، في حين أن التعلم يحتاج إلى سنوات لا يستطيع تحقيق الربح فيها. بالإضافة إلى ذلك فليس بمقدور العوام استنباط النتائج المعنوية من العلم وتذوقها . **فالإيمان وحده يكفي العوام من البشر، وعليهم استنباط أصول الدين الإسلامي وفروعه من الظواهر المتاحة.**

يا جابر! أنت عالم وتعرف ما هو الجنة والنار! فإن المفهوم الواقعي للجنة والنار هو غير ما جاء في ظاهر كلام الله ﷻ. ولكن هل تستطيع أن تنقل هذا المفهوم الواقعي إلى ذهن العوام من الناس؟ هناك مخرج واحد فقط لإدراك المفهوم الحقيقي من الجنة والنار وهو أن يتعلم الإنسان، وبعد أن صار عالماً يسعى لإدراك المفهوم الحقيقي من الجنة والنار. وإذا لم يخطر بباله المفهوم الواقعي من الجنة والنار، فما أيسر أن تشرح له ذلك بعد أن صار عالماً، فإنه سيدركها لا محالة. أما إذا أردت أن ترسخ اليوم هذا المفهوم الواقعي الحقيقي من الجنة والنار في ذهن العوام فإنك ستتسبب في زعزعة إيمانهم الذي كان راسخاً فيهم قبل شرحك موضوع الجنة والنار لهم .**لذا كلم الناس على قدر عقولهم!** ولأن الدين الإسلامي يخاطب بني البشر جميعاً لذا أنزل الله ﷻ أحكام الدين وتعاليمه بأبسط أسلوب. وحتى الشريحة الأدنى من عوام الناس يستطيعون فهم ظاهر المعنى من كلام الله سبحانه وتعالى، ولا يحتاجون إلى أي شرح». إلى آخر هذه المحاورة الطويلة العميقة جداً، والتي تحتوي على حقائق هامة عن الشمس والكواكب والنجوم وأشكالها (الجامدة والسائلة والغازية) ومسائل الأزل والأبد والزمان والمكان في نظر الخالق، ومراحل تكامل البشر في الحياة والموت، والشيخوخة (وهو أول من قال بأن الشيخوخة مرض طارئ) والأمراض وحتى الميكروبات والفيروسات (وهو أول من قال بوجود هذه الحيوانات المتناهية في الصغر في بدن الإنسان وخارجه والمتسببة في ظهور الأمراض وأيضاً مقاومتها) والحركة والحياة في كل شيء حتى في الجماد، وأن الحياة والموت كليهما حياة ولكن بشكلين مختلفين كالماء والثلج الذي هو ظاهرة من ظواهر الماء، وعن مستقبل علوم البشر وغيرها.

جنته في طياته في هذه الدنيا، وبعد موته تتضاعف جنته أضعافاً مضاعفة. ومن كان له مقام أسفل سافلين حمل الجحيم في طياته في هذه الدنيا، وبعد موته تتضاعف جحيمه أضعافاً مضاعفة، ومن كان له مقام فيما بين وبين، فكل أحد ينال جحيمه أو جنته أضعافاً مضاعفة حسب مقامه الذي يحمل معه في روحه. لأن الدنيا مزرعة الآخرة[1]، والدنيا دار كد وجهد وعمل، والآخرة دار حصاد ووفرة محصولات. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على خصوبة هذه المزرعة وتربتها وكل عناصرها من ضوء الشمس ووفرة المياه وغيرها. فاعرف قدر الدنيا وقدر عملك وجدك وجهدك فيها، فجزاء كل أحد في الآخرة هو حسب عمله في هذه الدنيا، إن خيراً فخير أضاعفاً مضاعفة، وإن شراً فشر أضاعفاً مضاعفة. والذي زرعته في هذه المزرعة، إن كان قمحاً فقمح أضعافاً مضاعفة وإن كان هيروييناً فهروويين أضعافاً مضاعفة. ومن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى امرأة ينكحها أو دنيا يصيبها فهجرته إلى ما هاجر إليه[2].

وذكر الله إنما هو الاتصال بحضور القلب من دون غفلة. كما في قول بايزيد: «الذكر الكثير ليس بكميته، ولكن بحضور القلب من دون غفلته».

وصفاء القلب إنما هو بانقشاع العقبة الكأداء وهوى النفس! وهوى النفس هي عبارة عن اعوجاجات النفس الذاتية، الناتجة عن عوامل الوراثة والجينات، بالإضافة إلى عوامل التربية والمحيط والاكتسابيات، التي تنتقل إليها عن طريق الحواس الخمس. وكل هذه العوامل ـ الذاتية

(١) حديث نبوي شريف.

(٢) حديث نبوي شريف.

والمكتسبة ـ تتمركز في الدماغ وتتسبب في فساده. والنظام العصبي يأتمر بأمر الدماغ وينتهي بنهيه، ويكون واقعاً تحت استبداد الدماغ الفاسد. ويصبح الإنسان بدوره واقعاً تحت سيطرة النظام العصبي وسطوه وجبروته. وعلاجه السير والسلوك إلى الله، والتعرض للنفحات الرحمانية من جانب ولي مرشد ومعلم رباني، والتزكية ونيل الكنوز من الكتاب والحكمة.

والصلاة إنما هي الصلة ولا تأتي الصلة إلا بعد الفراق. سألوا بايزيد عن الصلاة فقال: «هي الصلة ولا تأتي الصلة إلا بعد الفراق». والصلاة معراج المؤمن يعني إنما هو الاتصال بالحبيب بعد فراقه.

وما دام يعلم أنه الحق فهو حجابه، ويجب أن يختفي هو وعلمه، حتى يكون الكشف حقيقيًّا وتكون الحقيقة كما هي. يقول الرسول الأكرم ﷺ: «إلهي أرني الحقيقة كما هي». وسأل بايزيد يوماً مريده: «ماذا تقول في رجل حجابه الحق تعالى؟» ـ يعني ما دام يعلم بأنه الحق تعالى فهو حجابه. يجب أن يختفيان هو وعلمه حتى يصبح الكشف حقيقيًّا. وحتى يتجلى فيه الوجود الأصيل الذي لا يتغير ولا يتبدل بشكل من الأشكال بين مقطعين من الزمن، والوجود الأصيل الذي ليس له دورة حياتية، بل ينتمي إلى الخلود. فيخرج من حالة التغير والتبدل إلى حالة الثبات، ويكون كالبحر لا يتغير. قال أحمد الخضرويه لبايزيد البسطامي: «نحن كالماء إذا توقف أسن». فقال بايزيد: «كن بحراً ولا تتغير».

وتكون زهادته فيما سوى الله سبحانه وتعالى. سألوا بايزيد عن الزهد فقال: «الزهد لا قيمة له فإني كنت زاهداً ثلاثة أيام: في اليوم الأول كنت زاهداً في الدنيا، وفي اليوم الثاني كنت زاهداً في الآخرة، وفي اليوم الثالث كنت زاهداً في كل ما سوى الله».

وسبيلك إلى الله لا يستقيم إلا بترك هوى النفس، وهو العقبة الكأداء في طريقك. لأنك ما دمت تحت:

أ ـ سلطان طبيعتك البشرية ومحيطك الفاسد.

ب ـ والحواس الخمس.

ج ـ واستبداد الدماغ بتربيته الفاسدة وتشبعه بالبهيمية.

د ـ وسيطرة النظام العصبي ـ بشبكاته الواسعة في جسدك ـ واستجابتك لها ولردود أفعالها وممارساتك الفاسدة طوال حياتك.

فأنت تحت تأثير هوى النفس. يقول بايزيد: «من ترك هوى النفس كان له إلى الله سبيلاً». وعلاج هوى النفس هو أن تستعيد العقلانية في وجودك. أن تستعيد سلطان الله جل وعلا وهيمنته تعالى على طبيعتك البشرية بعواملها الوراثية والجينية، وعلى محيطك من الطبيعة والمجتمع، وعلى حواسك الخمس وجوارحك، وعلى دماغك، وعلى نظامك العصبي بشبكاته العنكبوتية الواسعة التي تستشري في البدن.

وإذا هيمن عليك سلطان الله صفا الدماغ من الباطل، ومن ثم استقر الحق في النظام العصبي، وصفت النفس عن طبيعتها البشرية وميولها البهيمية، ومن ثم اختفت وغابت عن الطريق وغابت معها صفات الباطل. كما في قول بايزيد: «النفس صفة لا تزدهر إلا بالباطل».

وإذا فنيت النفس بعين الله وبقيت على بساط الحق دخلت في ملك الله وملكوته. يقول الله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

---

(١) سورة المؤمن، الآية: ١٦.

(٢) سورة يس، الآية: ٨٣.

سألوا بايزيد: «متى يعرف الولي أنه وصل إلى حقيقة المعرفة؟». قال: «في وقت يكون فيه فانياً بعين الله، وباقياً على بساط الله، بعيداً عن النفس وعن الخلق. فهو الفاني وهو الباقي، وهو الباقي وهو الفاني، وهو الميت وهو الحي، وهو الحي وهو الميت، وهو المحجوب المكشوف، وهو المكشوف المحجوب».

ويعانق العارف اللامتناهي، وتنتفي عنه محدودية الزمان والمكان. كيف؟

لأن الزمان والمكان ظواهر نسبية بالنسبة للكائن المحدود. فهي ليست أصيلة في الوجود كما ذكرنا آنفاً. فكلما فنيت النفس قل الوعي بالدنيا، ومن ثم قل الشعور بهاتين الظاهرتين: الزمان والمكان. فكما ترى أن الزمان والمكان لا معنى لهما في النوم أو الإغماء والغيبوبة، أو حالات التسامي الروحي أو الجذبات الرحمانية، وهي حالات من فناء النفس. فإن ظاهرة الزمن تنقضي بسرعة عند هؤلاء، وظاهرة المكان لا معنى لها عند هؤلاء[١]. بمعنى أن فناء النفس يخرجك من المتناهي ـ وهو الشعور بالزمان والمكان المحدودين ـ ويدخلك في اللامتناهي ـ وهو عدم الشعور بهاتين الظاهرتين. ويمكن وضع هذه الحقيقة في قانون رياضي: فالوعي يتناسب عكسياً مع الزمان والمكان. فكلما قل الوعي اقترب الزمان والمكان شيئاً فشيئاً إلى اللامتناهي. حتى إذا أصبح الوعي صفراً كان الزمان والمكان لامتناهيين. وإذا وضعناه في صيغة جبرية أو معادلة رياضية تكون كالتالي:

الوعي = الرقم الثابت مقسماً على الزمان أو المكان.

(١) بمعنى أن المكان يبهت عندهم حتى يخرج من شكلية المادة إلى لا شكلية الطاقة.

ففي الوعي الكامل يتباطئ الزمان ويبرز المكان. وفي الوعي الأقل يكون المكان باهتاً ويكون الزمان متسارعاً بعض الشيء. أما في انعدام الوعي فالزمان والمكان يصلان إلى اللانهاية.

فكلما فنيت النفس وقل الوعي والاهتمام بالدنيا صرت في الفضاء والزمان اللامتناهيين، وخرجت من القفص المتناهي ـ مكاناً وزماناً، أي من المكان والزمان. يقول الرسول الأعظم ﷺ: «**تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه، ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله تعالى أمره وجعل غناه في قلبه**».

فكلما قطعنا شوطاً في تطبيق الموعظة النبوية الشريفة على أنفسنا بالتفرغ من هموم الدنيا وتركيز همنا في الآخرة، جمع الله تعالى أمرنا وشملنا، وخلصنا من انفصامية الوجود، وقربنا إلى وحدة الوجود، وأخرجنا من القفص إلى العالم اللامتناهي. يقول بايزيد: «من كان قريباً إلى الله كان في كل مكان، وكان له كل شيء، لأن الحق تعالى في كل مكان وله كل شيء».

ولا تنحصر تأثيرات العارف بالزمان والمكان الذي هو فيه. بل تنفذ مغناطيسيته المقدسة في كل الأزمنة والأمكنة ـ في الأجيال المتعاقبة والبلدان النائية. يقول الإمام علي عليه السلام: «هلك خزان الأموال والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وآثارهم في القلوب موجودة». ويكون ممن آتاهم الله حظًا عظيماً بفضله جل وعلا. نعم تغوص رجلاه فجأة في الكنز ويصبح مقتدراً، ويكون محواً في الحق، ويصل إلى حقيقة كل شيء، ويكون ترجمان بحر الصفا يعكس إلى العالم الحقائق كما هي، والتي أغدقها الله سبحانه وتعالى عليه، وآتاه من لدنه علماً.

ولقد سمعت شيخي ومعلمي الرباني الشيخ صادق العنقا (قدس سره) يقول: «العصمة عدم تعاملك مع الطبيعة». والمعصومون لا يتعاملون مع الطبيعة ومع محيطهم، بمعنى عدم وقوعهم تحت تأثيراتها الفاسدة. وهاك بعض الأمثلة:

يوسف الصديق عليه السلام لم يمتثل لأوامر سيدته زليخا حين راودته عن نفسه فاستعصم. ولقد أفصح القرآن عن هذه الواقعة في قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1]. في تحدٍّ واضح ظاهر لتأثير فاسد من المحيط ألا هو الشهوة الجنسية.

محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ذروة انتصاره في فتح مكة عفى عن أعدائه الذين جوعوه واضطهدوه وجرعوه أمر الإهانات وحاربوه وعذبوا أصحابه بل قتلوا بعضهم تحت التعذيب كياسر وزوجته. بل حتى أحسن إلى أعدائه بإصدار الأوامر على لسان منادٍ ينادي في مكة قائلاً: «من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن». وذلك تحدياً لغريزة الثأر والانتقام بل بسمو نفسه على تحديات المحيط الفاسد بعفوه وإحسانه إلى أعدائه. وفي هذا الرجل العظيم يقول حسان بن ثابت:

وأجمل منك لم تر قطّ عيني ... وأحلم منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

الإمام علي عليه السلام عزف عن قتل عدوه اللدود عمرو بن العاص رغم قدرته على ذلك. يقول أبو فراس:

ولا خير في رد الردى بمذلة ... كما رده يوماً بسوءته عمرو

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٣.

يريد بذلك عمرو بن العاص لما رأى الغلبة على نفسه مع علي بن أبي طالب عليه السلام في حرب صفين، وخاف أن يقتله، فأقبل عليه وكشف عورته لعلمه أن عليًا لا يقدم على هذا المنظر، فانثنى عنه علي وكف عنه فنجا بنفسه.

وقد استقبل علي عليه السلام عدويه اللدودين معاوية وعمرو بن العاص في خيمته أثناء معركة صفين كما ذكره السيد حسين العالم (قدس سره)[1]. وكان عدوه يأمن جانبه، ومن كان هكذا تجسد كمال الإيمان، كما في قول بشر الحافي: «لا تصل كمال الإيمان ما لم يأمن جانبك عدوك».

وأطعم وسقى قاتله عبد الرحمن بن ملجم من خالص طعامه وشرابه. وذلك تحدياً لغريزة الثأر والانتقام والسمو على تحديات المحيط، بغض النظر عن العداوات والعورات والعفو عن الأعداء الألداء، بل الإحسان إليهم.

علي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين صاموا ثلاثة أيام متتاليات ولم يفطروا قط. وبقوا جائعين لأنهم تصدقوا بطعام إفطارهم يوماً على مسكين، ويوماً على يتيم، ويوماً على أسير في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾[2]. بل إن سورة الإنسان (أو الدهر) برمتها نزلت في حقهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. في تحدٍّ ظاهر لأقوى غريزة في الإنسان ألا هي الجوع، وفي سمو النفس بحب الله وعشقه والولهان به، والعطف على المساكين واليتامى وحتى على الأسرى من غير المسلمين.

---

(١) راجع كتاب قدوة الفقهاء والعارفين للمؤلف صفحة ٣٠٥.

(٢) سورة الدهر، الآيتان: ٨ ـ ٩.

وحتى العباس بن علي بن أبي طالب الذي هو ليس معصوماً، بل تالي المعصوم الذي وصل إلى تخوم العصمة. فلقد قرأت كتاباً اسمه «الحسين وإيران» لكاتب ألماني اسمه فيشر نقل وقائع فاجعة يوم عاشوراء من مصادر القرن الثاني والثالث الهجري، حيث ذكر أن رجلاً من جيش عمر بن سعد خرج إلى الميدان وقال: «هل من مبارز». فخرج إليه العباس بن علي عليه السلام، فارتعد الرجل لأنه لم يتوقع أن يبرز إليه هذا البطل المغوار، والذي توقع الموت المحتم على يديه. ولله در الشاعر حيث يقول وكأنه ينطق عن لسان حال العباس بن علي الكرار:

سواي يهاب الموت أو يرهب الردى
وغيري يهوى أن يعيش مخلدا
ولكنني لا أرهب الدهر إن سطا
ولا أحذر الموت الزؤام إذا عدا
ولو مد نحوي حادث الدهر كفه
لحدثت نفسي أن أمد له يدا



أو كما يقول السيد جعفر الحلي المتوفى سنة ١٣١٥ هجري:

بطل تورث من أبيه شجاعة فيها أنوف بني الضلالة ترغم

فعرف العباس ذلك وقال له: «أعلم أنك لم تكن تتوقع خروجي إليك، فإذا أردت فارجع إلى معسكرك». قال: «كيف أرجع وأحمل العار معي فإن الناس سيعيرونني». فقال العباس عليه السلام: «إذن أنا سأرجع»! فرجع العباس إلى معسكره. ورجع الرجل فشق الصفوف في معسكر عمر بن سعد، وهرب من الميدان ولم يقاتل بعدها أبداً. فلقد تحدى العباس عليه السلام عقدة العار والشنار في عقلية العرب وثقافتهم آنذاك حفظاً للقيم السامية

التي تعلمها وتربى عليها في بيت والده علي عليه السلام. وهذا البيت من أرجوزة ابن أخيه العلي الأكبر في يوم عاشوراء يجسد أهل البيت عليهم السلام في إبائهم الضيم وعدم الرهبة من الموت في سبيل الله، والتحرر من اعتبارات العار ونبذها والسمو عليها في جهادهم الأكبر لتحرير رقابهم من النار، وهو أكبر وأنجع علاج للعقد النفسية التي ترجع بجذورها إلى الشعور بالعار، وما أكثرها:

الموت أولى من ركوب العار والعار أولى من دخول النار

وأعتقد أن مسألة العار إلى يومنا هذا هي أكبر عقدة نفسية في سلوكيات الأفراد وعذابهم النفسي في هذا العصر وفي جميع العصور. ولا أكتمك إنني كنت أبكي بغزارة عندما كنت أقرأ هذه الوقائع في كتاب فيشر الألماني، متأثراً بالتقدير لهذا الخلق العظيم والملحمة الإنسانية الخالدة التي ما زالت حية وماثلة في ذهني.

وليس ببعيد عنا قصة مسلم بن عقيل، هذا البطل المغوار الذي تربى في بيت علي عليه السلام. كان هانئ بن عروة يخبئ مسلم بن عقيل في بيته حين وصول مسلم إلى الكوفة. وكان هانئ من أعيان وأشراف الكوفة. وحينما وصل عبيد الله بن زياد من البصرة لتولي الكوفة زار أعيان الكوفة ووجهائها، ومن جملتهم هانئ وذلك في بيته. وحاك هانئ مؤامرة لقتل عبيد الله. فأخبر مسلم بأن يختبئ وراء الستار. وعند مجيئ عبيد الله تصدر الإشارة منه ويخرج مسلم من وراء الستار ويقتل عبيد الله بن زياد بسيفه. ولكن مسلم لم يخرج في وقته لقتل اللعين عبيد الله. وبعد مغادرته بيت هانئ سأله هانئ: «لماذا لم تقتل عبيد الله بن زياد؟». فقال مسلم بن عقيل: «إننا من بيت لا نغدر بأحد». وضرب مسلم أروع مثال على القيم والأخلاق السامية التي تربى عليها في بيت علي بن أبي طالب عليه السلام. إنهم لا يغدرون حتى بألد أعدائهم وهو عبيد الله بن زياد الذي جيش جيشاً

لقتل الحسين عليه السلام وأهل بيته وأطفاله وأصحابه في يوم عاشوراء، وأسر نساء أهل بيت النبوة وأطفالهم ومرضاهم، وسوقهم أمام أنظار الرجال في الكوفة ودمشق وغيرهما من المدن التي مروا عليها. ولله در الكعبي حيث يقول على لسان حال زينب الحوراء عليها السلام:

أبديت يا شمس لنا أوجهاً　　　لها جلال الله قد حجبا

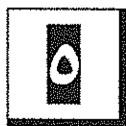
ويقول آخر:

أترجو أمة قتلت حسيناً شفاعة　　　جده يوم الحساب



معروف الكرخي

قدس سره





معروف الكرخي
حاجب الإمام الرضا عليه السلام

حينما قدم الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام إلى طوس كان أتباعه من الشيعة يتزاحمون على بيته. فنصب الإمام عليه السلام معروف الكرخي بواباً على باب داره كي ينظم دخول الناس عليه. واستمر هذا التزاحم واحداً وثلاثين يوماً تكسرت خلالها أضلاع معروف الكرخي وسقط مريضاً. وقد عبرت عن لسان حالي شعراً[1]:

يا ليتني بواب عتبة داره ... أروح وأغدو في عبيق غباره
وأشم طين القدس من أقدامه ... وأذوق ماء الخلد من أنغامه
وأخلع نعليه حين دخوله ... داراً قد ازدانت بقدس نزوله
أقبل رجليه عند خروجه ... من منزل قد زانه بعروجه



وهذا يدل على مدى قرب معروف إلى الإمام عليه السلام. فلقد كان معروف مريداً للإمام عليه السلام تعلم على يديه فنون الطريقة والسير والسلوك إلى الله تعالى. تربى معروف في كنف الإمام عليه السلام منذ صغره. فكان من

---

(١) تفتحت قريحتي بهذه الأبيات في حضرة الإمام الرضا عليه السلام عندما كنت ملاصقاً لضريحه الشريف في يوليو ٢٠٠٨.

أب وأم مسيحيين. وحينما ذهب إلى المدرسة قال له معلمه: «قل ثالث ثلاثة» فقال: «بل هو الواحد الأحد». أصر المعلم على كلامه وازداد معروف إصراراً على وحدانية الله تعالى. ضرب المعلم ذلك الطفل مراراً وتكراراً كي يقول: «ثالث ثلاثة»، والطفل على حاله مصر على كلمة: «بل هو الواحد الأحد». وفي آخر مرة ضرب المعلم الطفل ضرباً مبرحاً هرب على إثره الطفل من المدرسة، ولكنه لم يرجع إلى بيته بل اتجه فوراً إلى الإمام الرضا عليه السلام وأسلم على يديه.

وبعد هروب الطفل حزن والداه عليه حزناً كثيراً، وكانا يقولان: «يا ليته رجع إلينا ولا يهمنا أي دين يختار». رجع الطفل إلى داره وقرع الباب فقالا: من يقرع الباب. قال: إنه معروف. قالا: على أي دين أصبحت؟ قال: على دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فأسلم والداه حالاً وشرحاً للإسلام صدراً.



رجال من الفرس
وعلم الأنبياء

عن أبي هريرة أنه قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾. قلنا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا؟ ـ وسلمان الفارسي إلى جنبه ـ فضرب ﷺ بيده على ركبته فقال: «هذا وقومه» ـ مرتين أو ثلاثاً ـ والذي نفسي بيده لو كان الإيمان يناط بالثريا لتناوله رجال من الفرس. أو قال: من هؤلاء»[1].

ذكر الكليني رحمة الله عليه في أصول الكافي كتاب الحجة الجزء الثاني صفحات ٢١٦ ـ ٢١٧:

«الحسين بن محمد عن معلى بن محمد عن علي بن أسباط قال: قلت للرضا عليه السلام: إن رجلاً عنى أخاك إبراهيم فذكر له أن أباك في الحياة وأنك تعلم من ذلك ما يعلم. فقال: سبحان الله يموت رسول الله ﷺ ولا يموت موسى!! قد والله مضى كما مضى رسول الله ﷺ ولكن الله تبارك وتعالى لم يزل منذ قبض نبيه ﷺ هلم جرا يمن بهذا الدين على أولاد الأعاجم ويصرفه عن قرابة نبيه ﷺ هلم

(١) مفتاح الجنان ١/ ٨ ، ٩.

جرا فيعطي هؤلاء ويمنع هؤلاء، لقد قضيت عنه في هلال ذي الحجة ألف دينار بعد أن أشفى على طلاق نسائه وعتق مماليكه ولكن قد سمعت ما لقي يوسف من إخوته».

روي عن الإمام الصادق عليه السلام في تعقيبه على الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾: لـــو نزل القرآن الكريم على العجم لم يؤمن به العرب ولكنه نزل على العرب فآمن به العجم ... وقال رسول الله ﷺ: «**لو كان الدين في الثريا لناله رجال من الفرس**».

ومن المصادفات حقاً أن ثلاثة من الخمسة من رواد العرفان الذين اخترناهم لهذا الكتاب هم رجال من الفرس: سلمان الفارسي، وبايزيد البسطامي، ومعروف الكرخي.



درر الحكم
وجوامع الكلم لمعروف الكرخي

من أقواله وحكمه أنه قال: «علامات أولياء الله ثلاثة: فكره أبداً في الله، وميعاده أبداً مع الله، وشغله أبداً في الله». وقال (قدس سره): «إذا أراد الله لعبد خيراً فتح عليه باب البر وأعمال الخير، وأغلق عليه باب الكلام في ما لا يعنيه». وقال: «من عشق الرئاسة لا يجد إلى الفلاح سبيلاً». وسألوه: «كيف نجد إلى طاعة الله سبيلاً؟». فقال (قدس سره): «أخرج الدنيا من قلبك، فإذا بقي شيء منها في قلبك فكل سجدة لك إنما هي السجود لذلك الشيء». وقال: «حقيقة الوفاء الانتباه من نوم الغفلة، والفراغ من أفكار التفاهات والسفاهات والقذارات والسخافات والوساخات والشرارات».

وقال: «إذا أراد الله ﷻ بعبدٍ خيراً فتح عليه باب العمل وسدّ عليه باب الكسل». وقال: «طلبك الجنة من دون عمل إثم، وانتظارك الشفاعة من دون اتباع السنة نوع من الغرور، وأملك في رحمة الله ﷻ في حالة عصيانك وطغيانك جهل وحماقة». وقال: «التصوف التقاط الحقائق، والتحدث بالدقائق، واليأس عما في أيدي الخلائق». وقال: «**اعرف الطريق إلى الله ﷻ: وهو أن لا تطلب من أحد شيئاً، وأن تفرح إذا طلب أحد منك شيئاً**». وقال: «غضوا أبصاركم عن الكل ذكراً كان أو أنثى».

وقال: «احفظ لسانك من المدح وكذلك من الذم». وسألوه عن الحب فقال: «الحب لا ينبثق من تعليم خلق الله، وإنما هو موهبة من الله ﷻ وفضل منه». وقال: «إذا كان العارف لا تحفه النعمة فوجوده نعمة». وروي أنه كان يأكل يوماً طعاماً لذيذاً. فسألوه: ماذا تأكل؟ فقال: «أنا ضيف في هذه الدنيا آكل ما يقدم لي المضيف. ولقد قلت لنفسي مرة: يا نفس ريحيني كي ترتاحي». وقال: «تضرع إلى الله فعنده الشفاء والفرج لا عند غيره. وتيقن أن كل مصيبة أو وجع أو فاقة تنزل بك جعل الله الفرج في بطنها».

ومن وصاياه: سأله أحد وصية فقال: «توكل على الله بحيث يكون الله تعالى معك، ويكون لك أنيساً، ولا تلجأ إلا إليه، ولا تشك حزنك وبثك إلا إليه، فالخلق جميعاً لا يقدرون أن يجلبوا لك نفعاً ولا يردوا عنك ضراً». وقال لأحد طلب منه وصية: «**احذر أن يراك الله وأنت لست في زمرة المساكين**». وقال له سري السقطي: «أوصني». فقال: «إذا أنا مت فتصدق بثوبي. أريد أن أخرج من الدنيا عرياناً كما خرجت إليها عرياناً».



ما هي علامات العارف

يقول معروف الكرخي (قدس سره): «علامات أولياء الله ثلاثة: فكره أبداً في الله، وميعاده أبداً مع الله، وشغله أبداً في الله». فيا أيها السالك إذا وجدت أحداً فكره أبداً دائماً دأباً في الله لا يفكر في غيره فتمسك به، لأنه يعرف حق اليقين قلباً وقالباً وضميراً ووجداناً أن كل شيء من الله جل شأنه وأنه المدبر لا مدبر غيره، وأن كل ما يحدث لك في الوجود دبره الله تعالى، بأن حدث لك ما حدث بالأسباب والأدوات التي اختارها، كي يبلوك ويمتحنك ويفتنك، حتى يظهر لك في العيان نجاحك أو فشلك في الإمتحان وتتم الحجة عليك. فإن كنت قد نجحت فاستغرق في شكره وحمده وثنائه، وإن كنت قد فشلت فاعمل جهدك بالذكر الدؤوب والجهاد الأكبر أن يتحول فشلك إلى نجاح وضلالك إلى فلاح. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

وإذا وجدت أحدا ميعاده أبداً دأباً دائماً مع الله، يرى الله وحده أينما توجه وقصد فتمسك به، لأنه يعرف حق اليقين قلباً وقالباً وضميراً ووجداناً أنه لله وحده وأنه إليه راجع ... يعرف أنه من الله أتى وإليه هو ذاهب وإليه المصير، وفي مملكته وبحوله وقوته هو قائم وقاعد ومتحرك وساكن وماش ومتوقف ويجول ويصول ويغدو ويروح ويسير. ولو انقطع

(١) سورة الملك، الآية: ٢.

هذا المعين لحظة لما بقي في الوجود. أو ما ترى ما تكون إذا انقطع نفسك! أو ما ترى ما تكون اذا سكتت دقات قلبك! أو ما ترى ما تكون إذا توقفت كليتك وكبدك وسائر جوارحك عن وظائفها التي عهدت إليها قابلية بقائك في الوجود! ناصيتك بيديه! أنفاسك منه تعالى! قلبك من صنعه يهب له الحياة أو ينزع منه الحياة متى ما شاء، وبين أصابعه يقلبه حيث يشاء! وحتى كليتك وكبدك وسائر جوارحك من صنع خالق قادر مهيمن مصور لا يشاركه في صنعها أحد. فمع من يكون ميعاد العارف؟ مع الأجهزة والأدوات أو مع بديع السماوات والأرض الذي أبدع هذه الأجهزة الرائعة والأدوات المحيرة وأعطاها وظائفها التي تعمل بهذه الصورة الرائعة المحيرة!!!

وإذا وجدت أحداً شغله أبداً دائماً دأباً في الله، لا يرى في غيره شغله وشاغله ولا تعلقاته ولا توجهاته ولا اهتماماته فتمسك به، لأنه يعرف حق اليقين قلباً وقالباً وضميراً ووجداناً أن تعلقاته بغير الله وبال عليه يجازى عليها وعليه تبعاتها. **ما أروع أن تطلب المعطي لا عطاءاته! وتعبد الواهب لا هباته! وتتوجه بكل قلبك إلى الله لا إلى مخلوقاته! وتصب اهتماماتك في الله لا في أحداث دنيوية يمتحنك بها أو مصائب يبتليك بها حتى يفتنك ويرى ماذا تعمل!** لأن العارف يعرف حق اليقين قلباً وقالباً وضميراً ووجداناً أن الله جل شأنه هو المعطي الخالق الصانع القدير الوهاب، يهب لمن يشاء ما يشاء، ويمنع عمن يشاء ما يشاء. أليس من الأجدر أن يتعلق قلب العارف بالمليك المقتدر، وأن يستغرق في عبادته والتوجه إليه والاهتمام به لا بغيره؟ فلتتحول تعلقاتك القلبية من الدنيا وزبرجها وزينتها إلى خالق هذه الدنيا، ولتنفذ عيناك وبصيرتك من الزبرج والزينة إلى خالقها الذي جعلها لامتحان قلبك كي يرى هل تهيم بحبها أو بحب صانعها!!!

ولكن من يتفرس علامات العارف ومن لا يتفرس؟ أو بعبارة أخرى من يعرف علامات العارف بالنورانية أو لا يعرف؟

إذا تعمقت فيما ذكرنا آنفاً يظهر لك جليًّا أن الفراسة بالنسبة لهذه العلامات تستلزم السنخية، بمعنى النظر إلى الأشياء بنور الله كما قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**». فعلامات العارف ليست ظاهرية ولا ترى بعين الشخص العادي، إذ إنه لا يستطيع ظاهراً أن يميز بين العارف وبين الرجل العادي، لأن كليهما تجمعهما قواسم مشتركة جسدية ظاهرية كثيرة. بل إن هذه العلامات باطنية ولا يستطيع تفرسها إلا من حظي بسنخية باطنية أو بقسم من الإيمان بالغيب أو بمستوى غيبي معين. وأظنك إذا كنت في زمان الإمام الحسين عليه السلام لا تستطيع أن تميز بينه وبين قاتله عمر بن سعد لأن كليهما كان يلبس نفس العمامة ويصلي بالناس، اللهم إلا القليل القليل من عباد الله.

فالفكر مثلاً باطني إلا إذا ظهرت آثاره في الظاهر، ولكن ما أكثر ما يخالط الظاهر من الرياء والنفاق! فالتمييز بين الصدق والرياء يتحقق بقوة الفراسة لا بالعين الظاهرية. يقول الشاعر:

ثوب الرياء يشف عما تحته فإذا التحفت به فإنك عاري



يقول الله تعالى على لسان الناس العاديين يصفون النبي ﷺ: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾[1]. وكما في قول العارف الكبير بايزيد البسطامي عندما سألوه عن علامة العارف فقال: «ذاك الذي يأكل معك ويهرب منك ويشتري منك ويبيع لك ولكن

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧.

قلبه في حظائر القدس وفي الليل على وسادة عوالم الأنس». فالعارف هو بشر مثلي ومثلك يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويبيع ويشتري ويتزوج وينجب الأولاد والذرية ويقيم في مسكن وينام ويستيقظ ويأكل ويشرب ويذهب إلى الحمام ويقود سيارة ويجلس في مكتب ويعمل كما يعمل الآخرون الخ.

أما ما يميزه عن الناس فهي أشياء باطنية تتوارى عن أعين الجسد. **فقلبه في حظائر القدس وفي الليل على وسادة عوالم الأنس.** وهو ينتمي إلى الملأ الأعلى بروحه وقلبه ودمه ولحمه وعظمه وشحمه وكل خلاياه الخ، بل بكل وجوده. فإذا وجدت عندك السنخية بمعنى أنك تعيش في عوالم النور، فستجد فكر العارف وشغله وميعاده واستئناسه بالله. يقول العارف الكبير بشر الحافي: «العرفاء قوم لا يعرفهم إلا الله تعالى، ولا يعظمون إلا من أجل الله تعالى». وقال: «إذا كان لدى الله خواص فهم العارفون».

إلا أنه من الأهمية القصوى بمكان للذي يرجو الله واليوم الآخر ويتلمس طريقاً إلى السماء أن يتعرف على العارف حتى يكون له دليلاً في طرق السماوات. يقول الشيخ الكليني رحمه الله في أصول الكافي كتاب الحجة صفحة ٢٦١:

«الحسين بن محمد عن معلى بن محمد عن علي بن محمد عن بكر بن صالح عن الريان بن شبيب عن يونس عن أبي أيوب الخزاز عن أبي حمزة قال: قال أبو جعفر عليه السلام: يا أبا حمزة! **يخرج أحدكم فراسخ فيطلب لنفسه دليلاً وأنت بطرق السماء أجهل منك بطرق الأرض، فاطلب لنفسك دليلاً»**.



أهمية الإمام المهدي عليه السلام
في التربية العرفانية

إذن ماذا نستفيد نحن من العرفاء الذين ذكرنا آنفاً أهمية معرفتهم حتى نتلمس طريقنا إلى السماء بواسطتهم ونتخذهم دليلاً في طرق السماوات؟

يظن البعض أن العرفان علم من جملة العلوم الأخرى الكثيرة، ويسميهم البعض علم الأخلاق، كأن العرفان منحصر في الأخلاق فقط. ويدرس البعض العرفان النظري والفلسفة الإلهية على أنها العرفان، في حين أنها لا تعدو أن تكون من المنقولات والمعقولات. بمعنى أنها من العلوم الفلسفية التي تعالج ذهنياً الحالات والمقامات التي توصل إليها العرفاء، بل طاروا إليها على أجنحة المعرفة الربانية، بعد قطعهم أشواطاً في السير والسلوك في وجودهم، **قفزاً من النفس ثم إلى القلب وأخيراً إلى الروح الذي نفخه الله فيهم، والذي هو عينة من الله في وجودهم ، بدء من أنا (المادي المحدود) وانتهاءً بـ أنا (الإلهي اللامتناهي)** .

أي أن العارف قطع هذه الأشواط بالعمل الصالح ـ بالذكر الدؤوب والجهاد الأكبر ـ في ساحات أنوار المعرفة وتحت رعاية معلم رباني، وتخطى خلالها الرذائل ووصل إلى الفضائل التي ذكرناها في فصل «ما هي المعاصي والذنوب» في باب بشر الحافي. أي أن العرفان

تغيير وجودي كلي في حالات العارف ومقاماته، ويسميه البعض كيمياء الحب الإلهي الذي يغلب على حالات العارف. إذن العرفان ليس هو قراءة الكتب والفهم الذهني النظري لهذه الحالات والمقامات السامية.

ومن المؤكد أن الإمامة أصل من أصول الدين وأن الأئمة كلهم نور واحد. إن الإمامة لا يمكن تدريسها نظرياً وفلسفيًا، بل هي موهبة إلهية يتفضل الله بها على بعض من عباده الصالحين، والله أعلم حيث يجعل رسالته. وعددهم معروف وهو اثنا عشر إماماً من عترة الرسول ﷺ، بالإضافة إلى بعض الأنبياء والأوصياء، كما في حالة إبراهيم عليه السلام حيث يخاطبه الله جل شأنه: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

كذلك العرفان لا يمكن تدريسه نظرياً وفلسفيًا، لأنه موهبة إلهية يتفضل الله بها على بعض من عباده الصالحين، بعد تعرضهم لنفحات رحمانية وتربية عرفانية. وتستلزم هذه الموهبة الخروج من ظلمانية الطين ودخول النورانية الروحانية، حتى تحصل الأرضية المشتركة مع الإمام عليه السلام. فهم الشيعة الذين ذكرهم الإمام الباقر عليه السلام حيث يقول: «وشيعتنا من فائض طينتنا»، والمعروف أن طينتهم عليهم السلام نورانية بحته وكلهم نور واحد.

وقضية الإمام المهدي عليه السلام مسألة حياتية مهمة في التربية العرفانية ولا تستقيم إلا بها. ويمكن تشبيه الإمام الغائب عليه السلام بأنه كالشمس المحجوبة، موجود ولكنه غائب عن أعيننا. ويمكن تشبيه العارف بالقمر في ظلام الليل الدامس، يهتدي ويستنير بنوره المريدون. وهذا القمر إنما

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٤.

هو يعكس نور الشمس لأنه يقع في منطقة نورانية الإمام ﷺ، ويعكس نوره في ظلمات الليل وظلمانية الطين المادي، حتى يتمكن المستحقون بفضل أنوارهم المباركة من الإهتداء إلى الله تعالى، بعد قطعهم أشواطاً في طريق السير والسلوك. كذلك الشموس إنما هي تشع نورانية الله جل وعلا وولايته سبحانه وتعالى. فكما ترى أن الإمامة هي من أساسيات الطريقة العرفانية لا في الحواشي. وإن ولايتهم تستمد مصداقيتها من ولاية الله سبحانه وتعالى.

يقول الرسول ﷺ: «**لا تجالسوا من العلماء إلا الذي يدعوكم من الخمس إلى الخمس: من الشك إلى اليقين ومن الكبر إلى التواضع ومن العداوة إلى النصيحة ومن الرياء إلى الإخلاص ومن محبة الدنيا إلى الزهد**». فالرسول ﷺ يرشح العلماء لهداية السالك. ولكن أي نوع من العلماء؟ لقد قالها ﷺ ضمناً بأن الأكثرية منهم ينضحون بالشك والكبر والعداوة والرياء وحب الدنيا. فكيف يستطيعون هداية السالك إلى اليقين والتواضع والنصيحة والإخلاص والزهد؟ والمفهوم من كلامه ﷺ أنه يعني بهم ما ذكره في حديث آخر: «**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**»، وهم قليلون كما ظهر جليًا من كلامه ﷺ: «**لا تجالسوا من العلماء إلا....**». فبدأ بـ «لا» إطلاقاً ثم استثنى بـ «إلا». فهو يعلن صراحة كثرة العلماء إطلاقاً وقلة ممن يتخلقون بأخلاق الله، ويتصفون بهذه الصفات السامية التي تؤهلهم لهداية السالك.

أما علامات هؤلاء الذين يجب مجالستهم ومصاحبتهم كي نهتدي بهم في هذه الليلة الظلماء إلى أنوار الولاية ومقعد صدق عند مليك مقتدر فهي كالتالي:

١ ـ الصفات السامية التي ذكرها النبي ﷺ.

٢ ـ التأكيد على أهمية الإمام المهدي ﷺ في التربية العرفانية لأنه

منبع علوم الأنبياء، رغم احتجابه كالشمس حينما تكون في الطرف الثاني من الكرة الأرضية. والتأكيد أيضاً على أهمية الشيخ كالقمر في الليلة الظلماء يعكس ضوء الشمس.

٣ ـ اهتداؤهم ولا يسألونكم أجراً كما كانت الأنبياء ﷺ، وكما في قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

٤ ـ يحولك إلى الله ليعرف عليك الحجة، كما في قول الإمام الصادق ﷺ لأحد أصحابه أن يدعو الله هكذا: «إلهي عرفني نفسك فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرفك. إلهي عرفني نبيك فإنك إن لم تعرفني نبيك لم أعرفه قط. إلهي عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن دينك».

٥ ـ قلبه يطفح بذكر الله كما في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[2]. وهذه الآية الكريمة نزلت في الرواد من العرفاء في صدر الإسلام، وهم أهل الصفة أمثال سلمان الفارسي وأبي ذر وغيرهم رضوان الله عليهم.

٦ ـ ولا يتبع هواه كما في الآية المذكورة.

٧ ـ وما كان أمره فرطاً كما في الآية المذكورة.

٨ ـ بعد اتخاذك شيخاً يريك الله علامات في الطريق.

٩ ـ ويخرجك من ظلمانية الطين إلى النورانية والروحانية، لوجود الأرضية المشتركة مع الإمام المهدي هناك.

---

(١) سورة يس، الآية ٢١.

(٢) سورة الكهف، الآية ٢٨.

١٠ ـ اتصالات نورانية وروحانية مع الإمام.

١١ ـ معرفة نورانية بالإمام.

١٢ ـ الفناء والهجرة إلى الله ببركة هذه المعرفة النورانية، كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾[1].

فالسالك إما أن يكون سالكاً بالقوة أو سالكاً بالفعل. هناك كثيرون من الناس منهمكون في المعاصي ولكنهم ليسوا راضين عن ذلك، ويطمحون إلى يوم يهتدون فيه إلى الله وإلى الطريق القويم، كأمثال بشر الحافي في شبابه قبل لقائه الإمام الكاظم عليه السلام وحر بن يزيد الرياحي قبل توبته المعروفة في يوم عاشوراء. وهؤلاء الناس توجد بذرة الهداية عندهم وهم كثيرون، ويمكن تسميتهم بالسالكين بالقوة، يعني الذين لما يتأهبوا للتلمذه ولما يعرفهم الله بالدليل، ولما يدخلوا في طريقة السير والسلوك تحت رعاية المعلم الرباني. وهم في فترة كفاحهم وجهادهم للتخلص من ذنوبهم، يمكن أن يكونوا قد خففوا عن أنفسهم كثيراً من المعاصي والذنوب، ولكن يبقى عندهم الشك والكبر والعداوة والرياء وحب الدنيا. وهذه الأشياء لا يمكن أن تتحول تحولاً جذرياً إلى اليقين والتواضع والنصيحة والإخلاص والزهد إلا تحت رعاية معلم رباني.

وأهمية الإمام لا تظهر عمليًا إلا تحت رعاية المرشد. فالشمس تبزغ في النهار وتطلع عندما يتنفس الصباح. أما بالليل فلا يمكن رؤيتها، ليس لأنها غير موجودة، بل لأنها محتجبة. فالإمامة استمرارية لختمية النبوة، ورحمة جارية لهداية المستحقين، وغيث مستمر ومتصل ينزل من السماء إلى الأرض ليحيي الله به بلدة ميتاً.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٢٦.

أحد أهم العلامات أنهم مهتدون ولا يسألونك أجراً، كما هو الحال مع الأنبياء ﷺ لم يسألوا أجراً لهداية البشر. فالرسالة السماوية أسمى من ذلك ومبلغها غني عن الناس. فالله سبحانه وتعالى قد رفعه بغنى النفس وسموها وقناعتها إلى مقامه الرباني غنيًّا عن العالمين. وخلقه بأخلاقه وأوكل إليه هداية البشر من دون مقابل. فاستغنى عن الخلق بنفسه الغنية السامية، واستغنى الخلق إليه طلباً للهداية.

وهو لا يحولك إلى الناس وإلى الكتب لمعرفة الحجة، فذاك أمر بشري لا يجدي في سبيل الله نفعا، ولا يفضي بك إلى معرفة نورانية بالإمام. بل يحولك إلى الله ليعرف عليك الحجة، ولا يستطيع ذلك إلا الله سبحانه وتعالى. فبمقدار حاجة السالك إلى الحجة وحبه للإمام تسهل أو تصعب مناجاته إلى الله وعثوره أخيراً على ضالته. فالحجة مسألة غيبية سماوية لا تتأتى إلا بالدليل السماوي الرباني الذي يقودك إلى الملكوت والجبروت واللاهوت وإلى السماوات السبع ودرجات العليين. وليست هي مسألة بشرية ظاهرية أرضية.

ومن علاماته أن قلبه متعلق بالله وبذكره حكمة ومعرفة ويقيناً بالمهيمن، مشغول طوال وقته بالذكر الخفي الذي هو الذكر القلبي الدائم. فكيف يا ترى يمكن أن يخرج من هيمنة الله ومملكته وسلطانه! وهو العبد الصادق الذي لا يتبع إلا مولاه. وهل يتبع الظل إلا صاحبه!

ومن علاماته أنه لا يتبع هواه. فسلوكه نابع عن التسليم المطلق لمشيئة ربه لا عن طغيان حيالها، ولا عن هوى وشهوات ورغبات تعترضها. وسلوكه نابع عن حب العدالة والإنصاف لا عن حجاب النفس وحب الذات ومحوريتها. عظم الخالق في أنفسهم حتى صغرت النفس وتضاءلت ثم فنيت وزال الحجاب بينهم وبين خالقهم. لا يتلونون بألوان

الهوى النفساني، بل إن صبغتهم هي صبغة العدل المطلق، يكلون الحكم إلى الله وهو خير الحاكمين.

إنه صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة! فهي الحالة القائمة أو المزاج القائم في نفس العارف، الذي يتسم بالنظام العصبي المتراخي كمال التراخي الخالي من التوتر والقلق والطغيان. النظام الذي يصطبغ بالهدوء والراحة والسكينة وطمأنينة النفس، الناجم عن التسليم المطلق لله والتوكل المطلق على الله. النظام الذي تلين فيه جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. يفوض كل أموره إلى مدبر الأكوان ولا يحمل همًّا إلا هم الله، ولا يتعامل إلا مع الله. متحرر من أغلال النفس وسلاسل الطغيان وأصفاد الذات وسعير شرك الحال، وما أثقلها على هذا الإنسان الضعيف! ثم ما أجهل وأغبى هذا الإنسان الذي يحملها!! ويظن أن الأمور بتدبيره لا بتدبير الخالق الرازق المهيمن. وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً!!!

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[1]. وهكذا هو نظامهم العصبي تقشعر جلودهم حيرة وصدمة من القول الثقيل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾[2]. ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، وهذا هو كمال الاسترخاء والهدوء والراحة والسكينة وطمأنينة النفس.

نظره وبصيرته في الأعماق لا في الظاهر. ليس بضحل السواحل ولا بضجيج هيجان الأمواج، بل عميق متفكر متدبر، تعرف ذلك من لحن القول. لا يحب اللغو وهو عن ذلك من المعرضين، ولا ينطق عن

(١) سورة الزمر، الآية ٢٣.
(٢) سورة المزمل، الآية ٥.

هوى، ويشهد بالعدل حتى على نفسه. ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾[1].

ومن علاماته أنه على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، وما كان أمره فرطاً. ليس من المغضوب عليهم كاليهود الذين تخلصوا من شرك القول واللسان، ولكنهم لا زالوا في سلاسل شرك الأعمال وفي أغلال شرك الأفكار وفي سعير شرك الحال. ولا هو من الضالين الذين كدوا واجتهدوا في البحث عن الله فاتخذوا شيخاً للوصول إلى الله. ثم توقفوا عند الشيخ وضلوا عن الله في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2].

لا ينحرف إلى ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ المطرودين من ساحة الوحدانية الحقة ومن عوالم النورانية والروحانية. ولا ينحرف إلى ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين قطعوا شوطاً في الطريقة، ثم اتخذوا الدليل والمعلم هدفاً وغاية وأرباباً من دون الله، ونسوا الله الذي هو منتهى أمال العارفين. منتهى أمله وغايته القصوى الله الله الله!!!

هو في عبادته وحده لا ينحرف إلى عبادة غيره. لا يميل إلى الذين يعبدون الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، وقد اتخذوا الدين سلماً إلى دنياهم. ولا يميل إلى الذين اتخذوا الواسطة والوسيلة للعروج إلى الله، ثم نسوا الله واتخذوا الوسيلة رباً من دون الله، وبقوا في السفينة وانشغلوا بها، ونسوا الدر في قاع البحر الذي من أجله ركبوا السفينة.



(١) سورة محمد، الآية ١٤.

(٢) سورة التوبة، الآية ٣١.

كرامات معروف الكرخي (قدس سره)

ومن كراماته (قدس سره) أنه كان يمشي على ساحل دجلة واتفق أن كانت زمرة من الشباب الفاسد هناك يتعاطون الخمر والموسيقى. فقال مريدوه: يا شيخ ادع الله تعالى أن يغرق هؤلاء الزمرة الفاسدة ويهلكهم كي يختفي شؤم فسقهم وفجورهم. فقال معروف: «ارفعوا أيديكم بالدعاء». وقال: «يا إلهي كما نعمتهم في هذه الدنيا نعمهم في الآخرة». فتعجب المريدون من كلامه وقالوا: يا شيخ ما ندرك سر هذا الدعاء. فقال: «تمهلوا قليلاً حتى ينكشف السر». ولما التقت عيون الزمرة مع عيون الشيخ تغيرت حالاتهم وكسروا العود وسكبوا الخمر، وسقطوا على يديه ورجليه يبكون ويتوبون من ذنوبهم. فقال الشيخ (قدس سره): «هل رأيتم ما حصل؟ فلقد اختفى الفسق والفجور من دون غرقهم وعذابهم».

روى محمد بن منصور الطوسي: كنت في بغداد عند معروف الكرخي فوجدت أثراً في وجهه. فقلت له: كنت عندك أمس ولم ألاحظ هذا الأثر في وجهك. بالله عليك أخبرني ماذا حصل؟ فقال: «لا تسأل ما لا يعنيك واسأل ما يعنيك». فقلت له أقسم عليك بحق المعبود إلا أخبرتني. فقال: «كنت أصلي البارحة وأردت أن أذهب إلى مكة المكرمة وأطوف البيت الحرام. فكنت في مكة وطفت الكعبة ثم ذهبت إلى زمزم لأشرب الماء فانزلق رجلي وشج وجهي وهذا الأثر من ذاك».

وروي أنه كان في المسجد قريباً من دجلة، فذهب إلى نهر دجلة للطهارة وأودع المصحف والمصلى في المسجد. وعند عودته رأى عجوزاً تمشي وقد سرقتهما. ومشى ورائها حتى وصل إليها وكلمها وهو يغض الطرف عنها حياء. فقالت غاضبة: أعندك ولد يقرأ القرآن؟ قال لها: «لا». ثم قال: «ردي علي المصحف الشريف وخذي المصلى». فتعجبت المرأة من حلمه وردت عليه كليهما. فقال لها معروف: «المصلى عليك حلال فخذيه». فهربت المرأة مسرعة من شدة الخجل.

وقال سري السقطي: رأيت معروفاً في العيد وهو يقطف رطباً فقلت له ماذا تفعل؟ قال: «رأيت طفلاً يبكي فقلت له لماذا تبكي؟ قال: أنا يتيم ليس لي أب ولا أم، وهؤلاء الأطفال يلبسون الحلل الجديدة وأنا ليست لي حلة جديدة. فقلت لنفسي: دعني أقطف الرطب ثم أبيعه كي أشتري لهذا الطفل حلة جديدة حتى لا يبكي». قال سري السقطي: «فقلت له أنا أكفيك ذلك ولا تحمل هذا الهم. فاشتريت للطفل حلة جديدة وأدخلت السرور في قلبه». يقول: «فسطع النور حالاً في قلبي وتغيرت أحوالي منذ ذلك اليوم». يقول سري السقطي: قال لي معروف يوماً: «إذا كانت لك حاجة عند الله فأقسم عليه قائلاً: يا رب! بحق معروف الكرخي إلا قضيت حاجتي. فيستجاب دعاؤك حالاً».

كان لمعروف الكرخي خال وكان والياً على تلك البلدة. واتفق أن مر الوالي على خرابة ووجد هناك معروفاً جالساً على الأرض يأكل الخبز ويطعم كلباً بجانبه. فقال الوالي: أما تخجل أن تكون جليس الكلب؟ فقال: «أطعم الكلب من شدة خجلي». ثم نادى طيراً في الهواء فأتى الطير وجلس على يده ومد جناحيه وأخفى بهما وجهه وعينيه. فقال معروف: «من خجل من الله ﷻ خجل منه كل شيء».



وفاة معروف الكرخي (قدس سره)

ولعظمة خلقه وتواضعه مع الجميع من كل الأديان، تنازع عليه اليهود والنصارى والمؤمنون عند وفاته (قدس سره)، كل يريد دفنه حسب تقاليده. وقال خادمه إن الشيخ كان قد أوصى: «من استطاع حمل جنازتي فأنا منهم». فحاول النصارى واليهود حمل جنازته ولم يقدروا على ذلك. وجاء المسلمون وحملوا جنازته وصلوا عليه ودفنوه.

رآه محمد بن الحسين في منامه فقال له: «ماذا فعل الله تعالى بك؟». قال: «لقد غفر لي». قال: «بسبب ورعك وزهدك؟». قال: «لا! بل في كلام سمعته من ابن السماك في الكوفة حيث قال: **«من انقطع إلى الله تعالى بكليته تغمده الله برحمته وأرجع الخلق إليه»**. فإن هذا الكلام قد وقع في قلبي وقعاً شديداً، ورجعت إلى الله بكليتي، وأفرغت نفسي من كل الأشغال إلا شغلاً واحداً، وهو خدمة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام. وأخبرت الإمام عليه السلام بكلام ابن السماك فقال لي عليه السلام: «إذا كنت تقبل بهذا الكلام فذاك يكفيك».

وقال سري السقطي (خال جنيد البغدادي) الذي تربى في طريقة العرفان عند معروف الكرخي (قدس سره): «رأيته في المنام وهو تحت العرش وهو كالعاشق الواله المذهول. وجاء النداء من الحق تعالى إلى الملائكة: «من هو هذا الشخص؟». قالوا: «يا رب أنت أعلم». فقال

الحق تعالى: «هو معروف الواله في حبنا، لا ينتبه من ولهه وذهوله إلا برؤيتنا ولقائنا».

وروي أنه كان يوماً من الأيام صائماً وكان يمشي في السوق. واتفق أن مر هناك ساقي الماء ينادي: «رحم الله من شرب». فأخذ الشيخ الماء منه وشرب. فتعجب أصحابه وقالوا: «ألم تكن صائماً؟». فقال: «نعم كنت صائماً ولكنني رغبت في دعائه وطمعت في رحمة الله». وبعد وفاته رأوه في المنام وسألوه: «ماذا فعل الله ﷻ بك؟». فقال: «استجاب الله دعاء ذلك السقاء وغفر لي ذنوبي».



نظم السلوك
وفرن الرياضة

ذكرنا في فصل وفاة معروف الكرخي الآنف الذكر أنه قد رآه أحد أصحابه في المنام فقال له: «ماذا فعل الله تعالى بك؟». قال: «لقد غفر لي». قال: «بسبب ورعك وزهدك؟». قال: «لا! بل في كلام سمعته من ابن السماك في الكوفة حيث قال: **«من انقطع إلى الله تعالى بكليته تغمده الله برحمته وأرجع الخلق إليه»**. فإن هذا الكلام قد وقع في قلبي وقعاً شديداً، ورجعت إلى الله بكليتي، وأفرغت نفسي من كل الأشغال إلا شغلاً واحداً، وهو خدمة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام. وأخبرت الإمام عليه السلام بكلام ابن السماك فقال لي عليه السلام: **«إذا كنت تقبل بهذا الكلام فذاك يكفيك»**.

نعم الشرط هو قبول كلام ابن السماك، وبذلك تتحقق المصداقية وإلا فلا. فمجرد كلام الأولياء وسماع حديثهم، من دون جدية وصدق نوايا، والذي يمر عليه السامع مر الكرام، ولا ينتهي به المطاف إلى تغيير نهج حياته تغييراً جذرياً، لا مصداقية له البتة. فالقبول ليس قبولاً بلقلقة اللسان، بل هو العمل الجاد الصادق في دخول سلك التربية العرفانية والسير والسلوك، وذاك ما أشار إليه الإمام الرضا عليه السلام روحي له الفداء. فما ذكره ابن السماك في قوله: **«من انقطع إلى الله تعالى بكليته**

تغمده الله برحمته وأرجع الخلق إليه» كان له أثره العظيم في قلب معروف الكرخي، حيث وقع في قلبه وقعاً شديداً، حتى عمل بكل طاقاته لتحقيق هذا الهدف من حياته وهو **الانقطاع إلى الله بكليته**. وأخيراً تحقق له هذا الهدف ورجع إلى الله بكليته. فالانقطاع إلى الله هو الهدف من جهاد السالكين ومنتهى أمل العارفين، وهذا يحتاج إلى نظم السلوك.

قال بايزيد (قدس سره) وهو يحكي عن طريقه الشاق الشائق في السير والسلوك: «**كنت حداد نفسي لمدة اثنتي عشرة سنة، وضعتها في فرن الرياضة، وأشعلت عليها نار المجاهدة، ووضعتها على سندان المذمة، وطرقت عليها بمطرقة الملامة، حتى صنعت منها مرآة. وفي السنوات الخمس التالية كنت مرآة نفسي أنظفها بأنواع الطاعات والعبادات. ثم نظرت في نفسي فوجدت فيها عقدة من الغرور والتباهي والعجب والاعتماد على الطاعة والأعمال. وفي السنوات الخمس التالية حاولت جهدي أن أتجاوز تلك العقبة الكأداء، وأسلمت إسلاماً جديداً. ثم نظرت فوجدت الخلق أمواتاً وكبرت عليهم أربعاً ومررت على جنائزهم، وبعيداً عن معاناة مخالطة الخلق وبعون الحق وصلت إلى الحق**».

إذن احتاج بايزيد البسطامي إلى اثنين وعشرين عاماً في السير والسلوك حتى وصل إلى الانقطاع إلى الله تعالى بكليته، كما ذكره ابن السماك وأيده الإمام الرضا عليه السلام. فما بالنا نحن إذن!!!

ولكن كلامه الشريف هو أقصر كلام في نظم السلوك. وهذا ما امتاز به بايزيد (قدس سره) في جوامع الكلام ودرر الحكم مع أمثاله من العرفاء الأوائل كأويس القرني وغيره. سألوه: «بأي شيء وصلت إلى ما وصلت إليه؟». قال (قدس سره): «**جمعت الزبارج من متاع الدنيا، وربطتها بسلاسل القناعة، ووضعتها في منجنيق الصدق، ثم قذفت بها في بحر**

اليأس». ما أعظمها من جوامع الكلم تختصر جهاد الحياة في كلمات قصار!

ونظم السلوك هذا هو على أحد عشر معلماً من معالم الهداية[1]:

١ ـ وضع النفس في فرن الرياضة.

٢ ـ إشعال نار المجاهدة عليها.

٣ ـ وضعها على سندان المذمة.

٤ ـ الطرق عليها بمطرقة الملامة.

٥ ـ صنع مرآة النفس.

٦ ـ صقل مرآة النفس وتنظيفها بأنواع الطاعات والعبادات.

٧ ـ تجاوز العقبة الكأداء من الغرور والتباهي والعجب والاعتماد على الطاعة والأعمال.

٨ ـ الإسلام الجديد.

٩ ـ التكبير على الخلق أربعاً.

١٠ ـ المرور على جنائزهم.

١١ ـ الوصول إلى الحق، بعون الحق، وبعيداً عن معاناة مخالطة الخلق.

يبدأ السالك في السير والسلوك بعد إخلاص النية وصدق الهدف ويضع نفسه في فرن الرياضة. رياضة النفس هي كترويض البهيمة

---

(١) يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «إلهي أنت الذي هديتني حتى استبانت لي المعالم».

الوحشية. تتعذب البهيمة كثيراً حتى تستقيم على طاعة ربها. وربما أخذ هذا الترويض فترة طويلة حتى تتطوع البهيمة شيئاً فشيئاً بالتدريج. أما ترويض النفس البشرية فطبعاً يأخذ مدة أكثر بكثير، لأن النفس البشرية أكثر شراسة من الحيوانات الوحشية. لقد أخذت هذه العملية عند بايزيد البسطامي اثنا عشر عاماً. كانت نفسه في فرن الرياضة وكان يشعل عليها نار المجاهدة. فما بالنا نحن! يا ترى كم تأخذ منا من الوقت لترويض هذه البهيمة فينا!

إن النفس تميل إلى العيش في قفص المحدودية، أي أنها تميل إلى نظام الأفعال وردود الأفعال العصبية، وهذا ما طبع عليه نظامه العصبي. القفزة من الجانب البهيمي في الإنسان إلى الجانب الإلهي تحتاج إلى مجهود جبار ونظام صارم ـ ألا هو نظم السلوك وطريقة السير والسلوك. هذا الجانب الإلهي الذي أشار إليه مولانا ومقتدانا الإمام علي عليه السلام بقوله:

أتحسب أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الذي ... بأحرفه يظهر المضمر
دواؤك فيك وما تشعر ... وداؤك منك وما تبصر

إن النفس البشرية لا تميل إلى اقتطاع نفسها من دوامة ردود الأفعال وإسارة النظام العصبي. أي أنها لا تميل إلى السمو على هذه النفس والطواف بعيداً عنها ومراقبتها من فوق. ولله در الشاعر حيث يقول[1]:

كبهائم جهلت بسر وجودها ... عاشت لشهوة ليلها وضحاها
وكجلنار لا تعي أسرارها ... وكياسمين لا تشم شذاها

(١) كتاب السماوات السبع للمؤلف فصل (سر الله العلي).

كـغـرائـز مـلـئـت وظـائـف قـوة   تـحدوا الـحياة عـلى بـرى دنـيـاهـا
لـكـنـهـا جـهـلـت وظـائـفـهـا لـذا   بـطـرت مـعـيشـتـهـا وضـل سـراهـا

أليس هذا قفص الدنيا والمحدودية الضيقة التي يعيش فيها الإنسان في إسارة جهله وغفلته، رغم أن الإنسان ينطوي في أعماقه العالم الأكبر كما ذكر الإمام علي عليه السلام، ورغم أنه ينتمي إلى عالم اللامتناهي في أصله؟ فمتى يا ترى تقتطع نفسك من القفص وتصل إلى العالم الأكبر؟ لا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق نظم السلوك الذي ذكره بايزيد البسطامي!

فلننظر مليًّا في سلوك الإنسان. إنه تحدوه في هذه الحياة الدنيا ثلاثة قوى هائلة كامنة في نفسه:

أ ـ الشهوة الجنسية.

ب ـ الحقارة الذاتية.

ج ـ الخوف العصبي.

أ ـ أما الشهوة الجنسية فإن الإنسان يشترك فيها مع البهائم. فهي تتجلى في ذروتها في الإنسان بشكل الشبق وشهوة النظر وفضوله.

ب ـ أما الحقارة الذاتية فتتجلى في أنواع مختلفة من الغضب والأحقاد والعداوات التي تسمى (الشهوة الغضبية) في الفلسفة الإلهية. فهي شهوة غضبية محضة في البهائم، لأنها لا تشعر بالحقارة الذاتية البهيمية الكامنة فيها. أما في الإنسان فيشوبه شعور صارخ بالحقارة، وهذا ما يميزه عن الحيوان. وأنّى للكائن الإلهي أن يبقى في القفص الضيق! رغم أن الأكثرية الساحقة من بني البشر لا تنتبه بالوعي الكامل لهذه الحقيقة العظمى، بل إنهم يكممون هذا النداء الصارخ في وجودهم.

أما الشعور بها فهي حقيقة ثابتة، وهو شعور صارخ يظهر جليًّا في سلوكيات الإنسان، يحدوه ويقوده في عذاب ونكد ومعاناة وكبد[١].

فالإنسان مركب من الشهوة وعقل الملائكة الذي هو عبارة عن حلمها وعفوها وتواضعها. فإذا كان عقل الملائكة وحلمها وعفوها وتواضعها غالباً عليه صار أحسن من الملائكة. وإذا كانت الشهوة غالبة عليه صار أسوأ من البهائم[٢]. فكأن الكائن الملائكي في باطنه يشير صارخاً إلى الكائن البهيمي فيه بصفة الحقارة الذاتية! فإذا تعرض للاستفزاز والمهانة والتحقير شعر بالحقارة الذاتية، فيكون رد فعله الحقد والغضب والكبر والصلف. فكأنه يظن بأن ردود الأفعال هذه تمسح عنه الحقارة الذاتية وتخلصه منها!!!

في حين أنه لو قوى الإنسان الكائن الملائكي في وجوده بصفات الحلم والعفو والتواضع، لاستغنى عن ردود الأفعال هذه لمسح الحقارة الذاتية، التي تنتمي إلى الكائن البهيمي الكامن فيه. فالغضب والأحقاد والكبر ما هي إلا ردود أفعال على الاستفزاز والمهانة والتحقير. فالمتكبر يحسب كل شيء تحقيراً له. يقول الله جل وعلا: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾[٣].

أما شهوة الغيبة وسماعها فما هي إلا التشفي والتعبير عن الأحقاد الدفينة. والثأر والانتقام ما هو إلا رد فعل على الاستفزاز والتحقير، رغم أن الوجه الإيجابي له هو الانتصار للآخرين من ظلم مماثل، كما ذكره

(١) يقول الله جل وعلا في سورة البلد: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾.
(٢) يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.
(٣) سورة غافر، الآية ٥٦.

الله جل وعلا: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[1]. والاستفزاز والمهانة والتحقير تضرب بجذورها في الحقارة الذاتية أو عقدة الحقارة، كما يسميها علماء النفس، وتضرب على أوتارها. وعلاج الغضب الحلم، وعلاج الأحقاد والثأر والانتقام هو العفو، وعلاج الكبر التواضع. لأن صفات الحلم والعفو والتواضع هي التسامي والتفهم للحقارة الذاتية الدفينة ومن ثم الغلبة عليها، ولأنها تنتمي إلى الجانب الملكوتي في الإنسان الذي يجب أن يتغلب على الجانب البهيمي فيه.

فكما أن الحقارة الذاتية تعوض الإنسان عن عقدته بالكبر والصلف والأحقاد والغضب، كذلك هي تعوض صاحبها بحب الجاه والرئاسة والطغيان، والاستهزاء بالغير والحسد، وحب الدنيا واهتماماتها ورغباتها والحرص والتنافسات الدنيوية، وطول الأمل وحب المال وحب النفس والظلم والرياء وغيرها. إلا أن بعض هذه المعاصي والذنوب يشترك فيها الهاجس العصبي أيضاً كما سيأتي لاحقاً. أما الجهل والغفلة فهما ينبثقان من الحقارة الذاتية، وعلاج الجهل العلم والمعرفة، وعلاج الغفلة العبرة والاعتبار والتنبه على هذه الحقارات.

ج ـ أما العامل الثالث وهو الخوف العصبي فيتجلى بمعاصي وذنوب كثيرة. فالحرص وحب المال هاجسهما الخوف من الفقر. وحب النفس هاجسه الخوف من زوال النفس. وحب الجاه والرئاسة هاجسهما الخوف من المذلة والاضطهاد. والحسد هاجسه الخوف من زوال النعمة. وحب الدنيا واهتماماتها ورغباتها وطول الأمل والتنافسات الدنيوية هاجسها الخوف من زوالها.

أما شهوة اللغو وسماعه فهاجسها الخوف من الوحشة

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٩.

والاستيحاش، وهو خوف عصبي محض. والشك وعدم الثقة فهاجسهما الخوف من زوال النعمة.

وتوجد هناك هواجس عصبية هي في الواقع جروح في النظام العصبي، وتسمى العقد النفسية، يرجع عهدها إلى أيام الطفولة في غياب وعي الطفل. فتبقى في منطقة اللاوعي تهدد الإنسان دائماً، وتبقى بشكل الحركات اللاإرادية والهاجس العصبي الذي يشغل حيزاً من روح الإنسان وأفكاره وخواطره .وخلال أفران الرياضة ونيران المجاهدات، يكون العارف قد أبلى بلاءً حسناً، وواجه معظم الحجب الكثيفة التي تغطي جذور العقد النفسية، التي ترجع إلى أيام الطفولة، التي تكونت عنده في غياب وعيه، واستقرت في منطقة اللاوعي، ويكون قد خرق معظمها وطوع آثارها وأعراضها.

وسنكمل قصتها في الفصل التالي وهو «فصل نظم السلوك ومقام مرآة النفس».

إن الإنسان أسير هذه العوامل الآنفة الذكر ومملوكها! أما السالك فيجب عليه التسامي عليها، والتحرر من إسارتها الظالمة ومملوكيتها وعبوديتها، والخلاص من الشرك الخفي، إن أراد الدخول في العالم الأكبر والعبودية لله وحده من دون شريك. والطريق الصحيح ليس هو أن يكل إلى الحقارة الذاتية المستبدة تعمل ما تشاء من الإجرام، وتعوض الإنسان عن عقدته بالكبر والصلف والأحقاد والغضب، وحب الجاه والرئاسة والطغيان، والاستهزاء بالغير والحسد، وحب الدنيا واهتماماتها ورغباتها، والحرص والتنافسات الدنيوية وطول الأمل، وحب المال وحب النفس والظلم والرياء وغيرها. بل يجب التسلح بالمعرفة والعرفان للسيطرة عليها وتغليب الجانب الإلهي على الجانب البهيمي الذي هو الحقارة الذاتية بعينها. فبدل أن تتركها تعوض عن عقدتها بالرذائل يجب

عليك أن تأخذ أزمة الأمور بنفسك، وتضعفها هي بعملية التزكية والجهاد الأكبر، وتحطم أنف الاستبداد الهدام الذي بدأ هو بالفعل بعملية هدم شخصيتك. هذه الحقارة الذاتية هي الشيطان بعينها، وهي القوة الهدامة في أعماقك، تهدم وتهدم وتهدم، وتهدد وتهدد وتهدد، وتتوعد وتتوعد وتتوعد. فإلى متى يا ترى تتركها تهدم وتهدد وتتوعد! وإلى متى تترك القوى الهدامة هذه تعيث فيك فساداً!!!

يقول الله جل شأنه: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾[1]. ها أنا ذا أشرح لكم الشيطان وحبائله، وأفضح حيله ومكره ودسائسه، بطريقة علمية سهلة، وبلغة حديثة مبسطة، تلمسون بها هذه القوة الهدامة في وجودكم بأنفسكم، وترون بأم أعينكم كيف تعيث في أرضكم فساداً؟ أين العقل الذي يضع الأشياء محلها؟ يا ليتكم أخرجتم هذه القوى الهدامة من وجودكم وأحللتموها بالجانب الملكوتي الذي هو بالفعل كامن فيكم! أحلوا الفوضى والاضطراب بالسكينة والهدوء. وهذا الاستسلام للهدم والتوعد والتهديد هو والله عبادة الشيطان الذي يعيث فيكم فساداً ولكنكم لا تشعرون!!!

فلنرجع الآن إلى الثلاثين معصية وذنب ورذيلة في فصل (ما هي المعاصي والذنوب) في باب بشر الحافي، ثم نبوبها من جديد لنذكر جذور المعاصي أو حوافزها أو هواجسها أمام كل معصية، حتى يسهل علينا بعدها التحول من هذه الثلاثين إلى الثلاثين من الفضائل ومكارم الأخلاق التي ذكرنا آنفاً، والتي هي بداية مقام مرآة النفس:

---

(١) سورة يس، الآيات ٦٠ ـ ٦٢.

المعاصي والذنوب والرذائل	جذورها وحوافزها وهواجسها في النفس البهيمية
١ ـ الكبر والصلف والعجب	الحقارة الذاتية وحافزها التحقير والهاجس العصبي
٢ ـ حب الجاه والرئاسة	الحقارة الذاتية وحافزها خوف المذلة
٣ ـ الإضافات على الفطرة	الجهل المنبثق عن الحقارة الذاتية
٤ ـ الاعتماد على المعلومات	الجهل المنبثق عن الحقارة الذاتية
٥ ـ الجهل	الحقارة الذاتية
٦ ـ الطغيان	الحقارة الذاتية والخوف العصبي من زوال النعمة
٧ ـ الاستهزاء والتهكم بالبشر	الحقارة الذاتية والخوف العصبي من المذلة
٨ ـ الأحقاد والعداوة والبغضاء	الحقارة الذاتية وحافزها المهانة
٩ ـ الحسد	الحقارة الذاتية وهاجسها الخوف من زوال النعمة
١٠ ـ الانتقام	الحقارة الذاتية وحافزه الاستفزاز والتحقير
١١ ـ الظلم	الحقارة الذاتية وهاجسه الخوف من الاضطهاد
١٢ ـ حب الدنيا	الحقارة الذاتية وهاجسه الخوف من زوال الدنيا
١٣ ـ الحرص	الحقارة الذاتية وهاجسه الخوف من الفقر
١٤ ـ اهتمامات الدنيا	الحقارة الذاتية وهاجسه الخوف من زوال الدنيا
١٥ ـ رغبات الدنيا	الحقارة الذاتية وهاجسه الخوف من زوال الدنيا
١٦ ـ التنافسات الدنيوية	الحقارة الذاتية وهاجسه الخوف من زوال الدنيا
١٧ ـ الغفلة	الحقارة الذاتية وهاجسه الخوف من زوال الدنيا
١٨ ـ طول الأمل	الحقارة الذاتية وهاجسه الخوف من زوال الدنيا
١٩ ـ التسويف في التوبة	الحقارة الذاتية وهاجسه الخوف من زوال الدنيا
٢٠ ـ الشبق	الشهوة الجنسية
٢١ ـ شهوة النظر وفضوله	الشهوة الجنسية
٢٢ ـ شهوة الغيبة وسماعها	الحقارة الذاتية وحافزها الحقد والمهانة
٢٣ ـ شهوة اللغو وفضوله	الحقارة الذاتية وحافزها الوحشة

٢٤ ـ شهوة سماع اللغو	الحقارة الذاتية وحافزها الوحشة
٢٥ ـ حب المال	الحقارة الذاتية وهاجسه الخوف من الفقر
٢٦ ـ حب النفس	الحقارة الذاتية وهاجسه الخوف من زوالها
٢٧ ـ الشك	الحقارة الذاتية وهاجسه الخوف من زوال النعمة
٢٨ ـ الرياء	الحقارة الذاتية وهاجسه الخوف من زوال النعمة
٢٩ ـ الكفر	الحقارة الذاتية وحافزه الجهل والغفلة
٣٠ ـ الغضب	الحقارة الذاتية وحافزه الاستفزاز

نظم السلوك
ومرآة النفس

إذن وضع النفس في فرن الرياضة، وإشعال نار المجاهدة عليها، ووضعها على سندان المذمة، والطرق عليها بمطرقة الملامة، كل هذه هي لصنع مرآة النفس، وحصول الفضائل ومكارم الأخلاق، والخروج من قفص الحقارة الذاتية إلى فضاء السمو الذاتي، ومن عذاب الهواجس العصبية إلى جنة السكينة، ومن طغيان الشهوة الجنسية إلى تطويعها، حتى تصبح النفس كالبهيمة المروضة، مطيعة وخاشعة وخاضعة لربها، ومفيدة وناجعة لصاحبها.

وتصبح كالمرآة تعكس مشيئة ربها، وتكون رحمة لصاحبها لا وبالاً عليه. تماماً كالفيلة الوحشية حين تروض، وبعد اللتيا والتي من الترويض الشاق، تصبح مفيدة لأصحابها، تقتلع الأشجار الكبيرة وتحملها مسافات بعيدة، وتحمل أصحابها إلى حيث يشاؤون، حتى إلى الحروب وساحات الوغى. وإذا تروضت النفس ثم تطوعت على طاعات ربها، كانت كالبهيمة التي تتروض، ثم تتطوع على طاعات صاحبها.

وطبعاً نظم السلوك لا يستأصل المعاصي والذنوب، ولا يقتلعها من جذورها اقتلاعاً. فنفسك معك لا يمكن إبادتها، بل يجب فقط ترويضها وتطويعها. فالجهاد الأكبر سمي جهاداً أكبر لأنك أمام عدولاً

يمكن إبادته والاستراحة منه كما في الجهاد الأصغر. ولكن يمكن تحاشي سلبياتها حتى تختفي وتخفت إلى حدٍّ أنك لا تكاد تشعر بها وبآثارها.

فمثلاً الشهوة الجنسية في أوجها، وهي الشبق وشهوة النظر وفضوله، تتحول بالجهاد الأكبر إلى نشاط الشهوة الجنسية في إطار حدودها الشرعية فقط، وإلى إرضاء معتدل لحاجة الغريزة الملحة. كما في حالة الجوع مثلاً، حيث يجب إرضاء الجوع، الذي هو أيضاً حاجة الغريزة الملحة، بالكفاف أي بالطعام الذي يسدّ رمقه. وهذا هو المطلوب لا غيره.

ويمكن أيضاً صقلها لاستخراج الإيجابيات منها كما في الغضب والرياء والثأر والانتقام حين يكون لله. وأيضاً أن تكل الحقارة الذاتية والمذلة والهوان إلى الله تعالى، التماساً لتذليلها وتخفيف آثارها، والعياذ والالتجاء به سبحانه وتعالى منها. ثم تعرضها جميعاً عليه جل وعلا تخشعاً وتضرعاً، كما في الأدعية المأثورة عن الأئمة عليهم السلام. فهذا هو الوجه المشرق والجانب الإيجابي من القضية برمتها إن خرجت من قلب صادق منكسر، وطوبى لمن نال هذه الدرجة العظيمة!!!

فانظر إلى تذلل الإمام الحسين عليه السلام وخشوعه وخضوعه أمام الله تعالى في دعاء عرفة. وأيضاً تذلل الإمام علي عليه السلام في دعاء الصباح، وتذلل الإمام زين العابدين عليه السلام أمام الله في أدعية الصحيفة السجادية، في خشوع وخضوع كاملين!

فلو وجهت الحقارة الذاتية نفسها إلى الله تعالى بكل ما فيها من المذلة والهوان، والرياء والمداهنة والشك والغضب والأحقاد، والأنس بالدنيا وحبه، وحب المال والجاه والرئاسة، والطغيان والحسد والغفلة وطول الأمل، والشبق وشهوة النظر وفضوله، وشهوة الغيبة وسماعها،

وشهوة اللغو وسماعه، وحتى هواجسك العصبية واحدة واحدة وغيرها، وأقررت أمامه تعالى بعجزك عن مغالبتها، وعرضت عليه عجزك ومسكنتك وفقرك وزوال نعمتك الذي تخاف منه، لكان هو الجهة الصحيحة للرجوع إليه ﷺ، بدل أن تستبد بك الحقارة الذاتية والهواجس العصبية والشهوة، وتجرك جراً إلى الرذائل والذنوب والمعاصي.

وليعرف من لا يعرف أن من علامات الشبق التكلم والمزاح عن شهوة النساء، والتغزل على صورهن في التلفزيون والجرائد وغيرها ـ والعياذ بالله. وهذه العلامة ظاهرة عادية عند التقليديين من المؤمنين ناهيك عن بقية الرجال.

فالرجاء الرجوع إلى فصل سلمان الفارسي. وانظر ماذا يقول هذا الرجل الخالد في اليوم الثاني من زواجه نقلاً عن حبيبه محمد ﷺ:

«فلما أصبح غدا عليه أصحابه وقالوا: كيف وجدت أهلك؟ فأعرض عنهم ثم قال: «**إنما جعل الله الستور والخدور والأبواب لتواري ما فيها. حسب امرئ منكم أن يسأل عما ظهر له، فأما ما غاب عنه فلا يسألن عن ذلك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: التحدث عن ذلك كالحمارين يتشامان في الطريق**».

وما أكثر الحمير التي تتشام في الطريق عند التقليديين من المؤمنين ـ ناهيك عن غيرهم من الرجال ـ الذين لم يتعرضوا للتربية العرفانية السامية ونظم السلوك، وبقي إيمانهم في حدوده التقليدية فحسب!

فالشهوة غريزة وحاجة طبيعية، كما أن الجوع غريزة وحاجة طبيعية، والدين لا ينفي الغرائز والحاجات الطبيعية البتة. أما الشبق وفضول النظر والسماع فلا غنى عن سندان المذلة ومطرقة الملامة!

أما عملية صقل مرآة النفس وتنظيفها بأنواع الطاعات والعبادات

فقد أخذت من بايزيد خمس سنوات أخرى. كان خلالها مرآة نفسه يراقبها ويصقلها وينظفها بأنواع الطاعات والعبادات. بمعنى أنه حتى بعد اثنتي عشرة سنة من مجاهدات الرجال لم تبرز إلى الوجود مرآة صافية شفافة. ولكنها على كل حال مرآة، أما ليس بالضرورة بتلك الشفافية والصفاء المطلوبتين. هذه المرآة المغبرة المعكرة استلزمت منه خمس سنوات أخرى حتى تصبح مرآة صافية شفافة. نعم تصبح النفس كالمرآة الملوثة المغبرة، وتحتاج إلى الصقل والتنظيف بواسطة أنواع الطاعات والعبادات، تماماً كالبهيمة التي تروضت تحتاج إلى ممارسات طاعات ربها ـ من تعليم وتمرين دائبين ـ حتى تتطوع وتصبح نافعة ومفيدة في الحياة العملية.

فالفضائل ومكارم الأخلاق لا تحل مكان المعاصي والذنوب والرذائل مائة بالمائة. فبعد اثنتي عشرة سنة من العمل الشاق والجهد المضني كان بايزيد لا يزال خليطاً من الرذائل والفضائل. نعم تحقق عنده التواضع، أما أنه كان لا زال مشوباً ببقايا الكبر والصلف والغرور والعجب. وتحققت عنده فضائل التقوى والمعرفة، والخشوع والخضوع والحب والنصيحة، والإيثار والعفو والعدل والزهد، وغض البصر والسمع، وحب الخير والإحسان وحب الله، واليقين والإخلاص والإيمان والحلم وغيرها، ولكنها كانت لا زالت مشوبة ببقايا حب الجاه والمقام والجهل، والطغيان والعداوة والبغضاء والأحقاد، والحسد والانتقام والظلم وحب الدنيا، وشهوة النظر وسماع اللغو، وحب المال وحب النفس، والشك والرياء والكفر والغضب وغيرها.

ولكن بعد سنوات طوال من أفران الرياضة ونيران المجاهدات، تمكن بايزيد من استحضار الرذائل التي كان يعيش فيها ومعرفتها وتلمسها، وأيضاً الفضائل التي كان يطمح إليها. فقد مكنته هذه المعرفة،

والإحاطة بطرفي الصراط، من مسح الشوائب وتنظيفها من فوق المرآة، في خلال خمس سنوات، بأنواع الطاعات والعبادات. وأهم الطاعات والعبادات التي استعملها هي الذكر الخفي والجهاد الأكبر. وأهم الذكر الخفي هو الاستغفار. يقول الله جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[1].

فكما تلاحظون تعابيرنا شتى وحسنك واحد! فالقرآن الكريم يتكلم في الحقيقة عن مقام مرآة النفس، وعن هؤلاء الصالحين من عباد الله من أمثال بايزيد، بعد أن أمضى اثنا عشر عاماً في فرن الرياضة والمجاهدات الشاقة المضنية، حتى صارت نفسه كالمرآة، ينظر فيها كما ينظر المرء في المرآة.

نعم تحقق له التواضع، أما أنه كان لا يزال مشوباً ببقايا الكبر والصلف والغرور والعجب. فربما تكلم بكلمة تنم عن الغرور والكبر، ولكنه يتنبه فوراً ويذكر الله ويستغفر لهذا الذنب العظيم ولا يصر على فعلته تلك. فهذا الاستغفار وذكر الله هو الذكر الخفي. وتنبهه فوراً لفعلته وعدم إصراره عليها وذكره الخفي الدائم المستمر واستغفاره هو العمل، ويجزيهم ربهم على ذلك مغفرة وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين.

فلولا أن نفسه لم تكن مرآة لما تنبه لعمل الفاحشة التي ارتكبها، والظلم العظيم الذي جنى على نفسه بيديه. ولولا أن نفسه لم تكن مرآة

(١) سورة آل عمران، الآيتان ١٣٥ ـ ١٣٦.

لما ذكر الله واستغفر لذنوبه، ومن يغفر الذنوب إلا الله. ولولا أن نفسه لم تكن مرآة لما ظهر منه عدم إصراره على هذا العمل القبيح.

نعم تحققت فضيلة التقوى عنده، ولكن ما هو التقوى؟

التقوى هو أن يعلم المرء علم اليقين بأن كل شيء يقع إنما يقع بمشيئة الله، وأن كل شيء كائن إنما هو كائن بإرادة الخالق المهيمن، وأن التدبير إنما هو من عند الله ﷻ. وإذا وقع وكان ما هو كائن نتيجة لسعي الإنسان فهو الله الذي يشعل في سعيه قوته وحوله. وإذا كان ما هو كائن نتيجة لعقله فهو الله الذي وهبه هذا العقل وهداه إلى ما هداه بواسطته ـ فالأصل هو المبرمج لا البرمجة ذاتها التي تعمل أتوماتيكياً ولكنها من ميسرات الأمور ومسهلاتها في هذه الحياة. وإذا لم يتحقق ما سعى إليه أو أرشده إليه عقله ـ وما أكثر ما تشاء ويشاء الله غيره ـ فهو امتحان يمتحنه الله به ليربيه لمقام أسمى.

أما بايزيد وأمثاله فإنهم يطمحون بكل وجودهم إلى ما يقوله الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «إلهي أغنني بتدبيرك عن تدبيري وباختيارك عن اختياري». ولقد والله فاز المخفون!!!

وما هو التقوى؟ أن يستقيم العبد على صدق عبوديته لله. يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «وأقمني بصدق العبودية بين يديك».

وكما يقول الإمام الصادق عليه السلام في حديث عنوان البصري حين سأله: «ما حقيقة العبودية؟». قال عليه السلام: «ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوله الله ملكاً. لأن العبيد لا يكون لهم ملك، يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به. وأن لا يدبر العبد لنفسه تدبيراً. وجملة اشتغاله فيما أمره الله تعالى به ونهاه عنه. فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوله الله تعالى ملكاً، هان عليه الإنفاق فيما أمره الله تعالى أن ينفق

فيه. وإذا فوض العبد تدبير نفسه على مدبره، هانت عليه مصائب الدنيا. وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه لا يتفرغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس. فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة هان عليه الدنيا وإبليس والخلق. ولا يطلب الدنيا تكاثراً وتفاخراً، ولا يطلب ما عند الناس عزاً وعلواً، ولا يدع أيامه باطلاً. فهذا أول درجة التقى. قال الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

فهل وصل بايزيد إلى التقوى المطلقة من دون شائبة؟ وهل أغناه الله كاملاً من غير نقص بتدبيره الرباني وباختياره الإلهي؟ وهل استغنى كاملاً من غير نقص عن تدبيره الناقص واختياره البشري؟ وهل أقامه الله كاملاً من غير نقص على صدق العبودية بين يديه؟ وهل هو الآن العبد الذي لا يرى لنفسه فيما خوله الله ملكاً بالتمام والكمال؟ وهل أصبح جملة اشتغاله فيما أمره الله تعالى به ونهاه عنه بالكمال والتمام؟

بالتمام والكمال! إنها والله العظيم شيء صعب جداً! يحتاج إلى عمل الرجال الشجعان! فما أكثر الأدعياء والمدعون وأقل العاملون!!!

إن بايزيد من العاملين، ونعم أجر العاملين! وليس من المدعين. إنه ينظر في نفسه كما ينظر المرء في المرآة. إنه يمشي على الصراط المستقيم، فيرى على الطرف الواحد كمال الفضائل ومكارم الأخلاق، ويرى على الطرف الثاني ما لديه من هذه الفضائل مشوبة مغبرة ملوثة، تعترض طريقها الرذائل في كل حين. فقد عمل خمس سنوات أخرى لتنقية الفضائل ومكارم الأخلاق، التي أكرمه الله بها، من رواسب الشوائب التي تعلقت بها. وهذه الفضائل هي التواضع والتقوى والمعرفة، والخشوع والخضوع والحب والنصيحة، والإيثار والعفو والعدل والزهد،

وغض البصر والسمع، وحب الخير والإحسان وحب الله، واليقين والإخلاص والإيمان والحلم وغيرها، التي كانت بعد أفران الرياضة مشوبة ببقايا حب الجاه والمقام والجهل، والطغيان والعداوة والبغضاء والأحقاد، والحسد والانتقام والظلم وحب الدنيا، وشهوة النظر وسماع اللغو، وحب المال وحب النفس، والشك والرياء والكفر والغضب وغيرها.



نظم السلوك
والعقبة الكأداء

ولكن حتى بعد سبعة عشرة سنة من أفران الرياضة، ونيران المجاهدات، والطاعات والعبادات، بقيت في هذه النفس المهذبة النظيفة المصقولة **عقبة كأداء**، ألا هي عقدة من الغرور والتباهي والعجب والاعتماد على الطاعة والأعمال. وفي السنوات الخمس التالية حاول بايزيد البسطامي جهده أن يتجاوزها.

روي أن غلاماً عيّر أبا ذر الغفاري في منفاه قائلاً له: «لو كنت طيباً لما طردك عثمان من المدينة». فأجابه أبو ذر ﵁: «إن أمامي عقبة كأداء إذا تجاوزتها لم أبال بما تقول، وإن لم أتجاوزها فأنت صادق فيما تقول». وربما قالها تواضعاً، وربما لقن الغلام والأجيال القادمة درساً عظيماً، ربما استفاد منه الغلام في مراحل عمره المختلفة، واستفادت منه الأجيال جيلاً بعد جيل.

والحقيقة أن العارف الواصل، الذي تجاوز العقبة الكأداء، واستقر واسترخى في النفس المطمئنة وفي مهاد أمن الله وأمانه، يمكن أن تنغص حياته، في بعض الأحيان، عقدة من الغرور والتباهي والعجب والاعتماد على الطاعة والأعمال وغيرها. فالعارف الواصل في خطر على هذا الصراط حتى آخر نفس من حياته. ربما اعتمد على طاعاته وأعماله وربما

اعتراه الغرور والتباهي والعجب. وإذا استسلم والعياذ بالله لهذه العقدة وقع من على الصراط في الحضيض.

ومن أعظم من رسول الله ﷺ! فهو سيد العارفين الواصلين. رغم ذلك يخاطبه الله بكل وضوح في سورة الزمر قائلاً: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

ولا يغيبن عن بالك ما ذكره السيد حسين العالم (قدس سره) في كتاب المجالس المذكور في كتابي (قدوة الفقهاء والعارفين) صفحة ٣٧٤ كالآتي:

«فقد ورد في الآثار أن زاهداً، في الأزمنة السابقة، عبد الله في زاوية من الجبل، لمدة ستمائة سنة، ولم يعص الله طرفة عين. وقد وهبه الله هناك شجرة رمان وعين ماء. فكان يأكل الرمان من تلك الشجرة، ويشرب الماء ويتطهر به من ذلك العين. فطلب من الله تعالى أن يقبض روحه، وهو في حالة السجود، حتى يقوم من سجدته في يوم القيامة. فاستجاب الله لدعائه.

يقول جبرائيل: لقد وجدت في اللوح المحفوظ مكتوباً، بأنه في يوم القيامة سيقوم الزاهد من سجدته، فيخاطبه الملك العلام أن ادخل برحمتي في جنتي. فيقول الزاهد يا رب أأدخل الجنة برحمتك؟ فأين أجر عبادتي التي استمرت ستمائة سنة؟ فيأمر الله تعالى ملائكته أن احسبوا له ستين سنة عبادة، في مقابل كل رمان أكله. ويجيء النداء الإلهي: «وأين شكر النعم الأخرى؟». فيستعر الزاهد احمراراً من شدة الخجل. فيجلجل خطاب العزة: «خذوه إلى النار». فتعلو صيحات الزاهد قائلاً: «لقد أسأت السلوك فارحمني واعف عني». فيتغمده الله برحمته ويدخله جنته».

أتذكر أن شيخي ومعلمي الرباني صادق العنقا (قدس سره) كان يقول:

ـ **«هذا الرأس يمثل الشيطان في علوه واستعلائه، وهذا القلب يمثل الملكوت في منخفضه وخفائه»**. وكان رسول الله ﷺ يقول: **«لقد أسلم شيطاني على يدي وأعانني الله عليه»**.

فالسير والسلوك يبدأ من القلب وينتهي بالرأس. يبدأ من القلب لتلقي الفيض الإلهي، وينتهي بالرأس، وما فيه من المخ وشبكة الأعصاب التي تتصل بالنظام العصبي ككل، كي يستسلم برمته ويسلم زمام الأمور للعارف الواصل ويسلم على يديه. يقول الله جل شأنه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[1].

أهم شيء يفعله السالك في الطريقة في سيره وسلوكه هو التركيز على قلبه، فالقلب هو نافذته على الملأ الأعلى. ومن خلال هذا القلب تنفتح له الأنوار الإلهية، وينكشف له روحه الذي هو الكائن الإلهي فيه وعينة منه تعالى، والذي نفخه الله جل وعلا **من روحه**. يقول الله سبحانه وتعالى في سورتي الحجر والزمر مخاطباً ملائكته: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾. ومن هنا يعرف السالك ربه لأن الروح عينة من الملك العلام عنده.

والسالك يقطع أشواطاً بعيدة في السلوك من خلال فرن الرياضة والمجاهدات ومرآة النفس. ولكن تبقى العقبة الكأداء. وما أدراك ما العقبة الكأداء! فإذا لم يسلم شيطانك على يديك، ولم يعنك الله عليه، فهو دائماً لك بالمرصاد. يضع ملايين الملايين من أحابيله في طريقك. كيف ذلك؟

لأن الرأس لم يستسلم بعد! فهكذا خلقنا الله! شبكة عظيمة من

---

(١) سورة الزمر، الآية ٢٣.

الأعصاب متصلة بالدماغ الذي مقره الرأس، والتي نسميها بالنظام العصبي والفسيولوجي. إنه نظام غير عقلائي ويجانب المنطق. فهو نظام ردود الأفعال للأفعال التي تصدر عن الإعوجاجات الذاتية وعن الطبيعة والمجتمع الذي حواليك، وتصلك عن طريق الحواس الخمس، أو بالتحديد تصل المخ عن طريق الحواس الخمس، ثم تصل إلى هذه الشبكة المعقدة من الأعصاب عن طريق المخ. ولكن ماذا يكون ردود الأفعال يا ترى؟

أكثرها مفيدة لحفظ حياتك من أي خطر، وأساسية لاستمرارك في عمرك الذي قرره الله تعالى لك في هذه الدنيا، وضرورية جداً لاستمرار النوع البشري. يعمل هذا النظام أتوماتيكياً لهذه الأغراض من دون تدخل منك ومن إرادتك ومن عقلك ومنطقك.

ولكن هذه الدنيا مزرعة الآخرة كما يقول الرسول الأعظم ﷺ. ويقول الله جل شأنه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[1]. فمن كان يريد حرث الآخرة ينال الخلود والسعادة الأبدية الأزلية فيه، وينال النفس المطمئنة الخالدة، بالإضافة إلى حرث الدنيا. أما من كان يريد حرث الدنيا وحده فإن هذا النظام العجيب خلقه الله تعالى لحرث الدنيا واستمراريتها.

وإذا أردنا حرث الآخرة فلا بد من نظم السلوك، حتى ينتهي بنا المطاف أخيراً إلى أن يسلم على يدينا هذا النظام العصبي برمته بقيادة المخ القابع في الرأس. وإذا دخلنا في نظم السلوك لم يستسلم لنا هذا

(١) سورة الشورى، الآية ٢٠.

النظام العجيب بهذه السهولة، وتكون القلعة الأخيرة التي تسقط وتنهار في طريقة السير والسلوك.

فهو نظام استكبار واستعلاء غير عقلائي، ويتسبب في بعثرة القوى العظيمة التي تجندت فينا. وهذا النظام العصبي الخفي فينا بقيادة الدماغ هو **العقبة الكأداء**. فهو السبب في عقدة الغرور والتباهي والعجب والاعتماد على الطاعة والأعمال، التي لا تخضع لمنطق الأنبياء، والتي أخذت من بايزيد خمس سنوات طوال للتغلب عليها.

وما أكثر السالكون الذين يتساقطون من فوق الصراط كما تتساقط ورق الشجر في فصل الخريف! **وهذا هو الصراط أو الجسر الممتد بين بعد الله وقربه.** وأصناف السالكين الذين يتساقطون ذكروا بالتفصيل في فصلي (التجلي الذاتي) و(قدسية الزلفى) في كتابي السماوات السبع.

توجد هناك هواجس عصبية هي في الواقع جروح في النظام العصبي، وتسمى العقد النفسية، يرجع عهدها إلى أيام الطفولة في غياب وعي الطفل. فتبقى في منطقة اللاوعي تهدد الإنسان دائماً، وتبقى بشكل الحركات اللاإرادية والخواطر والهواجس العصبية التي تشغل حيزاً لا يستهان به من روح الإنسان وأفكاره وخواطره، بل وتلوثها. ويأتي اصطلاح (نفي الخواطر) في العرفان من هذه الحقيقة، وهي آخر قلعة تواجهنا في هذا الجهاد وهذه الحرب الشرسة الضروس لتحرير رقابنا من النار.

وخلال أفران الرياضة ونيران المجاهدات يكون العارف قد أبلى بلاءً حسناً، وواجه معظم الحجب الكثيفة والتراكمات الرهيبة التي تغطي جذور العقد النفسية، التي ترجع إلى أيام الطفولة، والتي تكونت في غياب وعي الطفل واستقرت عنده في منطقة اللاوعي. نعم يكون العارف قد غالبها وصارعها ثم خرق معظمها وطوع آثارها وأعراضها.

ولأن العارف يطمح إلى العبودية المطلقة لله ﷻ، ولا يقبل بعبودية شيء غيره، حتى إذا كان هذا الشيء هو الهاجس العصبي في اللاوعي، لذلك لا يرتاح له بال ولا يقر له قرار حتى يكشف غوامض اللاوعي بأنوار الذكر الخفي، وينفذ نفوذاً في منطقة اللاوعي، ويسلط الأضواء على منطقة من المخ التي ترسل هذه الرسائل الكيماوية والكهرومغناطيسية لا إرادياً إلى النظام العصبي، ومن ثم يسيطر على هذه الرسائل إيجابيًّا ويشفي الجروح في النظام العصبي، بعون الله جل وعلا الذي يتولى الصالحين من عباده.

ولماذا ترسلها لا إرادياً؟

القصة هي أن الناس، وخصوصاً الإنطوائيين الحساسين منهم، كما يسميهم علم النفس الحديث، تعرضوا في طفولتهم لأحداث أخلت بناحية الأمن والأمان في داخلهم وفي بواطنهم. فكانت تصل هذه الرسائل إلى المخ، وكانت منطقة من المخ التي ساورتها من جراء هذه الأحداث مشاعر رهيبة من القلق والإضطراب، لم تقدر على تحملها.

والآلية التي تعمل في الإنسان، هو أنه في حياة اللاوعي من الطفولة التي تفتقد فيها المعرفة والإرادة، تعبر هذه المنطقة من المخ عن مشاعرها الرهيبة المكبوتة بإرسال إشارات وتذبذبات بشكل حركات لا إرادية عبر النظام العصبي إلى مناطق معينة في البدن، والتي تشكل عقدة نفسية تؤذي الإنسان دائماً في حياته وتنغص عليه سعادته.

وفي أيام المراهقة يواجه الإنسان خواطر رهيبة جديدة، وخصوصاً في الفترة التي تتصادم فيها الشهوة الجنسية، التي استيقظت فيه حديثاً، مع العقل والمنطق. وهذه الإضافات الرهيبة تتراكم وتشكل عقدة أخرى، ثم تزيد التراكمات حتى تتشكل منها الجبال من القمامات والأقذار.

وتتجلى هذه العقد عادة في سلوكيات الإنسان بشكل حاد، إلا من رحم ربي!

وإذا دخل الإنسان في طريقة السير والسلوك ونفذ في منطقة معرفة النفس فإن سلوكياته تتغير وتتعدل ولكن بحالة نسبية، إلا من رحم ربي، وأدخله ربي إلى مقام النفس المطمئنة مع أولئك الذين لهم الأمن وهم مهتدون! وهذا غير ممكن إلا إذا تخطى السالك العقبة الكأداء برمتها، بعد أفران الرياضة ورؤية مرآة النفس والعبادات والطاعات.

وربما أدت هذه التراكمات من العقد إلى الأمراض النفسية والتي تعالج أعراضها فقط في المستشفيات. أما الجذور فتبقى عند الإنسان رغم دراساته العالية في الجامعات وتبوئه عروش الملك أو مناصب عالية وزارية وغيرها. لأنها تبقى وراء الحجب الكثيفة من التراكمات بحيث لا يمكن رؤيتها إلا لمن رحم ربي!

وعند حصول المعرفة والإرادة، ربما في الكهولة، يتعامل بعض السالكين مع الحجب الكثيفة، ويحاولون التغلب على الحجب حجابا حجاباً، لأنه لا يمكنهم التعامل مع الجذور. أما الجذور فتبقى تراوح مكانها، لانها غائبة عنهم، وهي تهددهم وتتوعدهم من وراء الحجب الكثيفة. والإنسان يعيش مهدداً في أمنه وأمانه وفي ظلمات من الظلم. يقول الله جل شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

والذي لم يحظ بشرف الإيمان وطريقة السير والسلوك تتشبع روحه بهذه العقد وتراكماتها الرهيبة، فيحمل أثقالاً منها إلى النشأة الأخرى في

(١) سورة الأنعام، الآية ٨٢.

الدار الآخرة وهو البرزخ بعينه. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

فكيف يرضى العارف بهذه الأصفاد والسلاسل والأغلال تشبع روحه وتقيده! وما عقدة من الغرور والتباهي والعجب والاعتماد على الطاعة والأعمال، التي تكلم عنها بايزيد، إلا رواسب وبقايا من الحجب الكثيفة التي تغطي جذور عقد النفس، وتلفها بحيث تستقر في وسطها، لا يراها الرائي إلا من رحم ربي!

ثم إن النفس المطمئنة هي النفس التي تخطت وتجاوزت هذه العقبة الكأداء ونالت السكينة المطلقة. فكيف يصل العارف إلى هذه السكينة المطلقة؟ وما أكثر الأدعياء والمدعون وما أقل العاملون!!!

ولأن العارف يطمح إلى السكينة المطلقة والنفس المطمئنة والأمن والأمان الذي يتحقق بعد تجاوز بقايا ورواسب الظلم الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام الآنفة الذكر، فهو لا يرتاح له بال ولا يقر له قرار حتى يصل إلى جذور العقد النفسية في مناطق المخ المختصة، ويداويها بإرادته وهمته وعزيمته وذكره الخفي: «**إلهي تولني بسكينتك وصبغتك**»، والتي هي في الواقع إرادة الله وهمته وعزيمته وذكره سبحانه وتعالى الذي يتولى الصالحين من عباده. فتنتشر السكينة في هذه المناطق البائسة، وتشفيها كالمرهم الذي يشفي الجروح، وتكون برداً وسلاماً على نيران هذه الجذور من العقد النفسية.

علماً بأن الأحداث التي تقع وقت الطفولة، وتخل بناحية الأمن والأمان في داخل الإنسان وبواطنه، وتستقر وتترسخ في اللاوعي بشكل

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ١٠٠.

عقدة نفسية، تفرز هواجسها العصبية من منطقة خاصة في المخ بشكل حركات لاإرادية. وإذا نظر العارف في هذه المرآة جيداً أحس بمرارة المشاعر الرهيبة في هذه المنطقة بالذات من المخ، والتي تتغطى وتتهرب من القلق والاضطرابات، وتشغل نفسها بالحركات اللاإرادية. فإذا وهبها الله السكينة توقفت هذه الحركات واختفت التوترات واسترخى البدن خشوعاً وخضوعاً لله.

أما الأحداث التي تقع في أيام المراهقة إثر اضطرابات وإحباطات عاطفية، وتخل بناحية الأمن والأمان في داخل الإنسان وبواطنه، وتستقر وتترسخ في اللاوعي، فهي تشكل عقداً نفسية أخرى على أنقاض العقد القديمة. وهذه العقد الجديدة تفرز هواجسها العصبية من منطقة أخرى في المخ، لأنها في شريحة أخرى سطحية من اللاوعي، وتكون على شكل خواطر مؤذية. وهذه الخواطر هي في مرحلة العقبة الكأداء تحتاج إلى عملية المراقبة الدائمة وعملية عرفانية أخرى تسمى: «**نفي الخواطر**».

ولنضرب مثلاً كيف أن المخ ورسائله إلى النظام العصبي لا يعمل بطريقة عقلائية، إذا كنا في عمل حرث الآخرة. فلربما سمع الشاب المراهق يوماً ـ في عهد الجهل والطيش ـ من أحد الأفراد في المجتمع (ربما مزاحاً وربما باحتقار) بأنه فقير بائس. فتأخذه العزة بالإثم والعار الموهوم، وتنمو «عقدة الحقارة» في نفسه، يظن بموجبها أن الفقر عار كبير، ويأخذه العار والشنار من ذلك، ويسلك في حياته بطريقة غير عقلائية لكي يثبت دائماً أنه غني وليس بحقير، وذلك بالتفاخر والمباهاة بما عنده، حتى ينفس عن عقدة الحقارة التي يعاني منها. وما أكثر من يقترف الظلم والسرقة والغش والآثام الأخرى، وكلها ترجع إلى عقدة الحقارة عندهم.

وربما سمع الشاب المراهق يوماً ـ وذلك في أيام الجهل والطيش أيضاً ـ أنه بائس منبوذ في المجتمع، لا جاه ولا مقام له (ربما مزاحاً وربما باحتقار) فيأخذه العار الموهوم، وتتكون عنده «عقدة العظمة»، يتصور بموجبها أن عدم الجاه والمقام عار كبير. ومن منطلق العار والشنار يتصرف في حياته بطريقة غير عقلائية، لكي يثبت دائماً أنه الأعلى، وذلك بحب الرئاسة واحتقار الآخرين والقتل وسفك الدماء، حتى ينفس عن عقدة العظمة التي يعاني منها.

وربما سمع الشاب المراهق يوماً من رفاقه ـ في أيام جهالته طبعاً ـ أن لا رجولة عنده (ربما مزاحاً وربما باحتقار)، فتنمو عنده «العقدة الجنسية»، يحسب بموجبها أن عدم الرجولة عار كبير، ودفعاً للعار والشنار الموهوم الذي يظنه ظنًّا يتصرف في حياته بطريقة غير عقلائية، لكي يثبت دائماً أنه رجل، وذلك بالانغماس في الفواحش والفضائح وكثرة الجنس، حتى ينفس عن هذه العقدة التي يعاني منها.

والأكثرية لا يدركون معاناتهم الأليمة من عقد الحقارة والعظمة والجنس، وهم قد اقتنعوا في قرارة أنفسهم بفضيحة العار والشنار الموهوم التي تعيث في بواطنهم فساداً. وهم منغمسون ومستمرون في اقتراف ذنوبهم وآثامهم لإطفاء هذا العار الموهوم، بالتفاخر والتباهي والظلم والسرقة والغش، وحب الرئاسة والجاه والمقام واحتقار الآخرين والقتل وسفك الدماء واضطهاد الآخرين، واقتراف الفواحش والفضائح وغيرها.

أما الأقلية الذين تعاملوا مع الذنوب والآثام، خلال مسيرتهم الطويلة في السير والسلوك، فهم يرون الأشياء على حقيقتها. يرون أن

النظام العصبي، بقيادة المخ القابع في داخل الرأس، غير عقلائي تماماً، ولا يستجيب لنداء المنطق والعقل. فهو مصر على جهله وطيشه وظنونه الوهمية، لا تزعزعه الإرادات ولا تزلزله العزائم، وهو حقاً العقبة الكأداء في طريقهم إلى الحق. فمواجهة النظام العصبي هذا بقيادة الدماغ ليست بالشيء الهين السهل اليسير البتة.

وبطبيعة الحال هذا النمط النادر من الناس قد بدأوا في هذه الحرب الشرسة مع النظام العصبي، منذ أوائل حياتهم حتى قبل السير والسلوك، ثم استمروا في هذه الحرب الضروس تدريجياً بعد دخولهم السير والسلوك، في عهود الرياضة ومرآة النفس والعقبة الكأداء. وربما هذه البصيرة في بعض الناس تجرهم جراً إلى السير والسلوك إلى الله تعالى.

أما في مرحلة العقبة الكأداء فالمطلوب حقاً نهاية هذه الحرب بانتصار العارف على النظام العصبي وبهزيمة هذا النظام آخراً وأخيراً، بمعنى أن يسلم هذا النظام على يديك ويعينك الله عليه، كما قال الرسول الأكرم ﷺ: «**أسلم شيطاني على يدي وأعانني الله عليه**».

أليست هذه مهزلة غير عقلائية يضحك منها حتى الأطفال! رغم ذلك فإن أكثرية البشر مبتلون بها ويعانون منها، لأنهم واقعون تحت استبداد النظام العصبي، تغذيه ذنوبهم وآثامهم من قبيل الكبر والجهل والظلم والغفلة والأحقاد والحسد والانتقام، وحب الدنيا والحرص والشبق والشك والرياء والغضب، وحب المال والغنى وحب الجاه والمقام والرئاسة وغيرها.

أليست هذه هي المؤامرة الكبرى، تشترك فيها الذنوب والآثام والنظام العصبي، تتفاعل مع بعضها البعض كالنار في الهشيم! أليست

هذه هي ﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾(١)! أليست هي ﴿ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾(٢)! ولو كشف لكم الغطاء لترون الجحيم، ثم لترونها عين اليقين، ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾(٣)! والنعيم لا يتاح إلا لمن عتقت رقابهم من النار. هذه النار التي يحملها الإنسان في طياته، وبدل أن يسعى في إطفائها يغذيها ليل نهار بوقود الجهل والأوهام والظلم والذنوب والآثام.

وهذه هي المهزلة الكبرى في الوجود لا ينجو منها إلا الأنبياء والأئمة المعصومون ومن كان على نهجهم من الصديقين والأولياء وعباد الله الصالحين والعرفاء الواصلين. ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾(٤)، وأولئك هم!

هذه هي مهزلة غير عقلائية يدور في دوامتها كل البشر إلا من رحم ربي ـ دوامة ردود الأفعال العصبية(٥)، وهذه هي العقبة الكأداء حقاً. وما أكثر الأدعياء وأنصاف العلماء الذين إذا كلمتهم عن العرفان أعرضوا عنك تكبراً، ونقلوا لك قول الإمام الخميني: العرفان هو ما تقرؤونه من أدعية أهل البيت عليهم السلام. إذن ماذا يقول لكم الإمام الخميني؟ إذا تكلم فوق هذا شتمتموه كما شتمتم من قبل العلامة الطباطبائي، وميرزا علي

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٤.

(٢) سورة الهمزة، الآيات ٥ ـ ٩.

(٣) سورة التكاثر، الآية ٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

(٥) ذكر في كتاب السماوات السبع للمؤلف في شرح فصل (سر الله العلي):. «أي ردود فعل جهازنا العصبي قبال غيرنا وكلها غير عقلائية، وتنبع من توجهاتنا إلى الأغيار، فلا بد من العودة من الأغيار إلى حقيقة نفسنا، كما قال الرسول صلى الله عليه وآله: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»، وهذا من اختصاص العرفان العملي.

القاضي وغيرهم من العرفاء. هل فهمتم من هذا أن العرفان مجرد قراءة؟ فلو طبقتم مضامين هذه الأدعية الشريفة لعرفتم مدى صعوبتها. نعم العرفان هو التطبيق الكامل لمضامين هذه الأدعية الشريفة، ولا ينال هذا الشرف العظيم إلا الفائزون، الذين زحزحوا عن النار وأدخلوا الجنة، والذين تعرضوا قبلها لفرن الرياضات ومرآة النفس وأخيراً تجاوزوا العقبة الكأداء التي هي وحش المسيرة في قول الشاعر[1]:

وحش المسيرة إن تروض طبعها | عاشت مشيئة ربها بسراها
فرياضة الوحش المبين بجهرها | وبسرها شرط لنيل بقاها



وبعد اثنتين وعشرين سنة تطهر بايزيد من الذنوب والمعاصي والرذائل، وانكشف السواد من قلبه بحيث لم تبق فيه عقدة أو نقطة سوداء. وأسلم إسلاماً جديداً حيث قال: «لا إله إلا الله»، لا بلقلقة اللسان، ولكن بقلب سليم تخلص من أنواع الأمراض والعاهات. نفى غير الله في كل ذرة من وجوده بقوله قولاً وعملاً: «لا إله». وأثبت الله وحده في كل ذرة من وجوده، ولم يشرك معه أحداً، بقوله قولاً وعملاً: «إلا الله». يقول الشاعر:

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله | لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وهذا الإسلام الجديد هو كمال التسليم إلى الله. ولما تحقق للعارف هذا التسليم المطلق لله وجه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً كما حصل لإبراهيم ﷺ، واستقر واسترخى في مهاد أمن الله وأمانه.

---

(١) السماوات السبع فصل (نفي الكثرة الموهومة) للمؤلف.

وماذا بعد الإسلام الجديد! هل يوجد في ذرات وجوده غير الله؟ حاشا وكلا! خرج من التكاثر ولم يشعر بالخلق حوله رغم مخالطتهم وقضاء الحياة اليومية معهم. وجد الخلق كل الخلق أمواتاً وكبر عليهم أربعاً، بمعنى أنه كان لا يبالي ولا يعبأ بهم. ومر على جنائزهم، بمعنى أنهم قد أصبحوا من الماضي بالنسبة له، وقد تضاءلت أعيانهم في نظره، وتخافتت ذكرياتهم في ذاكرته، كما قال الشاعر:

شخوص وأشباح تمر وتنقضي وتفنى جميعاً والمحرك باقي

أو بمعنى آخر توقف عن العيش معهم في اهتماماته ورغباته، وعن معاناة مخالطتهم. واستغنى عن الخلق، ووصلت قناعته الذروة، وأخلص في صدقه، حتى جمع الزبارج من متاع الدنيا وربطها بسلاسل القناعة ووضعها في منجنيق الصدق ثم قذف بها إلى بحر اليأس.

ثم سما ووصل إلى الله بعون الله تعالى. بمعنى أنه ركز كل توجهاته على الله وحده لا يشرك معه أحداً، بحيث وصل واتصل أخيراً مع الله لا فرق بينه وبين حبيبه، كما في حديث الشراب للإمام علي عليه السلام: «إن لله شرابا لأوليائه إذا شربوا سكروا وإذا سكروا طابوا وإذا طابوا ذابوا وإذا ذابوا طلبوا وإذا طلبوا وجدوا وإذا وجدوا وصلوا وإذا وصلوا اتصلوا وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم».

إنه انقطع إلى الله تعالى بكليته وتغمده الله برحمته وأرجع الخلق إليه، كما نقل معروف الكرخي عن ابن السماك وأيده الإمام الرضا عليه السلام .



مصادر الكتاب

تذكرة الأولياء للشيخ فريد الدين العطار

أويس القرني تأليف محمد رضا يكتايي

سلمان الفارسي تأليف محمد جواد آل الفقيه

ألف باء العرفان للمؤلف

السماوات السبع للمؤلف

قدوة الفقهاء والعارفين للمؤلف

قدوة العارفين للمؤلف

مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي

عبقرية الإمام الصادق عليه السلام بترجمة ذبيح الله منصوري





فهرس المحتويات

المحتويات

المقدمة ٥

سلمان الفارسي
رضوان الله عليه

نبذة من فضائل سلمان الفارسي ٢١
سلمان في صباه في فارس ٢٦
شباهته بإبراهيم الخليل ٢٩
سلمان الدوحة المحمدية ٣٤
هجرة سلمان إلى الشام ٤٢
سلمان في أنطاكية والإسكندرية ٤٥
هجرة سلمان إلى أرض الحجاز ٥٠
إن مع العسر يسرا ٥٥
كلام الله تعالى مع البشر ٥٩
قصة آدم ٦٧
قصة أيوب ٧١

عين الحياة ٧٦
إسلام سلمان الفارسي ﵁ ٨٢
سلمان شيعة الإمام علي ﵇ ٨٧
علم سلمان وزهده ٩١
علمه بالغيب أو علم المنايا والبلايا ٩٥
فضائل سلمان المحمدي ٩٧
مواعظ سلمان ودرر حكمه ١٠١

أويس القرني
رضوان الله عليه

أويس القرني رضوان الله عليه ١٠٧
أويس راعي الجمال ١٠٩
والدة أويس القرني ١١٤
الأحاديث النبوية في فضائل أويس القرني ١١٧
شهادة أويس القرني في صفين ١٢٣
أويس نفس الرحمن وروحه ونسيمه العطر ١٢٧
أويس العارف وحواري عليّ ﵇ ١٣٠
أويس الجواد المتواضع ١٣٥
أويس الزاهد الورع ١٤١
درر الحكم وجوامع الكلم لأويس القرني ١٤٦
العبودية جوهرة كنهها الربوبية ١٥١

بايزيد البسطامي
قدس سره

نبذة من سيرة بايزيد البسطامي ١٦٩

أم بايزيد البسطامي وطفولته ١٧١
كرامات بايزيد ومعجزاته ١٧٤
مناجاة بايزيد مع ربه ١٧٩
جذبات بايزيد البسطامي ١٨٤
وصايا بايزيد ومجاهداته ١٨٩
حكايات بايزيد عن نفسه ١٩٣
حكاياته مع عرفاء عصره ١٩٨
حكاياته مع مريدي عرفاء عصره ٢٠٢
تواضع بايزيد البسطامي وبساطته ٢٠٥
اختلاف بايزيد مع علماء عصره ٢٠٧
صفات العارف في نظر بايزيد البسطامي ٢١٠
درر الحكم لبايزيد البسطامي ٢١٥
جوامع الكلم لبايزيد البسطامي ٢١٨

بشر الحافي
رضوان الله عليه

بشر الحافي تلميذ الإمام الكاظم عليه السلام ٢٢٥
كرامات بشر الحافي (قدس سره) ٢٢٧
درر الحكم لبشر الحافي (قدس سره) ٢٣٠
مقامه العظيم وعلمه وكرمه وتوكله ٢٣٣
ما هو التوكل والصبر ٢٣٥
ما هي المعاصي والذنوب ٢٣٩
وفاة بشر الحافي (قدس سره) ٢٤٥
السير والسلوك من القلب إلى الرأس ٢٤٨

كل شيء من الله وإليه ٢٦٣

معروف الكرخي
قدس سره

معروف الكرخي حاجب الإمام الرضا عليه السلام ٢٨٧
رجال من الفرس وعلم الأنبياء ٢٨٩
درر الحكم وجوامع الكلم لمعروف الكرخي ٢٩١
ما هي علامات العارف ٢٩٣
أهمية الإمام المهدي عليه السلام في التربية العرفانية ٢٩٧
كرامات معروف الكرخي (قدس سره) ٣٠٥
وفاة معروف الكرخي (قدس سره) ٣٠٧
نظم السلوك وفرن الرياضة ٣٠٩
نظم السلوك ومرآة النفس ٣٢٠
نظم السلوك والعقبة الكأداء ٣٢٨
مصادر الكتاب ٣٤٣
المحتويات ٣٤٧



دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت لبنان



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com